الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

جامعة مصطفى اسطمبولي
معسكر



Université MUSTAPHA Stambouli
Mascara

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث

تخصص: الحوض الغربي للمتوسط تاريخ وحضارة

فرع: الدولة العثمانية وغرب المتوسط (1492-1912م)

العنوان:

قبائل وهران والاحتلال الإسباني

قراءة في مواقف التحالف والولاء

تقديم الطالب (ة): هاشمي بن براهيم

يوم: 18/05/ 2021م

أمام لجنة المناقشة:

الرئيس	بوجلال قدور	أستاذ محاضر أ	جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر
الممتحن	درعي فطيمة الزهرة	أستاذة محاضرة أ	جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر
الممتحن	هرباش زاجية	أستاذة محاضرة أ	جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر
الممتحن	بليل محمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة ابن خلدون تيارت
الممتحن	حمدادو بن عمر	أستاذ التعليم العالي	جامعة أحمد بن بلة وهران 1
المقرّر	بوغفالة ودان	أستاذ التعليم العالي	جامعة مصطفى اسسطمبولي معسكر

السنة الجامعية: 2020-2021

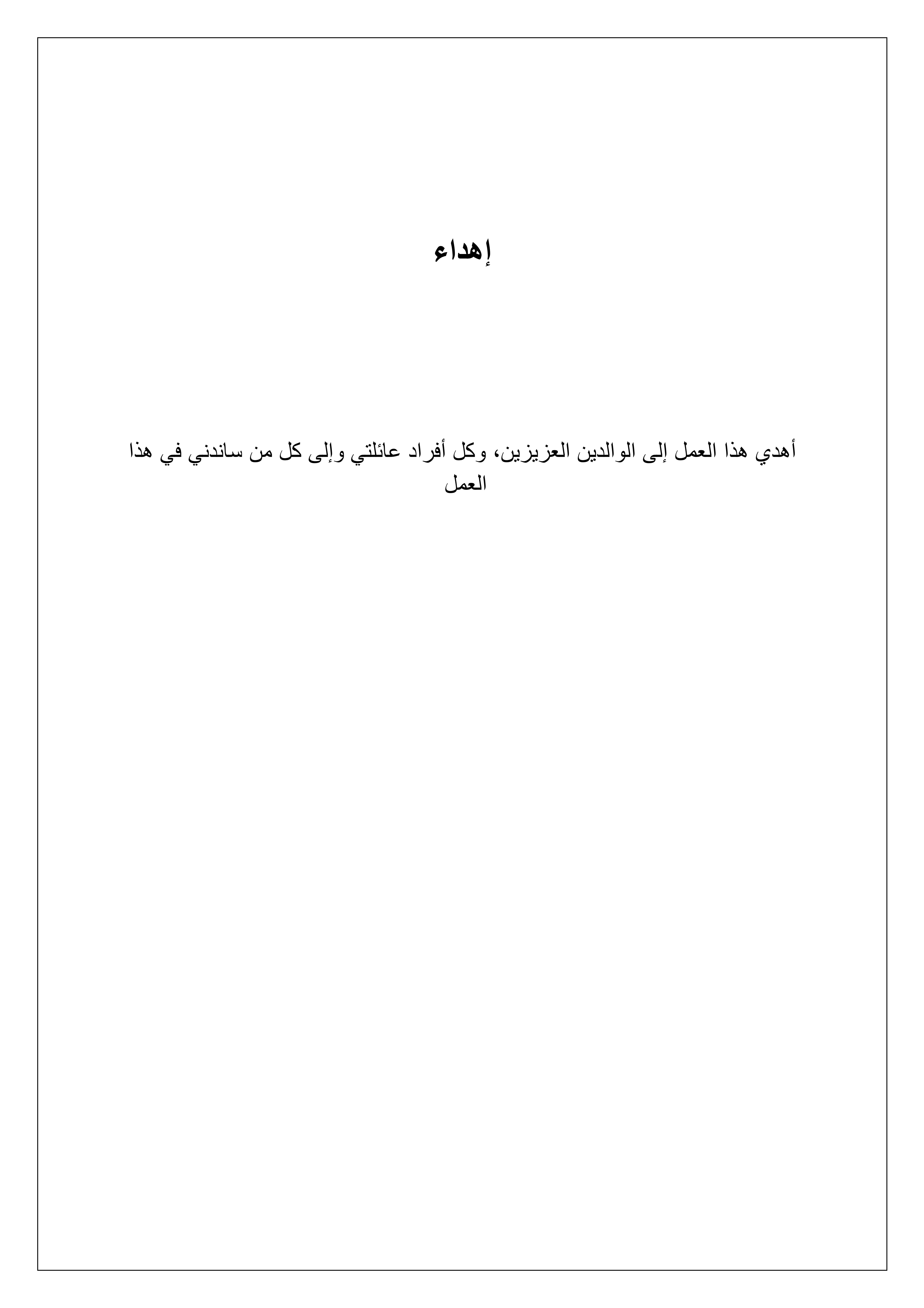

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

الحمد لله والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين؛ أمّا بعد:

أتقدّم بأسمى عبارات الشّكر والامتنان إلى أستاذي المشرف "البروفيسور بوغفالة ودان، الّذي ساهم في تكويني العلمّي والمنهجي، وساندني بعبارات التشجيع، وأشكره على سعة صدره وحسن معاملته.

كما أوجّه كلمات الشكر إلى القائمين على المكتبات، وخاصة عمّال مكتبة ابن التّهامي وعاملاتها وسط مدينة معسكر، والقائمين على مكتبة بلدية وهران، وعمّال مكتبة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة معسكر.



إهداء

أهدي هذا العمل إلى الوالدين العزيزين، وكل أفراد عائلتي وإلى كل من ساندني في هذا العمل

أ-باللغة العربية:

تح: تحقيق.

ج: جزء.

د.ت: دون تاريخ.

ص: صفحة.

ط: طبعة.

م: ميلادي.

ه: هجري.

ب-باللغة الأجنبية:

A.E.S.C : Annales, Economies, Sociétés, Civilisations.

A.N.I : l'Afrique du Nord illustrée.

B.H : Bulletin Historique.

B.S.A.S.A : Bulletin de la Société d'Agriculture, Sciences et Arts.

B.S.G.A.O : Bulletin de la Société de la Géographie et d'Archéologie de la Province d'Oran.

C.M : Cahier de la Méditerranée.

Ed : Edition.

Ibid : Ibidem (même Ouvrage).

M.A.N : mémoire de l'Académie de Nimes.

N° : Numéro.

Op.Cit : Ouvrage Précédemment cité.

P : Page.

PP : Pages.

R.A : Revue Africaine.

R.H : Revue Historique.

R.L.C.R : Revista Lusfona de Ciencia das Religioes

R.O.M.M : Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée

S.H.PH.A : Sciences Historiques et Philologiques Annuaire.

T : Tome.

Tr : Traduction.

مقدمة

يُركّز موضوع البحث على فترة الاحتلال الإسباني لوهران والمرسى الكبير في الفترة الممتدّة ما بين (1509-1792م) أيّ منذ بداية الاحتلال حتى الخروج النهائي من وهران والمنطقة، وقد ركّز الإسبان اهتماماتهم على وهران والمرسى الكبير؛ لأهميتهما الإستراتيجية في الحوض الغربي للمتوسط، لإنفتاحهما على السواحل الجنوبية الإسبانية، وبإمكان اسبانيا مراقبة السفن الجزائرية التي تهاجم السواحل الإسبانية.

وضع الإسبان خُطط عسكرية للتوغّل في عمق الغرب الجزائري (بايلك الغرب) وربط علاقات وديّة مع القبائل القريبة من وهران أو البعيدة نسبيا عنها، أحيانا بالإخضاع العسكري وأحيانا أخرى بالتعاملات الإقتصادية، في مقاربة تعتمد على التحالف والولاء مع القبائل الوهرانية، ومحاولة السيطرة على حواضر بايلك الغرب الكبيرة (تلمسان، معسكر، مستغانم...)؛ لكن هذا الوجود جابهته قبائلُ وهرانيةٌ أخرى معاديةٌ لهم وتتلقّى الدعم الكبير من الأتراك العثمانيين، ابتداء من الإخوة بربروس في االنصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي إلى الباي محمد الكبير في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي. كانت القبائل الوهرانية محرّكا مهمّا في تاريخ المنطقة.

لقد عرفت المنطقة استقطابا قبليا كبيرا، وتنافس شرس بين الوافدين الجدد (الأتراك العثمانيين والاسبان)، فقد أَوْفَدَ الاتراك العثمانيون التقاليد والعُرفَ الاسلاميّ، يتقاسمون رابطة الدين مع كل القبائل الوهرانية سواء أكانت عربيةٌ أو بربريةٌ. والاحتلال الاسباني المسيحي لم يمنع تحالف وتعاون القبائل الكبيرة والقوية معه، في ظل تضعضع السلطة الزيانية وضعفها، والتي لم تستطع حتى الدّفاع عن أسوار عاصمتها تلمسان، فضلا عن الدّفاع عن الآخرين، في هذه الفترة كانت الدولة الزيانية تتنفّس آخر لحظات وجودها كدولة كلاسيكية تعتمد على العصبية القبلية في تأسيسها وصيرورتها التاريخية.

يبدأ البحث في موضوع القبائل الوهرانية التي تحالفت وأعطت ولاءها للإسبان، ودراسة موقفها من القبائل الأخرى والأتراك العثمانيين، والموسوم ب: **"قبائل وهران والاحتلال الاسباني: قراءة في مواقف التحالف والولاء"**. ويمتد فترة هذا البحث طيلة وجود الاحتلال الاسباني بوهران والمرسى الكبير من 1505 إلى 1792م تاريخ الانسحاب الاسباني من وهران بعد الطرد النهائي على يد باي معسكر محمد الكبير.

ولمعالجة هذا الموضوع بطريقة علمية نطرح **إشكالية رئيسية** تتفرّع عنها تساؤلات تحاول الإجابة عن الإشكالية الرئيسية وهي: إلى أيّ مدى عزّز تحالف القبائل الوهرانية وتعاونها مع الاحتلال الاسباني في تعزيز وجوده في وهران والمنطقة؟

وما موقف هذه القبائل من الاحتلال الاسباني وتأثيرها؟ وما العوامل المتحكّمة في موقفها؟ وما العلاقة المترتّبة في ذلك مع القبائل الأخرى؟ وما موقف القبائل الأخرى المتحالفة مع العثمانيين من الاحتلال الاسباني؟ وما مكانتها التاريخية في التجربة الجزائرية؟

من أسباب اختيارنا للموضوع: أسباب ذاتية جعلتني أخوض في موضوع القبائل الوهرانية المتحالفة مع الاسبان؛ لإنتمائي لمنطقة الغرب الجزائري (بايلك الغرب سابقا) والتطلّع الى معرفة تاريخ المنطقة، وقد برزنا ميولاتنا في البحث في تاريخ المنطقة، التي تعرّضت للإحتلال الأوربي، ما ولّد لدينا رغبة في الغوص في البحث، وطبعا بعد التّشاور مع الأستاذ المشرف.

لقد ساهمت عدة دراسات سابقة عن جامعات جزائرية في اثراء الموضوع، وأشارت مضامين هذه الدراسات إلى علاقة الأسبان مع القبائل في تعزيز وجودهم لمدة أطول. ومن بين هذه الدراسات: رسالة ماجستير منشورة عن جامعة وهران للباحثة دغموش كاميلية بعنوان: **قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الاسباني والسلطة العثمانية** (**1509-1792م**)، وقدّمت هذه الدراسة مختلف قبائل الغرب الجزائري، سواء التي تحالفت مع الأسبان أو قبائل مناوئة لهم أم قبائل رعية. مع ذكر الأسباب التي دفعت القبائل للتعاون مع الأسبان، وما مدى مساهمتها في تعزيز الاحتلال الاسباني بالمنطقة وتقويته. ورسالة ماجستير للباحث دكاني نجيب: **الاحتلال الاسباني للسواحل الجزائرية وردود فعل الجزائرية خلال القرن العاشر الهجري والقرن السادس عشر الميلادي**، عن جامعة الجزائر، تحت إشراف: ناصر الدين سعيدوني، والتي بيّن فيها التحرّشات الاسبانية على كاملِ سواحلِ الجزائر منها وهران والمرسى الكبير وردود الفعل الجزائرية من خلال دور الأخوة بربروس في مواجهة الاحتلال، وأطروحة الدكتوراه المعنونة ب: **أوضاع الريف في بايلك الغرب أواخر العهد العثماني"** لصاحبها كمال بن صحراوي عن جامعة وهران، عالج فيها وضع الريف في بايلك الغرب أواخر العهد العثماني، وتطرّق لوضع الريف أواخر العهد الاسباني في أطره الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

وللإجابة عن هذه الإشكالية تمّ تقسيم البحث الى أربعة فصول، ومقدّمة ورد فيها التعريف بالموضوع وعرض الاشكالية، ودوافع الاختيار والصعوبات، وعرض بعض المصادر والمراجع. وخاتمة تضمنت مجموعة من النتائج حول الموضوع وعرضت آفاق استكمال البحث من زاوية أخرى، إضافة إلى قائمةِ المصادرِ والمراجعِ، وملاحقَ مرتبطةٍ بالبحث.

الفصل الاول عنوانه: واقع القبيلة بين طبيعتها والمتغيرات السياسية. يتناول الفصل مفهوم القبيلة على العموم وبُينة القبيلة الجزائرية وخصائصها، والغوص في واقعها بين الاستقرار والترحال من الجنوب إلى الشمال والعكس صحيح. والعوامل المتحكّمة في هذه الحركة الدّؤوبة في خضم البحث، والتركيز على القبائل التي تحالفت مع الاسبان وتوزيعها الجغرافي، الذي يؤثّر في سلوك القبيلة، والإشارة إلى القبائل الأخرى المناوئة للاسبان.

وتناول هذا الفصل الأحداث التي جرت في أراضي الدولة الزيانية في النصف الأول من القرن السادسَ عشر، من خلال التركيز على الصراع العثماني الاسباني المغربي على ممتلكات الدولة الزيانية ونهايتها.

أما عنوان **الفصل الثاني**: احتلال وهران والمرسى الكبير 1505-1509م وزيادة نفوذ الاسبان. يعالج هذا الفصل احتلال وهران والمرسى الكبير، والبحث عن الأسباب الدينية والعسكرية والسياسية والاقتصادية التي عجّلت سقوط وهران والمرسى الكبير؛ رغم المقاومة التي أبداها والوهرانيون، وابراز ردود الفعل المحْتَشَمَة التي أبداها الزيانيون اتجاه احتلال المدينتين. وتتبّع مراحل توسّع الإسبان خارج وهران في إطار الاستراتيجية التي وضعوها في التّعامل وكسب وِّدِ أهم شيوخ القبائلِ المؤثّرةِ في المنطقةِ الغربيةِ من الجزائر لتسهيل الاحتلال، والاشارة الى الأطماع المغربية بالأراضي الجزائرية. والتي تخلّلها تحالفا معلنا بين المغاربة والاسبان على فترات، ومحاولة فهم الأسباب الكامنة في تحالف قبائلَ وهرانيةٍ مع الإسبان.

يبحث **الفصل الثالث**: الموسوم ب: "طبيعة التحالف والتعاون بين القبائل الوهرانية والإسبان وآفاق العلاقة. في أصل تسمية المغاطيس التي أُطلقت على القبائل المتعاونة والمتحالفة مع الإسبان، وتتبّع أهم مراحل الغارات الاسبانية من منذ بداية الخروج من وهران الى الانتهاء من الغارة وتقسيم الغنائم على الجنود. ومحاولة ابراز تقسيمات الجيش الاسباني بوهران لتبيان التنظيم الجيّد والقوة التي يتمتّع بها الاسبان والتي جعلتهم يَقْهُرونَ القبائل الوهرانية، وإعطاء وَصْفٍ عن حال مدينة وهران أثناء الاحتلال الاسباني؛ لتقريب صورة المدينة لفهم الأحداث والعلاقات التي جرت بالمدينة بين الإسبان والمتعاونين معهم، وهذا الوصف لا يتغاضى عن وجود اليهود بالمدينة. والدور الذي لعبوه في تقديم خدمات مهمّة للإسبان مقابل الامتيازات التجارية والسياسية والاقتصادية على حساب الجزائريين، قبل طردهم من المدينة سنة 1669م، وابراز دور الكنيسة الكاثوليكية ومحاكم التفتيش في تقديم صورة لعدم التعايش السلمي بين الأديان، والقهر الديني، الذي سلّطته الكنيسة الكاثوليكية في المدينة، من خلال تأسيس محاكم التفتيش؛ لمحاكمة كل من يثبت تخلّيه عن المسيحية حتى ولو كان اسبانيّا، ومحاولة فهم العلاقة الاقتصادية بين الاسبان والقبائل الوهرانية، من خلال نماذج دفع ضريبة الأمان والتجارة.

وأخيرا **الفصل الرابع**: الاحتلال الإسباني وتراجع دور التحالف: الانحسار والضعف (1708-1792م). يقوم هذا الفصل بطرح مسألة الاحتلال الجزئي الذي اعتمده الإسبان تحت أيّ ظرف والجدل الدائر حول جدواه في فشل الأوربيين على العموم والإسبان على الخصوص في البقاء مدة أطول في دول المغرب ومنها الجزائر. واكتفائهم بسياسة احتلال مدن وموانئ على طول الساحل، وعدم الاعتماد على الإحتلال الكلي، وهذا ما اعتمدته فرنسا لاحقا باحتلالها كامل التراب الجزائري؛ لكن هذا لم يشفع لها أن تبقى مدة أطول بالجزائر، في المقابل اكتمال السيطرة العثمانية على بَايْلَكْ اَلْغَرْبْ وقد أُعْتُمِدَ المصطلح في هذا الفصل بدلا من المنطقة الغربية لهذا الغرض، وشجّع السيطرة الشبه الكلية الادارة المحلية لإطلاق مشروع المقاومة وتحرير وهران والمرسى الكبير عام 1708م بقيادة الباي مصطفى بوشلاغم، لتوفّر الظروف الخارجية والداخلية لهذا التحرير؛ لكن هذا التحرير لم يَدُم أقل من ثلاث عقود حتى عاود الإسبان احتلال وهران والمرسى الكبير سنة 1732م، وفشل الباي في الاحتفاظ بهما. وابراز نتائج هذا الاسترداد على سكان المنطقة، بعد تعرّض المنطقة للجفاف والطاعون، وفي الأخير محاولة فهم العلاقة بين الدين والمقاومة التي نظّمها الباي محمد الكبير ضد الإسبان والتي أسفرت عن طردهم نهائيا عام 1792م، رغم بعض محاولات رجال الدين والطرق الصوفية مقاومة الاسبان في القرنين الماضيين.

وقد اتّبعنا المنهج التَّاريخي التّحليلي، المقرون بوصف الأحداث التاريخية وتحليلها ممّا يتلاءم مع طبيعة المنهج التاريخي وفق آليات محدّدة، وَعَرْضْ الروايات التاريخية المتقاربة والمتضاربة أحيان للوصول الى نتيجة بعيدا عن إصدار أحكام.

اعتمدنا في هذا البحث على مجموعة من **المصادر والمراجع** التي تتلاءم مع موضوع البحث، وللإشارة أردنا قدر الامكان الاعتماد على مراجع ومقالات متخصّصة تناولت الموضوع بالتفصيل، وابتعدنا قدر المكان عن المراجع والمصادر العامة التي تناولت الموضوع إجمالا و التي تُبعدنا عن الهدف المنشود، **ومن أهم هذه المصادر** التي اعتمدنا عليها نذكر ما يلي:

كتاب للجندي الاسباني دييغو سواريز منتانييس عنوانه: **(Historia del Maestre Ultima que fue de Montesa y de su Hermano Don Filipe de Borja)** كتاب يحكي سيرة ذاتية للجندي الاسباني سالف الذكر الذي أدى الخدمة العسكرية بوهران لمدة 20 سنة، ويحوي معلوماتٍ قيّمة عن الوضع في وهران والمنطقة في القرن السادس عشر، ويعطي تفاصيل حول الغارات الاسبانية على الدواوير والقبائل الوهرانية. من بداية تجهيزها

الى الانتهاء منها وتقسيم الغنائم، وقد ترجم المؤرخ وعالم الآثار الفرنسي أدريان بربريجر فصولا من هذا الكتاب في المجلة الإفريقية في الأعداد 9 و10 و11، إضافة إلى عدة مقالات نشرها بربريجر في المجلة نفسها عن الاحتلال الاسباني للمنطقة، ويُعدّ من المدافعين عن نظرية الاستعمار الأوربي.

كتاب آخر لصاحبه ليون فاي(Henri-Léon Fey)عنوانه: **(Histoire d'Oran, avant, pendant, et après la domination Espagnole)**، الذي نُشِرَ سنة 1885م. يتحدّثُ الكتاب عن تاريخ وهران قبل وبعد الاحتلال الاسباني وأثناءه، ويُعطي معلومات عن الإحتلال الإسباني لوهران والمرسى الكبير. وقد أفاد الموضوع عن فترة حكم الباي مصطفى بوشلاغم؛ لأنّ هذه الفترة تَقِّلُ فيها المعلومات الواردة من المدينة، إلاّ ما ذكره بعض الرّحالة الأوربيين منهم الدكتور شاو الذي زار المنطقة في كتاب **(Voyage dans la régence d'Alger)** لكن شاو أطنب في الوصف الجغرافي بدل من الوضع السياسي السائد في المدينة. وما كتبه باتمالجوغلو (Pestemaljoglou) في المجلة الافريقية في العدد 86 سنة 1942 كان قيّما حول التجارة في وهران في عهد الباي مصطفى بوشلاغم ودور القبائل الوهرانية في التبادل التجاري مع الفرنسيين في موانئ بايلك الغرب.

نشر دي لبريمودي كتابه بعنوان **(Documents Inédits sur l'Histoire de l'occupation Espagnols en Afrique (1506-1574))** يحوي مجموعة من الرسائل متبادلة بين حكّام وهران واسبانيا حول الوضع في وهران والمرسى الكبير، والقرارات المتّخذة في الفترة الممتدّة بين 1506 و1574م. وهذه الوثائق مستخرجة من عدة دور أرشيف منها أرشيف سيمانكاس Simancas. وكتاب الباحثة الفرنسية نيلي بلوم عن تفاصيل حملة الكاردينال خيمنيث ثيسنيروس ضد مدينة وهران، وقد أفادنا الكتاب في الفصل الذي يتحدث حول احتلال وهران والمرسى الكبير، والأرقام التي قدّمتها الباحثة حول عدد القتلى والجرحى، وعدد الجنود المشاركين في الحملة، وعدد السفن الحربية والتي تنقل المؤونة، وخطة الدخول إلى المدينة....، وسمّت عنوان الكتاب **(la Croisade de Ximenès en Afrique)** . وهناك مصدر آخر اعتمدنا عليه هو **(Dialogues sur la Guerre d'Oran)** كتبه دي موراليس، وهو كتاب لديه ميل أدبي أعتمد في كتابته على خلق شخصيات تتحاور فيما بينها حول الحرب في وهران وضواحيها في القرن السادس عشر. نشر جون كازناف (J. Cazenave) مقالات عديدة حول تاريخ وهران أثناء الإحتلال الاسباني، فقد كان أستاذا في ثانوية الجزائر وعضو في مطبعة (la Fouque) بوهران، ومختص في الأرشيف الاسباني، ما مكّنه من ترجمة كتب ووثائق عن الاسبانية إلى الفرنسية، وقد أفادت مقالاته كثيرا البحث، ونشر هذه المقالات في المجلة الإفريقية

(la Revue Africaine) والنشرية الجغرافية والأثرية لوهران (Bulletin de la Société de la Géographie et d'Archéologie de la Province d'Oran) وفي المجلة الأسبوعية (l'Afrique du Nord illustrée) وقد أفادت مقالاته في تقريب الصورة وتوضيحها في الفترة المدروسة للبحث.

أمّا المصادر العربية والمُعرّبة نذكر منها:

كتاب "**افريقيا**" لمرمول كربخال، ترجمة محمّد حجي وآخرين، والمعروف عن مرمول كربخال أنّه كان أسيرا في المغرب الأقصى في عهد السعديين، وكان عارفا بشؤون المغرب الأقصى والجزائر، وأفاد كتابه في وصف مناطق بايلك الغرب والأحداث السياسية التي عرفتها المنطقة في القرن السادس عشر، وكتاب "**وصف إفريقيا**" للحسن الوزّان، والمعروف بليون الافريقي(Léon l'Africain)، وألّف كتابه باللغة الايطالية بتكليف من بابا الفاتيكان واعتمدنا على الترجمة العربية للكتاب عن الفرنسية لمحمد حجّي ومحمد الأخضر، ويُعاب عن الترجمة أنّها لم تُترجم عن لغة الكتاب الأصل، وقد أفاد الكتاب في وصف أقاليم المنطقة الغربية التي كانت مجال تحرّك الاسبان والأحداث المتعلّقة بالبحث.

كتاب "**بهجة الناظر في أخبار الداخليين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر**" للشيخ عبد القادر المشرفي، والكتاب عبارة عن رسالة ردّ فيها الكاتب على الانشغالات التي رُفِعت له والمتمثلة في الرأي الشرعي حول القبائل المتعاونة مع الاسبان، والرسالةُ تعطي تفاصيلَ دقيقة عن هذه القبائل وفروعها ودواويرها ومناطق سكناهم، واستعمل الكاتب ألفاظا قاسية عنهم، ربّما نابعة عن الصراع بين الحضر والبدو أو الصراع تاريخي بين القبائل.

كتاب "**طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا حتى أواخر القرن التاسع عشر**"، وقد افاد البحث عن المعارك لتي جرت بين بعض القبائل الوهرانية والاسبان، وقدّمها بالأرقام.

كتاب" **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**" لأحمد بن سحنون الراشدي، وقد عاصر الكاتب الباي محمدا الكبير ولازمه، وأفاد المصدر في الفصل الأخير من البحث في موقف الباي من الاسبان والقبائل المتعاونة معهم، ووصف حال وهران أثناء الزلزال، والحصار الذي تعرّضت له المدينة، قِبَل طرف الباي محمد الكبير.

أمّا المراجع الأجنبية التي اعتمدنا عليها نذكر منها:

(Relation entre Oran et Tlemcen dans la Première Partie du XI Siècle) **لمؤلّفته شنتال دي لفيرون** اعتمدنا عليه في معرفة العلاقة بين تلمسان واسبان وهران المحتلة، والمعاهدات التي جرت بينهما، من خلال السفارات المتبادلة بينهم، وعلاقة الاسبان بشيوخ المنطقة.

مرجع آخر وهو **(la domination espagnole à Oran sous le gouvernemt du comte d'Alcaudète 1534-1558)** خصّص هذا المؤرخ بول روف الكتاب فقط للحديث عن فترة أقوى الحكّام الاسبان بوهران في القرن السادس عشر وهو الكونت دالكوديت وعلاقته بالقبائل الوهرانية وخاصة قبائل بني عامر التي ساندته في حروبه.

كتاب آخر يتحدث عن الغارات الاسبانية على الدواوير والقبائل وبدقة، من خلال كتاب دييغو سواريز منتانييس لمالكي نورالدين عنوانه: **(Razzia, butin et esclavage, dans l'Oranie du XVI Siècle).**

ومرجع آخر اشتركت فيه شنتال دي لفيرون مع روبير ريكار (Robert Ricard)، والكتاب جُمعت فيه وثائق غير منشورة، وقد نشرا مراسلات بين حكّام وهران وأمراء الدولة الزيانية، وحكّام وهران والسعديين من جهة أخرى. بيّنت هذه الوثائق موقفَ المغاربةْ من الاحتلالِ الاسبانيّْ لوهرانَ، وتعاون شيوخ القبائل مع الاسبان، اضافة الى مراجع أخرى لا تقلُّ أهيمة عن التي ذكرناها.

المراجع العربية: نذكر منها كتاب "**حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492–1792)**" وكتاب " **الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره**" لعبد القادر فكاير، وهو في الأصل أطروحة دكتوراه ، ويتناول فيه الباحث أثر الاحتلال الاسباني في السواحل الجزائرية وطبيعة التعاون بين الإسبان والقبائل الوهرانية. ونُشير إلى البحث اعتمد على مجموعة من المقالات أَثْرَتْ موضوع البحث باللغة العربية والأجنبية.

وفي الأخير وجدنا صعوبات عديدة أبرزُها: صعوبةُ الحصول على الوثائق الارشيفية، وللأسف لم نستطع الحصول على تأشيرة السفر للذهاب إلى دور الأرشيف وخاصة في اسبانيا.

الفصل الأول

واقع القبيلة بين طبيعتها والمتغيّرات السّياسيّة

نتناول في هذا الفصل أهمية القبيلة في تركيبة المجتمع الجزائري عشيةَ الإحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية، وطبيعتها. ومحاولة فهمِ تركيبة القبيلة الجزائرية من خلال نشأتها وتحالفاتها وتأثّرها وتأثيرها، وعلاقتها بالطبيعة الجغرافية، ومعرفة أهم القبائل الوهرانية التي تحالفت مع الإسبان والقبائل التي واجهتهم، ونحاول أن نفهمَ أسبابَ ضعفِ الدولةِ الزيانيةِ، وسقوطها وعلاقتها بالقبائل المجاورة لها.

1-القبيلة الجزائرية في القرن السادس عشر الميلادي:

اعتبر الكثير من المؤرخين أنّ القبيلة هي حجرُ الزاوية في تاريخ الجزائر أثناء الوجود العثماني بالجزائر، والذي تزامن مع الاحتلال الإسباني بوهرانَ وضواحيها. فالغالبية من الجزائريين كانوا يعيشون في الأرياف في هذه الفترة ما خلا بعض سكان الحواضر منها تلمسان؛ مدينة الجزائر ومعسكر وقسنطينة، وقد انقسمت القبيلة في الجزائر إلى بربرية وأخرى عربية؛ لكن هذا التّنوع للقبيلة لم يؤثر في بنية القبيلة.

أ-مفهوم القبيلة:

تشكّلت القبيلة من مجموعة أشخاص تربِطُهم رابطةُ القرابةِ بالدّم، يعيشون في رقعةٍ جغرافيةٍ تتّسع وتتقلّص حَسْبَ قوة القبيلة، وينقاد هؤلاء إلى زعيم يحكمهم يدعى " شيخَ القبيلة"، يكون غالبا الأكْبرُ سِنّا والأكثرُ حِكمة في معالجة المشكلات بين أفرادِها، تجمعُهم رابطةُ العصبية القبلية التي يشتركون فيها إلى الجدّ الواحد. وقد عرّف محمد عابد الجابري العصبية القبلية؛ حيث قال: "هي رابطة اجتماعية، سيكولوجية، شعورية ولا شعورية معا، تربط أفراد جماعة ما، قائمة على القرابة، ربطا مستمرا يبرز ويشتدُّ عندما يكون هناك خطرٌ يهدّد أولئك الأفراد: كأفراد أو كجماعة"[1]. وقد أشار الجابري أنّ ابن خلدون هو أول من أشار إلى أهمية العصبية القبلية في تأسيس الدول في المغرب الإسلامي؛ لكنّه ليس أول من ابتكر مصطلح العصبية، بل أشار أنّها كانت شائعة الاستعمال في اللغة العربية، خاصة في العهد الإسلامي الذي صرف معناها إلى الدلالة على التّنازع والفُرقة والاعتداد بالأنساب. وذلك مقابل الدين الذي يدعو إلى الوحدة والتآخي وتآلف القلوب[2].

[1]- محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، ط10، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، 2014، ص178.

[2]-المرجع نفسه، ص166.

قسّم ابنُ خلدون القبيلة إلى قسمين:

قبائل تعيش على الغِراسَة والفِلاَحَة، وهي إلى حدّ ما مستقرة. وقبائل تعيش على نِتَاجِ حيواناتها الأليفة؛ حيث قال:" فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنّحل والدّود لِنِتَاجِهَا. وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة إلى البداوة"[1].

إنّ القسم الأول الذي تحدّث عنه ابن خلدون والذي يَنْتَحِلُ الغِرَاسَة والفِلاَحَةَ استقرّت جُلّ قبائله في الغرب الجزائري، أو ما سُمي لاحقا ببايلك الغرب؛ حيث خصوبة الأرض وتوفر الكلأ والماء للماشية، ومساعدة العامل الجغرافي والمناخ للاستقرار، وأهم هذه القبائل قبائل بني عامر، وقبائل السويد العربيتين، وقبائل بني راشد البربرية. يقول بيير بويي (P. Boyer) :" استقرت قبائل بني عامر في منطقة جغرافية واسعة، امتدّت من جنوب سبخة وهران إلى جبال تسالة شمال مدينة سيدي بلعباس حاليا، وسهول ملاتة بعين تموشنت، في فترة الاحتلال الإسباني لوهران"[2]. وهذا كذلك ينطبق على القبائل البربرية الزناتية منها بنو راشد الذين استوطنوا جبل عمور الذي يُعرف بجبل بني راشد[3].

أمّا القسم الثاني الذي تحدّث عنه ابنُ خلدون فَهُمْ البَدْوُ الرُّحَل: فقد استوطنوا الفَيَافِيَ القاحلةَ من الصحراءِ، واكتفُوا بما هو ضروريٌّ منه وبسيط، حَسْبَ تعبيرِ ابنِ خلدون[4] .

هنا لا يمكننا أن نميّز القبائلَ حسَب انتمائها العِرقي أو الأثيني (بربرية وعربية)؛ بل حسَبَ نِحْلَةِ العيش، فقد كانت القبائل البربرية والعربية تتشابه في نِحْلَةِ العيش وهذا ما ذهب إليه ابنُ خلدون، وأشار علي عبد الواحد وافي الذي حقّق مقدمة ابن خلدون في تعليقه على كلمة " العرب" التي استخدمها ابن خلدون في كامل كتابه؛ حيث أكّدّ أنّها تعني الأعراب أو سكان البادية الذين يعيشون خارج المدن، ويشتغلون مهنة الرّعي وخاصة الإبلَ، ويتّخذون الخيامَ مساكن لهم، ويرتحلون من مكان إلى آخر[5] .

يُعدّ ابن خلدون ابرز المؤرخين الذين تناولوا القبيلة بطريقة علمية؛ لأنّه كان ينتقل بين القبائل ما جعله خبيرا في شؤون القبيلة المغاربية. واعتبر علي الوردي ابن خلدون أول من درس المجتمع البشري بطريقة واقعية، خرج عن

---

[1]– عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج2، ط7، تح: علي عبد الواحد وافي، دار النهضة، مصر، 2014م، ص467.

[2]- (P). Boyer, Historique des Beni Amer d'Oranie, des Origines au Senatus Consulte, R.O.M.M, N°24, 1977, p.40.

[3]– مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، ج3، ط1، دار الحضارة، الجزائر، 2007، ص36.

[4]– عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ص467.

[5]–المصدر نفسه، ص469.

الطريقة الوعظية التي كانت مسيطرة على الأذهان طيلةَ القرونِ القديمة الوسطى[1]. وقال عنه عبد الرحمن بدوي: "ابنُ خلدون كان صاحبَ منهجٍ تطبيقيٍّ، وليس صاحب نظرياتٍ عامة في الدولة والنُّظُم السياسية والنماذج العامة للمجتمع الإنساني. إنّ بحثَهُ موضعيٌّ طبولوجيٌّ وصفيٌّ"[2].

فِكْرُ ابنُ خلدون أقرب إلى فهم القبيلة الجزائرية؛ لأنّ ابنَ خلدون عاصر الدولةَ الزيانيةَ (1332-1407م)، فقد كلّفه السلطانُ الزياني أبو حمو السفارةَ إلى القبائل التي خرجت عن طاعة السلطان الزياني في أكثرَ من مرّة، وذلك لثنيّهم عن ذلك. يقول ابنُ خلدون: " كلّفني السفارةَ إليهم (الدواودة) في هذا الغرض فاستوحَشتُ منه، ونكرته على نفسي، لِما آثرته من التخلي والانقطاع، وأحببته إلى ذلك ظاهرا، وخرجتُ مسافرا من تلمسان حتى انتهيتُ إلى البطحاء، فعدِلتُ ذات اليمين إلى منداس ولحقتُ بأحياء أولاد عَريفْ قِبْلَةْ جبل كَزُولْ"[3]. ونزل في قلعة بني سلامة من بلاد بني توجين، القبيلة التي تمتد على طول مساحة سهل سَرْسُوْ غربا إلى جبال الونشريس شرقا، ومكث ابن خلدون في هذه المنطقة أربعة أعوام حسب قوله[4]. وقبل رحلته إلى تونس عرّج ابن خلدون على عرب رْياحْ بمَنداس، ثم سلك بادية الزاب إلى الدَوْسَنْ في بسكرة فنزل عندهم[5].

إنّ إقامة ابنِ خلدون عند بعض القبائل التّلْية في السهول والهضاب، وبادية الصحراء من المغرب الأوسط (الجزائر) أكسبه خبرةً عن عاداتِ هذه القبائل وطبائع وصِفاتها، وأنسابها، لم يكن فقط خبيرا بشؤون القبائل العربية والزناتية (قبائل الزناتة السواد الأعظم منها سكنوا المغرب الأوسط) وَحَسْبُ؛ بل كان عارفا بشؤون الحَضَر (سكان المدن). فهو عاش في الحواضر الكبرى في المغرب الإسلامي والأندلس (مدينة تونس، تلمسان، فاس، غرناطة، بجاية...).

---

[1]- علي الوردي، منطق ابن خلدون، ط2، دار كوفان، بيروت، 1994، ص11.

[2]- محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص110.

[3]- عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، تح: محمد بن تاويت الطنجي، بيروت، 2004م، ص187.

[4]-المصدر نفسه، ص187.

[5]-المصدر نفسه، ص188.

ب-بنية القبيلة:

يُعتبر التّضامن القَبَلِيْ بين أفراد القبيلة الواحدة أساسَ استمرار القبيلة ووحدتِها، فكلُّ أفراد القبيلة متساوون، ويُنقادون لشيخ القبيلة الذي يُجسّد التضامن القَبَلِيْ حَسَبَ تعبير عبد القادر جغلول[1]. فشيخُ القبيلة يُعدُّ أعلى سلطةٍ سياسيةٍ في القبيلة، فالكلُّ متساوٍ أمام سلطته ويَفضّ المشكلات بين أفراد القبيلة بالعدل، فهو القاضي الذي يتحاكمون أمامه، ووصف ابنُ خلدون هؤلاء المشايخ بقوله: " يَزَعُ بعضُهُم عن بعضٍ مشايِخِهِم وكبرائهم بما وقر في نفوسهم الكافّة لهم من الوِقار والتّجِلّة"[2].

يتميز البدوُ ببنية مرفولوجية (جسدية) قوية ومُكْتَمَلَة؛ ذلك لإعتمادهم على الضروري من العيش، بعيدا عن الترف والبذخ وملذاتِ الحياةِ، يقول ابن خلدون عنهم: "تجدهم أحسن حالا في جسومهم وأخلاقهم من أهل التُلول المنغمسين في العيش، فألوانهم أصفى، وأبدانهم أنقى وأشكالهم أتمّ وأحسنُ"[3]. فهنا البيئة الجغرافية تُؤثر في سلوك البشر، وألوانهم وأجسامهم وميولهم ونشاطهم العام[4] فتجدُهم أكثر قوةً وأشدَّ بأساً وأكثر اعتمادا على أنفسهم حسب ما ذكره الجابري[5]. عكس الحَضَر (سكان المدن) الذين ركنوا إلى الدِّعة والترّف والفاحشة، وأبدانهم أصابها الوهن، وهذا ما بيّنه ابن خلدون على أنّ الحَضَري لا يقدر على مباشرة حاجاته، إما عجزا لما حصل له من الدّعة، أو ترفّعَا لما حصل له من المربي في النعيم والترف[6].

إنّ هذا التضامنَ الذي حصل بين أفراد القبيلة الواحدة يدعى "بالتضامن الآلي" سواء أكانت هذه القبائلُ تنتجع القَفْرُ مثل الأنجاد المخيّمة جنوب مدينة تلمسان، أم قبائل نصف مستقرة (زراعية) مثل قبائل بني عامر، والتي مضاربها في التّل الوهراني.

تُعدّ قبائل بني عامر من أكبر القبائل الهلالية في الغرب الجزائري (بايلك الغرب)، تفرعت منها عدّة بطون، وشكّلت قبل سقوط الدولة الزيانية سنة 1553م مخزن الدولة التي يُعتمد عليها في تجنيد أفرادها في الحروب التي تعلنها الدولة الزيانية أو الدفاع عن أسوارها وأمصارها، فهي قبائل حربية. كانت الحرب عند لهؤلاء مَوْرِدا أساسياً

---

[1]-(A). Djaghloul, D'El DJazair à El DJAZAIR…en passant par l'Algérie, Dar el Gharb, Oran, p.31.

[2]- عبد الرحمن ابن خلدون، رحلة ابن خلدون...، مصدر سابق، ص480.

[3]- عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة...، مصدر السابق، ج1، ص399.

[4]- عبد الواحد وافي، عبقريات ابن خلدون، ط2، مكتبات عكاظ، العربية السعودية، 1984، ص256.

[5]- محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص158.

[6]-المرجع نفسه، ص158.

لهم، يقول الجابري: "لقد كانتِ الحربُ إذن مصدرا مهما وأساسيا للثروة، ولهذا كانت القبائلُ تتجنّد كلّها عند أقلِ طلب"[1].

خضع فتيانُ القبيلة للأَنَا الجَمْعِيْ، فهم لا يتصرفون بمحض حريتهم الفردية حين تتعرض القبيلة للعدوان أو لخطر داهمٍ يهدّد وجودَها، أو تكون في حالة حرب؛ بل إنّ الأَنَا الفَرْدِيّ يذوب في الجماعة، فيَهِبُ حرّيته للجماعة. والحرب حالة طبيعية بين القبائل المتناحرة والمتخاصمة بغض النظر عن الوازع الديني أو الانتماءِ الاثني سواء أكانت القبيلة بربرية أم عربية ، ما يهمُّها مجالُها الحيويُّ أيّ الكلأ والماء للماشية، وأراضيها الزراعية. إذن هي مسألةُ حياة أو موت بالنسبة إلى القبيلة، يقول عبد الغني مغربي: " إنّ الحربَ عند البدو تعتبر القانون الطبيعي للصحراء فهي تحمي وجوده وممتلكاته كما تحافظ على تماسك الجماعة حين تنشأ منازعة حول الملكية أو حين تكون هناك خلافات خطيرة"[2].

هذا التضامن والتلاحم بين أفراد الجماعة القَبَلِيَة يُذْكِيه وجود وسيطرة أفراد طاعنين في السّن يُوحُون على الدوام بالوِقار، ولا يُوحُون بالخوف أبدا[3]. في المقابل نجد سكان المدن (الحَضَر) يعيشون عيشة مختلفة عن سكان البادية والريف، فهم مُستقرون يَمْتَهِنُون الحِرَفْ بإختلافها ويمارسون التجارة، وتحميهم أسوار المدينة وجنود الملك أو الأمير، ويدفعون مقابل الحماية ضريبة للملك. فمدينة الجزائر في القرن السادس عشر الميلادي تشكّلت فيها طبقة الحَضَرْ أساسا من مهاجري الأندلس، وهم برجوازية الملاكين والتُجّار[4]. هذا وقدّمت الباحثة عائشة غطاس بحثا وافيا حول حضر مدينة الجزائر، وبيّنت في هذا البحث التركيبة الاجتماعية المتباينة، وأنّ المدينة سيّرتها مجموعة من العائلات البارزة منها عائلة سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وسالم التومي، وعائلة سيدي محمد الشريف[5].

يُدْعَى هذا التضامن بين سكان المدينة "بالتضامن العضوي"؛ ذلك أنّ أيّ عدوان خارجي على المدينة يَهِبُون هِبَةَ رجل واحد لصدّ العدوان عن مدينتهم والى جانب الأرستقراطية العسكرية كما وصفها عبد الغني مغربي توجد أرستقراطية ثقافية (الفقهاء)، وبرجوازية تجارية وأخرى حرفية[6]. يتجلى هذا واضحا في دفاع أهالي مدينة وهران

[1]-محمد عابد الجابري، المرجع نفسه، ص27.

[2]- عبد الغني مغربي، الفكر السسيولوجي عند ابن خلدون، تعريب: محمد الشريف بن دالي، دار القصبة، اللجزائر، 2006، ص151.

[3]-المرجع نفسه، ص149.

[4]- عائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر(1700-1830م)، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2000-2001، ص5.

[5]-المرجع نفسه، ص5.

[6]- عبد الغني مغربي، المرجع السابق، ص187.

عن مدينتهم، وقد تضافرت الجهودُ في صدِّ العدوان الإسباني عن المدينة في سنة 1509م، وقد كانت وهرانُ مدينةً عامرة في حدود عشرين ألف نسمةٍ، تربُطها روابطُ سياسيةٌ مع مدينة تلمسان عاصمة الدولة الزيانية[1].

يقول المِثَلُ العربيُّ الشّهيُر: "أَنَا وأَخِيْ عَلَى ابْنِ عَمِّيْ، أَنَا وابْنُ عَمِّيْ عَلَى الغَرِيْبِ". ينطبق محتوى هذا المثل على قانون العصبية القبلية؛ لأنّ أيّ اعتداء على فرد من القبيلة فهو اعتداء على القبيلة بأكملها، يقول الجابري في هذا الصّدد: "القبيلة هي دائما في خلاف قديم أو جديد مع قبيلة أخرى، فكان الاعتداء على أيّ فرد له قبيلة ينتمي إليها بالنسب أو بالحلف أو بالجوار يُهدّد بإشعال نار حرب أهلية شاملة"[2]، ويضيف الجابري أنّ مفعول القبيلة يمارس تأثيره داخل القبيلة الواحد، بل بين الأخوين الشقيقين[3]. هذا ما يسميه علماء الاجتماع " الانشطار والانصهار". يكون الانصهار واللُّحْمَة عندما يشعر أفراد القبيلة أنّهم في خطر يهدّد وجودهم ومصالحهم، ويذوب الأَنَا الفَرْدِي في الأَنَا الجَمْعِيْ، ويصبح يدا واحدة تبطش عدوّها سواء أكان هذا العدو قبيلةً منافسةً ومعتدية أم كانت دولة تهدّد وجودها.

أما الانشطارُ فيقع حين يكون أفراد القبيلة يَنْعَمُونَ بالأمن ويكون العامل الاقتصادي متوفرا؛ فينتج عن ذلك أحيانا الصراعُ بين أفرادِ القبيلةِ الواحدةِ ويصل هذا الصراع حتى بين الشقيقين، وهذا ما يؤكده المثل العربّي السابق.

2-القبيلة الجزائرية بين الاستقرار والتّرحال:

عرفت القبيلة طيلة الوجودِ العثماني بالجزائر صنفان من القبائل: إحداهما تعتمد على التّرحال، تعيش في تخوم الصحراء، قريبةً من الأطلس التّلي والصحراوي، أمّا الصّنف الآخر إمّا شبه مستقرة أو نصف مستقرةٍ تعيش في الأطلس التّلي (في سهول الغرب الجزائري وهضابه).

تعيش في جنوب تلمسان قبائل قوية بدوية تعتمد على التّرحال في حياتها منها قبيلة أولاد سيدي الشيخ، وقد وصفها أوجين دوما Daumas.(E) بقبائل المرابطين والأجواد[4]. وتنقسم هذه القبائل إلى أولاد سيدي الشيخ الغرابة والشراقة وحسب دوما فإنّ الشراقة يُخيّمون في منطقة واد زَرْقُون وفي الشمال قبائل سْتَيْتَن وفي الشرق

[1]- (R). Lespes, Oran Ville et Port avant l’occupation Française (1831), R.A, N° 75, 1934, p.p.277.279.

[2]- محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي وتجلياته، ط4، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت،2000، ص82.

[3]-المرجع نفسه، ص86

[4]- Daumas. (E), Mœurs et Coutumes de l’Algérie, Ed. E N E P. p.211.

بوعلام وفْقِيقْ في الغرب[1]. وتتحكّم هذه القبائل في طرق القوافل التجارية الرابطة بين تلمسان ووهران وصولا إلى السودان الغربي ويَعتبرُ عبد القادر جغلول أنّ المورد الأساسي لهذه القبائل هو الغنائم الناتجة عن الغزو والحرب[2]. هذا المورد (الغنائم) ليس أسلوب الإنتاج الوحيد الذي تعتمد عليه القبائل؛ بل تعتمد على تنظيم القوافل والمبادلات التجارية مع جيرانها في بلاد ميزاب ومتليلي، وفقيق وتيميمون في بلاد قُورارة، وكانوا يبيعون الأجبان بكل أنواعها، والقمح والشعير، والماشية والصوف، والزّرابي التي تسمى فْراشْ، والحِبال المصنوعة من النخيل والقبعات المصنوعة من النخيل والمزيّنة بريش النَّعَامِ[3] .

تشتري هذه القبائل التي ذكرناها من واد ميزاب البنادقيات والكابوس والبَرَانِس وحَايَكُ الرجال والنّساء والأقمصة المصنوعة من الصوف، والأحذية المطرّزة وأدوات زينة النساء وكذلك التّوابل، ويَحمِلون من تيميمون العبيد السود، والتّمور والأقمشة الصوفية، والتّبغ، والجلود المدبوغة التي تسمى الجلود الفيلالية[4]. إضافة إلى هذه القبائل توجد قبائل نصف مستقرة ذات خصائص مشابهة وهي قبائل أولاد نْهار، هذه قبائل يُصعب انقيادها وإخضاعها وتمتلك قوة عسكرية دوّخت الدولة الزيانية، تقع في الشمال الغربي من الكتلة الجنوبية التي تُغطي إقليم تلمسان[5].

أمّا القبائل التي تعتمد الاستقرار أو شبة نِحْلَة عيشها، فنجدها في الأطلس التّلي والسهول القريبة من البحر، تمارس الفلاحة وتربية الماشية (المعز، البقر، الظأن)، وقد ذكر عبد القادر المشرفي صنفاً من هؤلاء، وهم بطن من زناتة يقال لهم "كْرِشْتَلْ" يمارسون التجارة والفلاحة، يستقرون في أرض متوعرة بسيف البحر[6] . ومن القبائل العربية التي استوطنت سهل سِيْرَاتْ إلى حدود البطحاء[7] قبيلة مْجَاهر، وتذكر احدى الدراسات أنّ لها وزنا بشريا وثقلا اقتصادياً[8] ، لقربها من مدينة مستغانم ومازونة ومعسكر وغِنى أراضيها وخصوبتها .

---

[1] -Daumas. (E), Op.Cit, p.211.
[2]-(A). Djaghloul, Op. Cit, p.41.
[3] -Daumas .(E), Op. Cit, p.211.
[4]-Ibid, p.212.
[5] -(A).Noel, Document Historique sur les Tribus de l'Annexe d'El-Aricha, B.S.G.A.O, N°38, 1881, p.225.
[6]– عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر في أخبار الداخليين تحت ولاية الاسبانيين من الأعراب كبني عامر، تح: محمد بن عبد الكريم، ط1، دار الوعي، الجزائر، 2017م، ص13.
[7]– البطحاء: كانت تقع في الطريق الرابط بين مدينتي الجزائر ومعسكر، بالقرب من مدينة مازونة وقلعة هوارة، ذكرها الحسن الوزان بأنّها كانت مدينة متحضّرة وآهلة بالسكان، وأنّها بُنيت في سهل فسيح ينبت فيه القمح بكثرة، وقد خُرّبت المدينة، ولم يبق من المدينة إلاّ الاطلال بعد خرابها وحرقها.
[8]-سلطانة عابد، **التراتبية الاجتماعية ببايلك الغرب وأثرها على مقاومة الامير عبد القادر (1830-1847م)**، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران (2010-ض2011م)، ص17.

لا يختلِفُ نمطُ عيشِ هؤلاء المستقرين أو شبه المستقرّين بالبدوِ الرّحلِ في تخوم الصحراء، فكلاهما يعتمدُ الخَيْمَةَ مسكنا أو مستقرا لهما؛ تؤويها من قَرِّ الشتاء وحَرِّ الصيف، ويعطيها حمدان خوجة وصفاً في قوله:" مصنوعة من الوبر؛ وهو قماش مضلّع بالأحمر أو بالألوان الأخرى. وتأخذ هذه الخيّام شكلها المكوّر أو المثبّت بواسطة أوتاد من الخشب، وتُقاس ثروة المالك باتساع هذه الخيّام وبعدد الأوتاد التي تشدّها"[1]وذكر حمدان خوجة أنّ سكانَ السهولِ القريبة من ساحل البحر والتل الأطلسي والصحراءهم من القبائل العربية، يقول متحدّثا عن سكان السهول: " ينقسم سكان الأراضي المنخفضة أو السهول إلى قسمين: أهل الصحراء الرملية وأهل التّلِ ساكني الجبال الصغيرة القليلة الارتفاع والجميع من أصلٍ عربيٍّ يتكلمون العربية"[2]. وهذا ما أكّده الباحثُ الفرنسيُّ فيلو (Villot) هو أنّ سكان المنخفضات غالبا ما يكونوا من القبائل العربية، ويميّز صنفين من القبائل: قبائل تعتمد على الفلاحة (مستقرة أو شبه مستقرة)، تُخيّم في الهضاب العليا وقرب الأودية الكبيرة التي تصُبُّ في البحر، وقبائل (رحالة) متنقلة بين الجنوب والشمال في مَوسَمي الصيف والشتاء[3].

إنّ العامل الجغرافيّ مهمٌّ جدا في تحديد نِحْلة عيش الإنسان، وهذا ما يؤكده ابن خلدون هو أنّ العربَ لا يتغلّبون إلاّ على البسائط، ذلك أنّهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهلُ انتهابٍ وعيثٍ ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة[4]. أمّا البربر فهم يسكنون في الجبال، ربما لأسباب تاريخية؛ ذلك منذ الاحتلال الروماني لبلاد المغرب، وتليها مرحلة الفتح الإسلامي، فلجأ البربر إلى الجبال لطبيعتها المحصّنة طبيعيا من أي غزو أجنبي، ولا يختلف نوع الغذاء البربر والعرب اختلافا جوهريا؛ فالبربر سكان الجبال حسب حمدان خوجة غذاؤهم دقيق الشعير وزيت الزيتون والتين المجفّف والبلوط؛ إلاّ أنّ الأغنياء منهم يملكون عنزة أو عنزتين أو ثلاثا، ويشربون الحليب[5].

ينزل البربر في قُرى صغيرة مبنية بالأخشاب والقصب، يربط بعضه ببعض، ثم يحصن الكل بخليط من الطين وخثي البقر لمنع المياه من التسرّب إلى الداخل وعلى السّطح يوُضع نوع من العشب يدعى الدَيْسْ[6]. القِلّة منهم تجدهم يسكنون الخيام؛ لأنّهم مستقرون في الجبال، لتوفر الأخشاب والحجارة للبناء، وربما تيقّنوا بأنّهم في مأمن من غارات أعدائهم وعدم استطاعة وصول السلطة المركزية (الأتراك، الإسبان) إليهم، وهذا عكس العرب.

---

[1]– حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم: العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2009م، ص34،33.

[2]–المصدرنفسه، ص31.

[3] -(A). Bernard et (N). de la croix, les divers catégories Nomades, B.S.G.A.O, T.26, 1906, p.27

[4]– عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ... مصدر السابق، ص507.

[5]– حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص24.

[6]–المصدر نفسه، ص27.

وصف حمدان خوجة[1] طبائع البدو العرب فقال: " تُحاط الخيمة بحجارة تُوضع عليها الأواني والذخائر اليومية، ويُخصّص منها للطبخ، وفيه توجد الطناجر والدور وهي من الطين؛ لكن الصُّحون والملاعق خشبية"[2].

إنّ اعتمادَ سكانِ الجزائرِ على الخيمة ليس لطبيعتهم التي تعتمد على التّرحال فَحَسْبُ بل إضافةً إلى العامل الأمني، فهذه القبائل تعيش في خوف دائم من غارات القبائل المجاورة لها التي تعتمد السّلبُ والنّهب أسلوب إنتاج، ونمط معيشتها، وعلى هجمات السلطة التركية العثمانية والإسبان؛ الذين يُحصّلون الضرائب منها. شعورها بالخطر الداهم يُجبِرُها أن تحزم أمتعتها وتغادر المكان الذي تشعر فيه بالخطر، ولسهولة حمولتها على ظهور الإبل والخيل والأحمرة والبغال، إضافة إلى العامل الايكولوجي؛ فهي كما أسلفنا الذّكر تقي حّر الصيف وقرّ الشتاء، وهذا لطبيعتها المصنوعة من الصوف ووبر الإبل .

تعتمدُ القبيلةُ الجزائريةُ على الحيوانات الأليفة في حياتِها اليوميّةِ، والقبائلُ العربيةُ تعتمدُ على الخيلِ في حروبِها وغزواتِها وأعراسِها وزينتِها، إلى درجة العشق الذي يتملّكُهم اتجاه هذا الحيوان الأليف؛ لأنّه صديقٌ وفيٌّ، يقول حمدان خوجة: " هؤلاء يُحبّون الخيلَ حبّا جنونيا، ولا يفكّرون إلاّ في مضاعفة أعدادها ويحفظونها بعناية، وتُستعمل السلالات الوضيعة للحصول على البغال، وهناك سلالات تُخصّص للحرث؛ لكنّ أحسنها الجّياد ، تُخصّص للسباق والحرب"[3]. ويعطينا ألكسندر دوما وصفا رائعا لهذه العلاقة المتميّزة بين هؤلاء القبليون وجيادهم، يقول: "إنّ الجوادَ ضروري في حياتهم اليومية، معه تكون التّجارة والرّحلة، وهو خادمٌ وفيٌّ لأفرادِها، تجدُ صورته تلمع في الحرب، والأعراس والحفلات الدينية التي تُقامُ لمرابطيها وأشرافها "[4].

إنّها علاقةٌ غيرُ عاديةٍ بين الأعراب وخيولهم، ضروريٌّ في حياتِهم إلى درجة أنّهم لا يستطيعون مواصلة حياتهم بدونها، وقد وصف ألكسندر دوما هذا العشق بأنّه يسري في دماء هؤلاء (يعني العرب)،ويُخصّصون أغاني لأجلها. لقد أورد بعض هذه الأغاني التي يُغنيها عرب الصحراء ونقلها إلى الفرنسية وسنذكر بعض هذه الأغاني الشعبية:

[1]– نأخذ رواية حمدان خوجة على محمل الجدّ والأقرب إلى حقيقة الوقائع؛ لأنّه زار كثير من المناطق في غرب ووسط وشرق الجزائر، وكان مقربا للأتراك العثمانيين وأحد أعيان مدينة الجزائر عشية الاحتلال الفرنسي للمدينة سنة 1830، كان يملك مئات الهكتارات من الأراضي الزراعية، وآلاف من رؤوس الماشية وهذا حسب ما أورده في كتابه آنف الذكر.

[2]–حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص34.

[3]– المصدر نفسه، ص34.

[4]-(A). Daumas, Op.Cit, p.181.

يَاْ عَوْدِيْ سِيْدْ لَعْوَاْدْ

زْرَقْ كِيْ لْحْمَاْمَةْ لِيْ تَحْتْ اَلْظَّلْ

يْطِيْقْ يَعْطَشْ وَيْطِيْقْ يْجُوْعْ

مَتْوَاضَعْ وْحَشَّاْمْ كِيْ بَنْتْ اَلْقَبْلَةْ

يْعُوْمْ فِيْ اَلْوَاْدْ قُدَّامْ عَيْنِيْنْ أُمَّهْ

يَاْ رَبْ حَفْظَهْ مِنْ عيَنِيْنْ اُلْحُسَّادْ

وْكَاْنْ عَمِّيْ يَطْلُبْ اَلْمَبْرُوْكْ لَلْعَرْسْ نْقُوْلَهْ لَا[1].

3–القبائل المتحالفة مع الأسبان وتوزيعها الجغرافي:

لا يمكننا أن نجزم أن هناك قبائل بقيت وفية للإسبان طيلة احتلالهم لوهران (1505م–1792م)، ولا نستطيع أن نحدّد قبائل بعينها كانت عدوة لهم ومتحالفة مع الأتراك، إلاّ تلك القبائل التي كانت بعيدة عن تحرك الإسبان وهجماتهم. تضاربت المصلحة القبلية مع هذا الحلف بعيدا عن رابطة الدّم المقدّسة التي تربط القبائل بعضها ببعض، إنّها المصلحة وهي مسألة بقاء أو موت بعيدا عن رابطة الدين التي تلتقي مع الأتراك والقبائل الأخرى. في هذا البحث لا نستطيع الالتزام بالتسلسل الزمني للأحداث؛ لأنّ بعض القبائل دخلت في الحلف مع الإسبان وحين تجد الفرصة السانحة تنقلب ضدهم لأسباب موضوعية، وقد يُصعب تحديد مضاربها ومناطقها الجغرافية التي تُخيّم فيها؛ لأنّ كثير من هذه القبائل الوهرانية بدوية يُغلب عليها التّرحال[2].

[1]-(A). Daumas, Op.Cit, p.p.186.187.

[2]-(J). Cazenave, Contribution à l'Histoire du vieil Oran, R.A, N°66, 1925, p.355.

أ–قبائل بني عامر:

من القبائل التي تحالفت مع الإسبان أثناء احتلالهم للمنطقة الغربية، وقد أحصى عبد القادر المشرفي ثلاثة بطون لبني عامر؛ تتكون من تسعة وسبعين قبيلة في الجزائر أغلبها قبائل وهرانية[1]. عاصر عبد القادر المشرفي هذه القبائل المتحالفة مع الإسبان؛ وحسب بودان (Bodin) أنّ المشرفي كتب كتيّبه سنة 1764م[2]؛ أيّ قبل الخروج النهائي للإسبان بثمانٍ وعشرين سنة.

تُعدّ قبائل بني عامر من القبائل التي استوطنت المغرب الأوسط؛ وهم من بني هلال، وحسب ابن خلدون أنّ الذي أتى بهم إلى هذه الناحية (غرب الجزائر) الملك الزياني يغمراسن المؤسس الأول للدولة الزيانية؛ حيث قال: "فلمّا ملك يغمراسن بن زيان تلمسان وضواحيها، دخلت زناتة إلى التّلول والأرياف. كثُر عيثُ المِعقل وفسادهم في وطنها فجاء يغمراسن بني عامر من محلاتهم بصحراء بني يزيد، وأنزلهم في جواره في صحراء تلمسان كيدا للمعقل"[3].

لقد وصف عبد القادر المشرفي القبائل المتحالفة مع الإسبان بنعوتٍ قاسيةٍ نوعا ما وخاصة قبائل بني عامرٍ، ونلاحظ ذلك من خلال عنوان كُتيّبه " من الأعراب كبني عامر"، ووصفهم باللصوص واتّهمهم بالرّدة عن الإسلام؛ حيث أطلق عليهم اسم " العرب المتنصّرة" والمتعلقة بالنصارى بلا شك ولا ارتياب[4]. ولا شك أنّه نابع عن الصراع بين الحضر والبدو؛ لأنّ المشرفي من سكان مدينة معسكر وأنّ هذه القبائل شاركت في الهجمات التي نظّمها الإسبان على المدينة وأحوازها. وأهم بطون بني عامر الذين تحالفوا مع الإسبان هم:

---

[1]– عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص15.

[2]–(M). Bodin, Notice Historique sur les arabes soumis aux Espagnols pendant leur occupation d'Oran, R.A, N°66, 1924, p.196.

[3]– عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، سهيل زكار، ج6، دار الفكر، لبنان، 2000، ص56.

[4]– عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص13.

أ-1-شافع:

هي واحدة من البطون الثلاثة التي تكلّم عنها المشرفي، وتنقسم شافعٌ بدورها إلى أربعِ قبائلَ هي الشقارة، وأولاد مَطْرف، وأولاد صالح، وأولاد بالغ، كلّهم ينتسبون إلى شافع بن عامر بن زغبة الهلالي[1]. وحسب ما جاء في تقرير الحاكم الاسباني بوهران (1738-1742م) أنّ شافع كانوا يُخيّمون غرب المرسى الكبير على بعد فرسخين (2 lieue) نحو 8 كلم في منطقة فلاحية تنتج القمح والشعير[2]، وتعدُّ هذه المنطقة خزان المياه العذبة التي تزوِّد وهران بالمياه الصالحة للشرب، إضافة إلى إنتاجها الوفير من القمح والشعير، وتنتج هذه المنطقة التي تخيّم فيها شافع الزيتون والأشجار المثمرة الأخرى[3]، وفي تعليقه على تقرير جوزيف باييخو (Vallejo) يؤكّد (ج). كازنوف أنّ شافع بدوية رعوية تنتقل بين الصحراء والشمال، ففي الشتاء ترتحل إلى الصحراء وتعود إلى مناطقها القريبة من وهران في الربيع[4]. وحسب ما جاء في تقرير أرمبورو أنّ شافع من رعايا الإسبان[5]، هذا ما أكّده عبد القادر المشرفي في رسالته على أنّهم رعايا لا جند، ومساكنهم بعين البيضاء في سهل ملاتة حتى جبال سيدي سعيد التلمساني[6].

كانت شافع من القبائل الأولى التي خضعت للإسبان وتحالفت معهم إضافة إلى حميان وقيزة وأولاد علي[7]. إنّ قرب مضاربهم من مدينة وهران حتّم عليهم أن يكونوا في حلف مع الإسبان وأصدقاء لهم، وليس في مصلحتهم أن يدخلوا في حروب مع الأسبان؛ لأنّ القوة العسكرية للإسبان تفوق إمكانيات شافع الحربية كثيراً. إذ؛ الارتحال من مناطقه التقليدية بعيدا عن الإسبان خيار صعب كذلك؛ لأنّ القبائل لن ترض بالتعدي على أراضيها من قبيلة أخرى. عدّهم جوزيف بايخو من القبائل الفرسان، وذكر أنّ شيخهم يدعى أحمد بن خليفة[8]. هذا التقرير أعده بايخو بعد سنة 1734م.

---

[1]-عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص15.

[2]-(M). El korso et (M). de Epalza, Oran, et l'Ouest Algérien d'après le rapport Aramburu, Bibliothèque National, 1978, p.40

[3]- Ibid, p.40.

[4]-(J). Cazenave,Op. Cit, p.335.

[5]-(M). El korso et (M). de Epalza, Op. Cit, p.42.

[6]- عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص26.

[7]- (A). Gorguos, Histoire d'un Bey de Mascara et de l'Oranie, Adolph Jourdan, Alger, 1860, p.52.

[8]-(J). Cazenave, Op. Cit, p.356.

أ- 2-أولاد علي:

استقر أولاد علي جنوب وهران قرب جبل نُسب إليهم "جبل أولاد علي"، ولموقعه الجغرافي المهمّ مكّنهم من أن يكونوا في مأمن من هجمات أعدائهم. لقد قدّم الباحث الفرنسي روبيير تانتوان (R. Tinthoin) بحثا حول الغطاء النباتي في غرب الجزائر نُشر في المجلة الإفريقية سنة 1936م، وذكر أنّ هذا الجبلَ يقعُ في منطقة ليست برطبة أو جافة (معتدلة) و يتميّز بتنوع غطائه النباتي من أشجار البلوط الأخضر، وأشجار الصنوبر، والأحراش الكثيفة[1]. ويُخيم أولاد علي قرب مجارٍ مائية مهمّة وهي وادي سيق، ووادي الحمام، وواد تليلات، وواد المقرة ويحاذي سهلي هبرة ووادي تليلات[2].

إنّ تنوع الغطاء النباتي في هذه المنطقة كان عاملا مهما في استقرار أولاد علي لتوافر المياه والمراعي لمواشيهم والأراضي الخصبة الصالحة لزراعة القمح والشعير وبعض الخضروات. جاء في تقرير باييخو أنّ أولاد علي هم قبائل الفرسان وأنّ شيخهم يدعى بن داموس[3]، واستقروا شرق تسالة وطُرِدُوا إلى مناطقهم الحالية طردهم أولاد عبد الله وبني عامر[4]. ينتسبون إلى جدّهم علي الصغير بن عمر بن براهيم بن يعقوب بن معروف[5].

ينقسم أولاد علي حسب ما جاء في تقرير أرمبورو إلى أربع قبائل[6] هي:

-أولاد علي الفواقة (مضاربهم شمالا): استقروا في سيدي حمدوش وعين الفَرْدْ (عين البرد حاليا)؛

-أولاد علي تحاتة (مضاربهم جنوبا): زهانة حاليا؛

-أولاد علي الغْوا لم: يستقرون في طفراوي جنوب غرب مدينة وهران وتامزوغة (اقليم عين تموشنت)؛

-أولاد علي المهاجَة: مضاربهم قرب منطقة القَعْدَةْ، وشيخمهم بن داموس (تقرير باييخو) يُعرفون بأولاد علي الشُرْفَة.

[1]-(R). Tinthoin, le Tapis Végétal du tell Oranie sa modification par l'Homme, R.A, N°79, 1936, p.234.
[2]- Ibid, p.237.
[3]-(J). Cazenave, Op. Cit, p.355.
[4]-(M). El korso et (M). de Epalza, Op. Cit, p.87.
[5]- عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص21.
[6]-(M). El korso et (M). de Epalza, Op. Cit, p.86.

عُدّت قبائل أولاد علي من أكبر قبائل بني عامر، فاق عدد فرسانها من الأعيان مائتي فارس، فضلا عن مُشاتِها حسب ما ذكر عبد القادر المشرفي[1].

أ-3-أولاد عبد الله:

اعترف عبد القادر المشرفي بقوتهم وبسالتهم، وذكر أنّ بطناً من بطونهم كانوا مجنّدين إلى جانب الجيش الأسباني في الحملات التي يقوم بها ضد القبائل المناوئه له والحروب ضد الأتراك؛ وهم الونازرة نسبة إلى وَنْزار بن عبد الله بن عامر الزغبي [2]. ويُضيف المشرفي أنّهم فرقة ذات بأس شديد، فيهم ستة دواوير، ويُخيّمون بواد سنان بضواحي عين تموشنت. قبيلة أخرى بطن من بطون أولاد عبد الله هي قبيلة أولاد موسى بن عبد الله ، مساكنهم قرب الجبال المحيطة بمدينة وهران من الغرب حتى أرض تامزوغة إلى البحيرة المالحة جنوب وهران[3]. أراضي أولاد موسى تنتج الشعير أكثر من القمح، جاء في تقرير أرمبورو أنّ القمح يُقدّر ب خمسة عشر كيلا في مقابل ثلاثين كيلا من الشّعير[4]؛ أيّ ضِعْفْ إنتاجها للشعير من القمح؛ لطبيعة التربة التي تحتوي على نسبة عالية من الملوحة أمّا تقرير جوزيف بابيخو فقد ذكر أنّ أولاد موسى بن عبد الله من القبائل الفُرسان الذين كانوا أوفياء في حلفهم مع الأسبان، وشيخهم يدعى بن يوسف[5]. وذكرت شانتال دي لفيرون (CH.de la veronne) أنّ أولادموسى كانوا حلفاء للإسبان منذ سنة 1543[6].

شكّلت بطون أولاد عبد الله قوة ضاربة؛ إذ منحهم الإسبان امتيازات، وخيّموا قرب أسوار مدينة وهران، ولعبوا دور المخزن المساند للإسبان المشابه إلى حد ما المخزن الذي أنشاه الأتراك؛ لكن يختلف عن تنظيمه الإداري (الدواير والزمالة)، وذكر الأغا بن عودة المزاري أنّ شيخ أولاد عبد الله نزار العبدلاوي كان جنرالا على العرب معيّنا من الإسبانيين[7].

---

[1]- عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص31.

[2]-المصدر نفسه، ص33.

[3]-(M). El korso ; et (M). de Epalza, Op.Cit, p.43.

[4]- Ibid, p.43

[5]-(J). Cazenave, Op. Cit, p.356.

[6]-(CH). De la veronne, Relation entre Oran et Tlemcen dans la première Partie du XVI, CNRS, Paris, p.332.

[7]- الأغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار الجزائر ووهران واسبانيا وفرنسا إلى أواخرالقرن التاسع عشر، ج1،تح: يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر،2009، ص226.

تُعد قبائل بني عامر من أكثر القبائل التي تعاونت وتحالفت مع الاسبانيين، فقد احتلت جزءا كبيرا من الجهة الغربية في الجزائر، يقول بول روف (P. Ruff):" خيّم بنو عامر في الهضاب العليا في اتجاه الصحراء جنوب مدينة تلمسان، وتوسّعوا في المنطقة كلّها، واحتلوها من جبل تسالة حتى سهل ملاتة وسهل زيدور الذي يقع في عين تموشنت"[1].

أ-4-قيزة:

قبيلة من بني عامر تحالفت مع الأسبان، كانت مضاربهم بنواحي تارغة (نواحي عين تموشنت) قرب الساحل، عُرف اسم جبل " باسم جبل قيزة " نسبة إليهم[2]. خيّمت قيزة من المناطق الواقعة غرب المرسى الكبير إلى بلدة مسرغين حتى جبال تارغة.

أورد المهدي البوعبدلي بيتاً شعرياً من الشّعر الشّعبي يذكر فيه قيزة من القبائل المتعاونة مع الإسبان، وذلك في خِضَمِ تعليقه على كتاب "دليل الحيران"، يقول:

قِيْزَةْ وْشَاْفَعْ وَحْمَيَاْنْ جَاْزْهُمْ مَاْ   يَتْهَنَّىْ وْمَيَتْهُمْ مَاْ يَدْخُلْ لَلجَنّةْ[3].

وذكر محمد بن يوسف الزياني قبيلة قيزة حين وصف القبائل المجنّدة مع الإسبان " بالعرب المتنصرة"[4]، يُنسبون إلى جدّهم "قيزة" بن عامر بن براهيم بن يعقوب، وذكر المشرفي بأنّهم من جملة جند الإسبانيين بوهران[5].

إضافة إلى هذه القبائل هناك قبائل من بني عامر تحالفت مع الإسبان؛ لكن لم تكن في ضوء الأحداث مثل القبائل الكبرى من بني عامر التي ذكرناها، وهذا لعدة أسباب

حيث أنّ بعض القبائل كانت ربما بعيدة عن مركزية الحكم الإسباني بوهران، أو لصغر هذه القبائل، ومن هذه القبائل: أولاد خالفة، الذين صاحبوا الإسبان في حملاتهم خصوصا في القرن السادس عشر الميلادي. ذكر أبو راسٍ

---

[1]- (P). Ruff, la domination espagnole à Oran sous le gouvernement du Comte d'Alcaudète (1534-1558), Ed, Bouchene, 1998, p.29.

[2]- عبد القادر فكاير، الغزو الاسباني للسواحل الجزائرية وآثاره، درا هومة، الجزائر، د.ت، ص347.

[3]- محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح: المهدي البوعبدلي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر،2007، ص164.

[4]-المصدر نفسه، ص148.

[5]- عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص28.

الناصري أنّ أولاد خالفة المستقرين بنواحي عين تموشنت تجنّدوا إلى جانب الإسبان في حملتهم ضد تلمسان في جيش تعداده أربعة عشر ألف مقاتل في شهر ذو القعدة سنة 949هـ الموافق: مارس 1543م[1].

قبيلة أخرى لا تقل أهمية عن مثيلاتها من بني عامر وهي قبيلة الونازرة، حسب عبد القادر المشرفي نسبةً إلى جدّهم نَزار بن عبد الله بن سقير بن عامر[2]. وبعد احتلال الإسبان وهران كانوا من العرب الذين قبلوا التعاون معهم[3]، لم يتعدّوا ستة دواوير قبل وصول الإسبان للمنطقة[4].

قبائل أولاد سليمان وأولاد إبراهيم قبيلتان من بني عامر مضاربهما التقليدية غرب مدينة معسكر وجنوب جبال تسالة، تُعدّان من أهم القبائل الكبرى في المنطقة الغربية من الجزائر، اعتبرهما جوزيف بايبخو في تقريره أنّهما من القبائل الفرسان، وكانتا تحت زعامة بوعزة وبن شفال على التوالي.

ب-حميان:

أخذت قبيلة حميان قسطا وافرا من الدراسات الأجنبية الفرنسية سواء من قبل ضبّاط عسكريين أو أكاديميين فرنسيين، ودراسات أكاديمية جزائرية، فهي تعدُّ من القبائل العربية التي كان لها دورا مهم أثناء الاحتلال الإسباني للمنطقة من القبائل الهلالية التي خضعت للاسبانيين. وهم بطن من بطون بني يزيد بن زغبة، ولهم تاريخ في التّرحال من منطقة إلى أخرى حتى استقروا جنوب مدينة وهران حتى سهل سيرات في ضواحي مستغانم. وصفهم المشرفي بالقبيلة العظيمة، ونسبهم إلى حميان بن عقبة بن يزيد بن عيسى بن زغبة الهلالي[5].

سكنوا في أول الأمر في بلاد حمزة بالشرق الجزائري قبل أن يستعين بهم الملك الزياني يغمراسن وأسكنهم بضواحي تلمسان. انقسم حميان إلى الغرابة والشراقة.

منحت قبيلة حميان ولاءها لإسبان وهران منذ القرن السادس عشر الميلادي، وذكر محمد بن يوسف الزياني أنّ شيخ حميان هو الذي أشار على الأسبان ببناء قلعة سانتاكروز التي تطل على وهران؛ وسبب ذلك أنّ باشا

---

[1]-(L). Guin, Note sur les entreprises des espagnols, pendant la première occupation d'Oran, R.A, N° 30, 1886, p.318.

[2]- عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص24.

[3]- عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص349.

[4]-دغموش كاميلية، **قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الاسباني والسلطة العثمانية (1509-1792م)**، مخطوط رسالة الماجستير، جامعة وهران، 2013م-2014م، ص63.

[5]- عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص27.

ايالة الجزائر ابراهيم باشا غزا وهران ووضع المدافع على جبل مرجاجو، وشرع في قصف المدينة سنة 1038هـ/1629م؛ لكنّه فشل في دخوله المدينة، يقول محمد بن يوسف الزياني: " ...غزا ابراهيم باشا في وسط القرن الحادي عشر هجري فهو أول من غزاها من الأتراك ونصّب عليها المدافع والبونبة من المائدة فامتنعت عليه...ومن حينئذ وقعت للاسبانيين العناية بقلعة مرجاجو(سانتا كروز) ودبروا في إقامته وصعب عليهم الماء فكان أول من أتاها بقرب الماء لأجل إقامته شيخ حميان وقبيلته"[1].

قدّم الطبيب الفرنسي واتو (Wateau) –المصاحب للحملة الفرنسية في صحراء قورارة– دراسة تاريخية عن قبيلة حميان بيّن فيها بطون قبيلة حميان، يقول واتو: "تحالفت عدة بطون من حميان مع إسبان وهران وبعد محاولة ابراهيم باشا الفاشلة ضد وهران ساهم الشيخ مرزوق مع أفراد قبيلته في بناء قلعة مرجاجو"[2]. في مقابل هذا بدا الأتراك في خصومة دائما مع حميان بسبب تعاونهم مع خصومهم الإسبانيين، وحاول الأتراك إخضاع حميان وفرض عليهم الضرائب، عدّهم باييخو في تقريره بأنّهم قبائل مُزارعة تعتمد على الرعي في حياتها.

خيّم حميان الذين خضعوا للإسبان بين بطيوة ومفتاح شمال مدينة معسكر، تامزوغة عربال، وجنوب أرزيو في سهل المقطع شمال مدينة معسكر[3].

تذبذب وترجّح ولاء حميان حسب قوة السلطة القائمة في الجزائر، تارة يخضعون للإسبان وتارة أخرى للأتراك؛حيث ذكرت شانتال دي لفيرون أنّهم خضعوا للإسبان سنة 1549م[4]؛ وذلك لتغليب مصلحة القبيلة فوق كل اعتبار لأنّ الوقوف في وجه الأقوى(الإسبان) يعني الإبادة الحتمية للقبيلة.

ج–كرشتل:

تعود أصولها إلى القبائل البربرية التي استقرت قرب وهران، ذكرها عبد القادر المشرفي في جموع القبائل التي تعاونت مع الأسبان، واعتبرها من أشد القبائل تأثيرا لدى الإسبان رغم قلة عددها، مارسوا التجارة والفلاحة حسب ما ذكره المشرفي[5].

---

[1]– محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص146.

[2]–(D). Wateau, l'Histoire de Hamayans et de la région qu'il occupent actuellement, Algérie, 1914, p.86

[3]–(M). El korso et (M). de Epalza, Op. Cit, p.86.

[4]–(Ch). de la Veronne, Op. Cit, p.329.

[5]– عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص13.

ينتسبون إلى كُرِشْتَلْ بن محمد راشد بن ثابت بن منديل بن عبد الرحمن المغراوي، وهم بطن من زناتة ، استقروا لأول ومرة قرب مصب نهر الشلف وارتحلوا إلى سهل سيرات حتى استقروا في منطقة متوعرة بِسِيْفْ البحر[1]. تقع هذه المنطقة شرق وهران، تبعُد عشرات الكيلومترات من وهران وسميت هذه المنطقة نسبة إليهم حتى الآن وهذا لطبيعة البربر الذين يستقرون في الجبال عكس العرب يستقرون في السهول.

اعتبر الكثير من المؤرخين أنّ كرشتل قدّمت خدمات جليلة للمحتلين الإسبان استعصت عليهم مثل تقديم معلومات في غاية الأهمية عن مضارب القبائل المعادية لهم وتحركاتها، والمشاركة في عمليات الجيش الاسباني ضد القبائل الأخرى التي لم تدخل في طاعتهم أو من أُطلق عليهم اسم " المغاطيس".[2]

جاء في تقرير أرمبورو أنّ كرشتل استقروا قرب كنستال؛ وهي منطقة تبعد بضعة كيلومترات عن مدينة وهران ودخلوا في مبدلات تجارية مع الأسبان؛ حيث كانوا يُسمح لهم بيع منتجاتهم من الخضر والفواكه داخل أسوار المدينة. وجاء في التقرير أيضا أنّ مضاربهم تمتد من شرق وهران قرب كنستال حتى ميناء أرزيو[3]. وذكر مرمول كربخال أنّ مضاربهم غنية، وتوجد بها بساتين كثيرة ويُتاجرون بالأخشاب الحمراء، قال مرمول:" اعتاد سكانها أداء الجزية للأسبان منذ أن تمّ هؤلاء فتح وهران ولا سيما تحت حكم الكونت دالكوديت وعندما جاء محمد باي ومامي رايس انحاز هؤلاء السكان إلى جانب الأتراك وهو السبب في خروج الكونت إليهم ونهبهم"[4].

4-القبائل المناوئة للإسبان:

أ-قبيلة هبرة:

تُعدّ من القبائل التي كانت عدوّة الإسبان منذ القرن السادس عشر الميلادي، وقد عدّهم عبد القادر المشرفي من القبائل التي لم تدخل في طاعة النصارى الاسبانيين[5]. وذكر الأغا المزاري أنّ هبرة هم أولاد المقداد بن مهاجر بن سويد، وعدّد بطونهم بتسعة بطون وهم: الدعامشة والهدادجة، وأولاد ملال، وأولاد مكثر، وأولاد دفنطاس، وأولاد عنان، وأولاد العزيز (العزايزة)، والصواوقة، والدواودة؛ لكنّهم أُبيدوا رغم قُوتهم ذلك لدخولهم في حروب مع الإسبان وجماعة القبائل المجاورة لهم.

---

[1]- عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص14.

[2]-(M). El korso et (M). de Eplaza, Op. Cit, p.42.

[3]-Ibid, p. 42

[4]- مربول كربخال، افريقيا، ج2، تر: محمد حجي وآخرون، دار المعرفة، الرباط، 1989، ص

[5]- عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص35،34

إنّ ما ذكره المزاري عن أسباب قتال هبرة مع قبيلة سويد هو أنّ أفراد قبيلة هبرة كانوا يعترضون الأندلسيين الفارين من بطش الأسبان بعد سقوط غرناطة سنة 1492م؛ حيث ينزلون بمرسى أرزيو فَيَسْلِبُونَ مَتَاعَهُمْ حتى أنّهم يبقرون بطون النسوة باعتقادهم أنّ المجوهرات في بطونهن، فحرّض الفقيه سيدي محمد أقدار التيجيني المتوفى عام 1065هـ(1655م) أحميدة العبد كبير سويد، ووقعت بينهم معارك كثيرة، قُتل فيها الكثير من هبرة[1]. هذا إضافةً إلى معارك عدّة ذكرها المزاري بالتفصيل بين الأسبان وهبرة:

–معركة يَعْلُو من جبال سيرات قُتل فيها من الطُلبة تسعون قتيلا و جُرح أربعون، ومن الأسبان ثلاثمائة قتيل وأربعون جريحا.

– معركة سيدي لخضر قُتل من هبرة مائتان وجُرح ثلاثون، أمّا الأسبان فقتل منهم ستون وجرح سبعون فرادا.

–معركة يعلو الثانية ، هُزم فيها الأسبان في المعركة وذلك بمساعدة بني شقران.

–معركة عْوينة الزيتون في منطقة العبيد الشراقة، قُتل فيها من هبرة زهاء سبعمائة شخص فضلا عن مئات الجرحى، وكان إلى جانب الأسبان قبيلة أولاد حمدان.

–معركة سيدي مبارك، بين سيرات والجبال المحيطة بها والساحل؛ معركة بين أولاد هداج بن هبرة من جهة والأسبان والقبائل المتعاونة معهم من جهة أخرى من قيزة، وشافع، والونازرة، وغمرة، وحميان، وكرشتل، وبني زيان، وأولاد عبد الله ، وأولاد علي. أُسر عدد كبير من أولاد هداج فضلا عن مئات القتلى.

–معركة سيدي عبد المومن قرب مزغران، كانت الغلبة فيها لهبرة، وغنم الواحد من مقاتلي هبرة حسب المزاري ثلاثين ريالا كبيرا.

–معركة سيدي عبد المومن الثانية: القتلى من الأسبان لم يُحدّد عددهم؛ إلاّ أنّه قتل عدد كبير منهم، بعد أن غرق من الأسبان عدد كبير في فيضانات واد الحمام وواد سيق

استقى المزاري هذه المعلومات عن المعارك بين قبيلة هبرة والأسبان من كتاب " القول اليقين في وقائع هبرة مع الاسبانيين في وقائع هبرة مع الاسبانيين" لأبي العباس أحمد بن محمد الشقراني، وقد أوصى المزاري لمراجعة الكتاب للاطلاع على تفاصيل الحروب بين المتحاربين[2].

[1] – الأغا بن عودة المزاري،المصدر السابق، ص209.

[2] – المصدر نفسه، ص 211.

كانت مضاربُ بطون هبرة في السهل الذي يحملُ اسمَها حاليا في الجنوب الشرقي من مدينة وهران، وشمال مدينة معسكر، وقد اعتبرهم دييغو سواريز بالعربَ الأعداء أو المور أعداء وهران[1].

ب-مجاهر:

ذكر عبد القادر المشرفي أنّ قبيلة مجاهر كانت معاديةً للإسبانِ ولم تدخل في حلف معهم أو خضعت لهم، تمتد مضاربهم من ضواحي مدينتي مستغانم ومزغران حتى حوض نهر الشلف، وتتاخم جبال طفراوي الممتدة على سواحل البحر المتوسط، وتتحكم هذه القبائل بالطريق الرابط بين مدينتي وهران والجزائر، وتتربع على أراضٍ زراعيةٍ واسعة وخصبة ومجارٍ مائيةٍ مهمّة منها واد الشلف، وقد ذكر ليون الافريقي (الحسن الوزان) أنّه من أكبر الأودية في الجزائر، ينبُع من جبال الونشريس، وينحدر عبر سهول مُقِفَرَة، ويمرّ عبر أراضي الدولة الزيانية حتى يصبُّ في البحر، وبفصل مدينتي مستغانم ومزغران عن بعضهما[2].

مجاهر كانوا أعداء الأسبان منذ البداية، وكانت مناطقُهم مسرحاً لعمليات غزو الأسبان خاصةً غزوات الكونت دالكوديت؛ الذي قام بثلاثة محاولات فاشلة للسيطرة على مستغانم وضواحيها، الأولى كانت سنة 1543م، والثانية 1547م، وبعد تسع سنوات قُتل في محاولته الأخيرة سنة 1558م، وقد وصف بول روف هذه المعركة بنكبة مستغانم[3]، قُتل فيها آلاف الجنود الاسبانيين وأُسِرَ الباقون فضلا عن قتلى وجرحى من القبائل المتحالفة معهم. ونسب أبي راس الناصري مجاهر من بني سويد بن عامر بن مالك بن زغبة[4].

ينتمي إلى قبائل سويد بن عامر بطون كثيرة منهم العطّاف والديا لم وفليتة والحساسنة ومالفة وغريب وصْبيح وهبرة. وذكرت شانتال دي لفيرون أنّهم تحالفوا مع الأسبان سنة 1535م، وكانوا أعداء للأتراك سنة 1538م[5]؛ لكن عدة بطون منهم شاركت مع الأتراك ضد الأسبان. وذكر الشّاعر الشّعبي سيدي لخضر بن خلوف في قصيدته " قصة مزغران" أنّ قبائل سويد كانوا إلى جانب حسن بن خير الدين باشا ضد الأسبان في حملتهم على مستغانم سنة 1558 يقول في ذلك:

---

[1]- Diego Suarez, Historia del Maestre Ultimo que fue de Montesa y de su hermano Don Felipe de Borja, T1, Madrid, p. 359.

[2]-(R). Brunschvig, Léon l'Africain et embouchure du Chélif, R.A, N° 79, 1936, p.599.

[3]-(P). Ruff, Op. Cit, p.157.

[4]- أبو راس الناصري، المصدر السابق، ص21.

[5]- (Ch). de la Veronne, Op. Cit, p.333.

أَخذُ اَلْوَاْدْ اَلْشَّايَعْ[1] اَلْمَعْلُوْمْ فِيْهْ اَظْلَاْنْ اَلْسْوِيْدْ مَلْمُوْمَةْ

جَاْوْاْ شْيُوْخْ سْوِيْدْ لْلْسُلْطَاْنْ وْفِيْهُمْ بُوْبَكَّرْ وْمُحَمَدْ

قَاْلوْا لَهْ يَاْ أَمِيْرْ لَا تَلْيَاْنْ لاَ دِيْنْ إلاّ دِيْنْ مُحَمَّدْ

اِسْتَشْرَحْ سَلْطَاْنَاْ وَزْيَاْنْ رَاْهَا قَوْمَةْ زَاْهْيَةْ تَرْعَدْ[2].

في القرن الثامن عشر ميلادي دخلت قبيلة سويد في حروب طاحنة مع الأتراك، وبيّن الشّاعر الشّعبي قادة بن السويكت[3] أسباب ثورة سويد (لمحال) ضد الأتراك في قصائده:

قَاْلُوْاْ اَلْتُرْكْ نَدُّوْ اَلْشْلَفْ لاَ وْهَمَّةْ قَلْنَاْلْهُمْ جْدُوْدْنَاْ فِيْ اَلْوَاْدْ

مَاْ نَتَرْكُوشْ شْلَفْ حتَّىْ تْطِيْبْ اَلْصَمّةْ وْمَاْ نَهْدُرُوْشْ اَلْعَقْبَةْ عْلَىْ اَلْاَوْلاَدْ[4].

عرفت مناطق سهل الشلف وجديوية وواد أرهيو مسرحا للمعارك بين المتحاربين؛ حيث قال:

عْلَىْ اَرْهِيُوْ وَعْلَىْ جْدِيْوْيَةْ كَاْسْرِيْنْ اَلْتُرْكْ جَوْفْ وَسْوِيْدْ جَاْوْ اَلْقِبْلَةْ

خَيْمَةْ مْعْ اَلْخْبَاْ وْبْنُوْدْ مَتْقَاْبْلِيْنْ مَنْ اَلْصُّبْحْ لَلْمْسَاْ كُلْ يَوْمْ مَقْتْلَةْ[5].

وذكر الباحث محمد مفلاح أنّ قصائد قادة بن السويكت خلّدت معارك قبيلة سويد منها "لاَ مَنْ جَاَبْ أَخْبَاْرْ سْوِيْدْ" و" أَنَاْرِيْ وِيْنْ سْوِيْدْ"[6].

تعرّضت قبيلة لَمْحَالْ إلى التهجير من قبل الأتراك العثمانيين في القرن الثامن عشر ميلادي بسبب الثورة، وقد أجلاها الباي الحاج محمد من مواطنهم إلى تلمسان ثم إلى وهران ثمّ أرجعهم إلى محلّهم، وقتل منهم الباي في يوم واحد نحو أربعين من الأعيان حسب ما ذكر الأغا بن عودة المزاري[7].

[1]– الواد الشايع: هو واد الشلف، أكبر وديان الجزائر، ذكره ليون الأفريقي في كتابه "وصف إفريقيا"، ينبع من جبال عمور في الأطلس الصحراوي، ويصب في البحر الأبيض المتوسط قرب مدينة مستغانم.

[2]– لخضر بن خلوف، ديوان سيدي لخضر بن خلوف، جمع وتحقيق: الغوثي بخوشة، تلمسان، د.ت، ص 183.

[3]– قادة بن السويكت: شاعر شعبي من قبيلة سويدة المعروفة بلمحال، عاش في القرن الثامن عشر ميلادي وأعطى له الباحث محمد مفلاح تعريفا موجزا.

[4]– محمد مفلاح، أعلام من منطقة غليزان، دار المعرفة، الجزائر، 2008، ص198.

[5]–المرجع نفسه، ص198.

[6]–المرجع نفسه، ص 199.

[7]– الأغا بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص 283.

ج–قبائل المخزن:

كثيرا ما ردّدت أقلام المؤرخين كلمة "المخزن" أو القبائل المخزنية في العهد العثماني، وارتبط هذا الاسم بقبائل مُقرّبةٍ من السلطة في ظلّ الصراعِ الاسبانيّ العثماني بالجزائرِ، الكُلُّ قرّبَ قبائل إلى صفِّه على حساب الخصم. إذن ما هي قبائل المخزن؟.

أُشتق لفظ المخزن من فعل خزن؛ أيّ حفظ الشيء وصانه من الضياع. هذا هو الشرح الشائع عند اللغويين، وقد أُستعمل اللفظ لأول مرة في تاريخ المغرب الإسلامي في عهد إبراهيم الغالب أمير افريقية في القرن 2هـ/8م، وقد نُعت صندوق حديدي يُودِعُ فيه أمواله[1]. وتطور استعمال المصطلح عبر التاريخ حتى الوجود العثماني بالجزائر إلى الاستعمال الإداري، بكل تقسيماته الإدارية والألقاب التشريفية، وقبائله التي تلعب دورا عسكريا في حماية النظام العثماني في الجزائر.

ذكر الباحث الفرنسي مارسيل اميري (M. Emerit) أنّ مخزن وهران تشكّل من عدة عناصر مختلفة؛ لكنّه قوة متكاملة من حيث القوة العسكرية[2]. وتشكّل من قوتين أساسيتين هما قبائل الدواير والزمالة، وكانت مهمتها الأساسية جمع الضرائب من القبائل الرعية وخدمة الأتراك[3].

حدّد الأغا المزاري عدد القبائل المكوّنة لهذا المخزن بخمسِ قبائل هي الدواير والزمالة، الغرابة، البرجية، والمكاحلية[4]. وذكر كذلك أنّ المخزن كان مقسّما إلى قسمين: المخزن الشرقي وهو نجع المكاحلية وأولاد سيدي عْريبي، وصْبيح وأولاد العباس وغيرهم من أهل النواحي الشرقية[5]. ومضارب هذا المخزنِ تمتد من وادي مينا إلى حوض نهر الشلف، أمّا المخزن الغربي فقد ذكر المزاري هم: نجع الدواير والبرجية والزمالة[6]. وكانت الرياسة في الدواير: البحايثية والكراطة والدواودية حسب ما ذكر المزاري[7].

[1] – الطيب بياض، المخزن والضريبة والاستعمار، إفريقيا الشرق، المغرب، 2011م، ص 68.

[2] -(M). Emerit, les Tribus privilégiée en Algérie dans la première moitié du XIX Siècle, A.E.S.C, N° 21, 1966, p.1.

[3] - Ibid, p.1.

[4] –الأغا بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص332.

[5] –المصدر نفسه، ج2، ص275.

[6] –المصدر نفسه، ص375.

[7] –المصدر نفسه، ص375.

اعتمدنا على رواية الأغا المزاري؛ لأنّ المزاري كان مخزنيا ويعرف خبايا هذا المخزن، فهو ينتمي إلى عائلة البحايثية، وقد تقلّد أبوه محمد المزاري رتبة الأغا في عهد الأتراك. كانت هذه القبائل المخزنية وفية للأتراك حتى نهاية حكمهم في الجزائر على يد الفرنسيين سنة 1830م، في مقابل ذلك أُعْفِيَتْ هذه القبائل من الضرائب ومُنِحَتْ امتيازات لاستغلال الأراضي الزراعية الخصبة.

4-الدولة الزيانية في النصف الأول من القرن السادس عشر ونهاية الدولة سنة 155م:

بعد سقوط دولة الموحدين وتفكّكها في القرن الثالث عشر ميلادي وبداية تأسيس ثلاث دول مغاربية في أقطاره الثلاثة، على أساس العصبية القبلية والانتماء على أساس الدّم؛ حيث نجح الحفصيّون في تأسيس الدولة الحفصية بتونس عام 625هـ/1227م، وتمكّن بني عبد الواد من تأسيس دولتهم عاصمتها تلمسان. وفي المغرب الأقصى أسّس بنو مرين دولتهم عاصمتها فاس عام 668هـ/1295م بعد أن قضوا نهائيا على بقايا الموحدين في نفس السنة[1].

قامت دولة بني زيان على مبدأ القبيلة الحاكمة والمسيطر على دواليب الحكم، فقد تأسّست فعليا عام 633هـ/1235م على يد مؤسّسها الفعلي يغمراسن ولم تقم على أساس دعوة دينية كما قامت دولة الموحدين والمرابطين؛ بل على قوة العصبية القبيلة مثل نظيرتها في المغرب الأقصى وتونس (بني مرين وبني حفص). بنو عبد الواد قبائل زناتية كما ذكر ابن خلدون في تاريخه[2] وهم إخوة بني راشد الذين سكنوا المغرب الأوسط. وقد قامت هذه الدولة بالتنازع والغلبة حسب تعبير ابن خلدون[3]؛ أيّ أنّ قوة بني عبد الواد أقوى كثيرا من القبائل الأخرى البربرية والعربية التي أجبرتها بالقوة على الولاء والطاعة لهم، يقول ابن خلدون:" لما استقلّ يغمراسن بن زيان بأمر تلمسان والمغرب الأوسط وظفر بالسلطان وعلا كعبه على سائر أحياء زناتة...فشمّر لحربهم ونازلهم في ديارهم وأحجرهم في أمصارهم ومعتصماتهم في شواهق الجبال وممتنع الأمصار"[4].

مرّت دولة بني زيان بدورة الدولة بالمفهوم الخلدوني للدولة مثلها مثل سائر الدول التي تأسّست قبلها بهذا المنطق (منطق القبلي): وهي مرحلة تأسيس الدولة، مرحلة القوة والتوسّع، ومرحلة القنوع والترّف، وأخيرا مرحلة السقوط. وما يهمّنا هنا سقوط الدولة الزيانية في منتصف القرن السادس عشر الميلادي.

---

[1]- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج2، موفم للنشر، الجزائر، 2002م، ص14.

[2]- عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر...مصدر سابق، ج2، ص97.

[3]- محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص196.

[4]- عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر...مصدر سابق، ص 105، 106.

بدأ القرن السادس عشر بهجمة اسبانية شرسة ذات طابع صليبي، احتلّت المرسى الكبير سنة 1505م ووهران سنة 1509م، أهمُّ المدنِ تجاريا في إقليم الدولة الزيانية، كانت محطة نزول التُجّار الكاتالونيين والجنويين والبنادقة والايطاليين قُبيل الاحتلال الاسباني[1]. فقد كان هؤلاء يبادلون منتجاتهم بالأخرى المحلية، إضافة إلى ميناء هُنَيْن الميناء الذي كان يخضع مباشرة لسلطة السلطان الزياني. ففي رسالة مؤرخة سنة 1385م أرسلها السلطان الزياني أبو موسى حمو الثاني إلى حاكم مايوركا الإسباني يؤكّد له أنّ ميناء هُنَيْن هو الميناء الذي تدخل منه السلع التجارية الخاصة بالسلطان الزياني[2]، وذكر ليون الإفريقي أنّ المدينة تأتيها عشرات السفن الشراعية من البندقية تحقّق أرباحا طائلة بالتجارة مع تُجّار تلمسان[3]. بعد سقوط مدينة وهران على أيدي الجنود الاسبانيين أصبحت هُنين مقصدا لتّجار البندقية وازدهرت تجارة المدينة.

إنّ الانحسار الذي تعرّضت له مملكة بني زيان في بداية هذا القرن والتدخل الأجنبي في أراضيها (الإسبان، الأتراك، المغاربة) والمؤامرات التي كانت تحدث في البلاط الملكي، وانحسرت أراضيها حتى أنّها لم تتعد مدينة تلمسان في مقابل تعاظم قوة المملكة الاسبانية على أساس القومية الأسبانية- الكاتالونية، مسيحية كاثوليكية بعد الزواج السياسي بين ملكة قشتالة ايزابيلا وملك أراغون فرديناند الكاثوليكي.

عندما احتل الإسبان مدينتي المرسى الكبير ووهران على التوالي كان على رأس الدولة الزيانية أبو قلمون الزياني[4]، وقد ذكر هذا أبو راس الناصري في قصيدته السينية، قال:

خَامِسْ عَشَرْ مِنْ عَاشِرْ أَنَاخَ بْهَا　　الِإسْبَانِيُوْنْ أَهْلُ اَلْشّرْكِ وَاَلْرِّجْسِ

جَحَاْفِلَ اَلْكُفْرِ قَدْ حَمَوْا جَوَاْنِبَهَا　　وَعَنْ دِفَاعِهِمْ عَجَزَ أَبُوْ قَلْمُوْسْ[5]

يحمّل مولاي بلحميسي القبائل الوهرانية قدرا من المسؤولية للأوضاع التي آلت إليها مملكة بني زيان بسبب امتناعها عن دفع الضرائب، واتساع دائرة حكم الأسبان يقول في هذا الصدد: " وبعد إن كانت السيطرة الاسبانية لا تتعدى وهران وضواحيها القريبة من رأس فالكون غربا إلى كرشتل شرقا إلى السبخة جنوبا امتدّت إلى أبعد من

---

[1]-(R). Lawless, Tlemcen Capital du Maghreb Central, Analyse des fonctions d'une Ville Islamique médiévale, R.O.M.M, N° 20,1975, p.63.

[2]Ibid, p.61-

[3]- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر،ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص15.

[4]-هو أبي عبد الله تولى الحكم عام (911هـ/1505م) إلى 922هـ/1516م. بعد وفاته ترك ثلاث أبناء أكبرهم أبو زيان؛ لكن عمّه أبو حو الثالث عزله وسجنه.

[5]-أبو راس الناصري، الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية، مطبعة بيير فونطانا، الجزائر، 1903، ص6.

ذلك لا بقوة السلاح بل بانقسام المسلمين وتفرقهم وعدم شعورهم بالخطر، وبتركهم بني زيان لأتفه الأسباب كالامتناع عن دفع الضرائب"[1]. لكن لا نستطيع أن نحمل القبائل المسؤولية عن تدهور الأوضاع وتوسع الأسبان؛ لأنّ الدولة الزيانية في مراحلها الأخيرة فلا بدّ من الاضطرابات واللاأمن نتيجة ضعف الدولة الزيانية والمؤامرات داخل البلاط الملكي فكيف على القبائل أن تدفع الضريبة وهي تبحث عن سبب للخروج عن طاعة الدولة لطبيعتها القبلية عدم الانصياع. إنّ هذه الأمور راجعة لحتمية تاريخيةٍ حسب نظرية ابن خلدون في تطور الدول" أنّ صاحب الدولة في أواخر عهد الدولة يكون مُتْلِفا لما جمعه أسلافه في الشهوات والملذات... وهادما لما كانوا يبنون"[2].

بعد موت أبي عبد الله(أبي قلمون) خلفه ابنه البكر عبد الله الملقّب أبو زيان حسب تقاليد الحكم لدى بني زيان؛ لكنّ عمه أبي حمو الثالث ألقى عليه القبض وزجّه في السجن[3]. ومن هذا التاريخ سنة 1516م؛ أيْ بعد تولي أبو حمو الثالث مقاليد الحكم بدأ عهد القَلاقِلْ والاضطرابات والتّقَرُّب من المغاربة والأتراك والأسبان، وفيها زاد الطين بلّة انتشار الطاعون؛ حيث كان يموت يوميا الآلاف من ضحايا الوباء حسب الوثائق الاسبانية[4].

بدأ أبو حمو الثالث في البحث عن حليف أجنبي أقوى فوجد ضالته في الإسبان، وكان أول اتصال بين الإسبان والزيانيين في عهد الملك أبو قلمون (أبي عبد الله) لتزويد مدينة وهران والمرسى الكبير بالسلع والمواد الضرورية التي تحتاجها المدينة[5]. وأول عقد اتفاقية التحالف والخضوع مع الأسبان يعود إلى سنة 1511م حين أرسل الملك الزياني سفارة إلى مدينة وهران لعقد معاهدة السلام(Asiento en lo de la paz) بين الزيانيين والملك الاسباني فرديناند الكاثوليكي وكان على رأس السِفارة إسحاق كانزينو وابرهام زاميرو[6].

هذا الاتفاقُ هدنةٌ حسب شانتال دي لفيرون؛ حيث ذكرت أنّ الملك الزياني دفع ضريبة سنوية، والأسبان هم من يحدّدون سعر الضريبة السنوية التي يقدّمها الملك الزياني لإسبان وهران وبموجب هذا الاتفاق أدخلت

[1]- مولاي بلحميسي، **نهاية دولة بني زيان**، مجلة الأصالة، العدد: 26، الجزائر، 1979، ص 32.
[2]--محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص218.
[3]- مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، ج1، ص
[4]-المرجع نفسه، ص 52.

[5] -(Ch). de la Veronne, Op.Cit, p.11.
[6]- Ibid, p.11

القبائل المجاورة للمدينة في ثلاث أشهر الأخيرة من نفس السنة التي عُقد فيها الاتفاق: 501 خروفا، 16 تيسا، 21 بقرة، 3 أحمرة . وفي شهر جانفي إلى أفريل من سنة 1512م تسلّم الأسبان881 خروفا، و7 أبقار[1].

بدأت سفارة جديدة إلى مدينة وهران كان على رأسها مفتي مدينة تلمسان الفقيه العُبيدي سنة 1515م لعقد هدنة جديدة مع الأسبان، وبحثت هذه السفارة مسألة الضريبة السنوية أو ما كان يُطلق عليها الأسبان (Parias)[2] ، وقد اتّفق الطرفان على تمديد الهدنة لمدة عشر سنوات بموجبها يدفع الملك الزياني ضريبة سنوية حدّدها الأسبان بعشرة آلاف دوبلة[3](Doblas).

بدأت الاتفاقياتُ بين ملوك بني زيان والأسبان باتفاقيات خضوعٍ واستسلامٍ ففي هاتان الاتفاقيتان في كلتيهما دفع الملك الزياني أبو عبد الله محمد (أبو قلمون) ضريبة سنوية مقابل الحماية، أو عدم الاعتداء على ممتلكات الدولة الزيانية.

كما ذكرنا سابقا أنّ أبا حمو الثالث اغتصب الحكم من ابن أخيه أبو زيان، ووقّع الملك الجديد معاهدة مع الأسبان مقابل الحماية وعدم التحرّش لعرشه، ووقع المعاهدة سنة 1516م مع الملك الأسباني الجديد شارلكان (Charles Quint). قاد المفاوضات من الجانب الأسباني لوبي أورتادو دي مندوثا (lope Hurtado de Mondoza) ، وبعد مفاوضات خُفّضت الضريبة السنوية إلى خمسة آلاف دوبلا[4].

إنّ هذه المعاهدة التي وقّعها الملك الزياني مع الأسبان فتحت عهدا جديدا في علاقة الأسبان مع القبائل المجاورة، وقد منحتهم حق التوسع خارج أسوار المدينة لأول مرة منذ احتلال وهران سنة 1509م، يقول هنري ليون فاي (H.L.Fey) :" ...حتى سنة 1516م لم يكن باستطاعة الأسبان أن يتجرؤوا حتى على الخروج من أسوار المدينة، إلى هنا أخذوا يكتسحون المزيد من المناطق خارج المدينة على نطاق واسع، ونظّموا حملات للحصول على التموين اللازم"[5]. لكن التهديد بقي قائما وهذه المرة من القوة الجديدة الناشئة القادمة من الشرق –إمارة الإخوة بربيروسة– حيث طلب سكان مدينة تلمسان العون من بابا عروج لإرجاع الملك الشرعي أبو زيان

---

[1]- (Ch). de la Veronne, Op.Cit, p.20

[2]––تقول شانتال لدي لفيرون أنّ كلمة Parias أسبانية تعود إلى القرن الحادي عشر ميلادي إلى منتصف القرن الثاني عشر وهي ضريبة سنوية يؤديها ملوك الأندلس إلى الملوك الأسبان الكاثوليك، وانتقل هذا النظام إلى شمال إفريقيا.

[3]-Ibid, p.20

[4]-Ibid, p.24.

[5]- Henri-Léon Fey, Histoire d’Oran avant, pendant et après la domination Espagnoles, Oran, 1858, p.78.

حسب تقاليد حكم الزياني، وقد لبى بابا عروج الطلب ودخل تلمسان 1517 من وفرّ أبو حمو الثالث لوهران ومن هذا التاريخ بدأ الصراع العثماني الاسباني على عرش مملكة بني زيان، واستقر عروج بالمدينة؛ وأصبح الملك الفعلي لها ويديرها كأنّه ملك حسب تعبير شانتال دي لفيرون[1].

ولاستعادة مملكته طلب أبو حمو الثالث المدد من الملك الأسباني شارل لكان في أواخر شهر جانفي سنة 1518م أرسل أبو حمو وفدا ينوب عنه إلى مدينة طُليطلة (Tolède) للمساعدة في محاربة جيش بابا عروج، وكان على رأس الوفد أحد إخوته يرافقه أحد شيوخ القبائل[2]، وقد حصل على المدد المرجو وهاجم أبو حموقلعة بني راشد التي تحصّن فيها إسحاق[3] إلى جانب مئات الأتراك. أكّدت رسالة اسبانية أنّ أبو حمو حاصر قلعة بني راشد برفقة القائد أحمد شيخ بني راشد والقبائل العربية الأخرى المتحالفة معه. وفي القلعة المحاصرة يوجدالقائد إسحاق بربروس برفقة جنوده الأتراك[4].

شارك من جانب الأسبان في معركة القلعة دون مارتين ارغوت الذي كان قائدا للجيش[5]. أهمية قلعة بني راشد للإسبان تعدُ أهم نقاط تموين الأسبان، فقد كانت وهران يأتيها التموين من القلعة التي تُعدّ من أغنى مناطق البلاد زرعا وضرعا[6].

اتّصل أنصار الأمير الزياني المعزول أبا زيان بعروج لمناصرتهم ضد عمه أبا حمو الثالث المتحالف مع الإسبان، عروج فرأى في هذا المطلب فرصةً لا تعوّضُ للتوسّعِ غربا والوصول إلى حدود المملكة المغربية. خرج عروج من الجزائر بجيشه نحو تلمسان المستنجدة به، استولى على عدة مدن أهمّها مدينة تنس، ودخل مع حاكمها احميدة العبد في مناوشات، نتج عنها احتلال المدينة، وفرار حاكمِها ولجوئه إلى في الجبال المجاورة[7].

واصل عروج طريقه إلى تلمسان، مُخضّعا كلّ من صادفه في طريقه على رأس 1500 الى 1600 من جنود الانكشارية وحاملي السّهام، وانضم إليه المتطوعون من القبائل التي مرّ جيش بابا عروج في أراضيها، قبل ذلك دخل مدينة قلعة بني راشد دخول الفاتحين، وقد استقبله أهالي المدينة استقبال الأبطال. يقول أرنست مارسيه

---

[1] -(Ch). De la Veronne, Op.Cit, p.25.
[2]- Ibid, p.25.

[3]– إسحاق الأخ البكر من الأشقاء الثلاثة الذين وفدوا إلى الجزائر لإنجادها من الغزو الأسباني.

[4]-(M). Mahon, Document inédits sur l'Histoire de l'Occupation Espagnole en Algérie (1506-1574), Algérie, 1875, p.22

[5]-(C.X). de Sandoval, inscription d'Oran et de Mers el Kebir, R.A, N° 15, 1871, p.276.

[6]– مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة، الجزائر، د.ت، ص 49

[7]––عبد الحميد بن أشنهو، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، الطباعة الشعبية للجيش، الجيش، د.ت، ص74.

(E. Mercier):"استقبل الأهالي بابا عروج استقبالا حافلا...وترك في المدينة أخيه إسحاق برفقة ثلاثمائة من الانكشارية لقطع الموارد التي يحتاج إليها الأسبان"[1]. عند دخوله مدينة تلمسان فرّ الملك الزياني أبو حمو الثالث وأفراد حاشيته إلى مدينة فاس، وأفرج عروج عن الأمير الزياني المعزول (أبا زيان)[2] ؛ لكن الأمور تطورت في منحى آخر لم يكن ينتظره سكان المدينة فقد ارتكب عروج أعمال قتل في حق سكان تلمسان، يقول دي غرامون: "استقرّ عروج في قلعة المشور، وحكم المدينة بيد من الحديد؛ حيث أعدم ستين من أمراء بني زيان، وأغرقهم في خزان مياه كبير"[3]، إضافة إلى قتله أبا زيان والتمثيل بجثّته.

أ–مقتل عروج بربروس:

توقّع عروج رد فعل الإسبان حلفاء أبو حمو الثالث وجهّز نفسه لحصار طويل الأمد، دام حصار مدينة تلمسان ستة أشهر، أعقب الحصار هجوم اسباني على المدينة. وقبل ذلك طلب بابا عروج من قبائل بني عامر الانضمام إلى صفّه وتموينه بالحبوب اللازمة؛ بنو عامر كانوا أوفياء لبني عبد الواد؛ أيْ أنّهم رفضوا الطلب. أرسل الملكُ الهاربُ رسالة إلى الإسبان يشرح فيها ما آلت إليه مملكة أجداده التي أصبحت تحت حكم الأتراك، لقد أورد صاحب غزوات عروج وخير الدين رسالة أبو حمو الثالث طالبا المعونة من الإسبان ضد عروج، يقول: " لقد ضيّعتُ مملكتي بسبب غزو الأتراك، وهم يجلسون على تاج أجدادي وقد شاهدتم كيف احتلوا قلعة بني راشد، وقطعوا عنكم المدد اللازم منها. أقترح عليكم أن نتعاون معا على القضاء عليهم"[4].

وصلت تعزيزات عسكرية اسبانية للمشاركة في الحرب ضد عروج، وقد ذكر دي غرامون أنّ التعزيزات التي وافق عليها المجلس الملكي في طليطلة نحو عشرة آلاف مقاتل[5]. بعد الحصار الطويل بدأت المدفعية الاسبانية تدكُّ أسوار المدينة إلى أن دخلت القوات الإسبانية المدينة إلى جانب قوات أبي حمو الثالث المتكوّنة من القبائل المساندة لهم وأضحت حرب شوارع (بالتعبير المعاصر) يقول أحمد التوفيق المدني: " تمكّن الأسبانيون من تحطيم الأسوار

[1]-(E). Mercier, Histoire de l’Afrique Septentrionale (Barbarie), T.2, Ernest Leroux, Paris, 1868, p.19
[2]- Ibid, p.20.
[3]-(-H.D).de Grammont, Hiistoire d’Alger sous la domination turque (1515-1830), Paris, 1887 , p.25.
[4]-(A). Ranget et (F). Denis, Histoire d’Aroudj et de Kheir –ed-Din, fondation de la régence d’Alger, T.1, 1857, p.98.
[5] -(H.D). de Grammont, Op. Cit, p.27.

بقصف المدافع المتواصل، فدخلوا المدينة، وانقلبت المقاومة اليائسة إلى حرب في الأسواق،والطرقات والمنازل، ولما انتهى ذلك أوى عروج وجنوده إلى قلعة المشوار"[1].

بعد تضييق الخناق عليه فرّ عروج من المدينة مع بقية جنوده ليأخذ الطريق الساحلي ويفر إلى مدينة الجزائر عبر ميناء هُنين الذي مازال في قبضة الزيانيين؛ لكن أُكْتُشِفَ أمره ووقعت معركة خاسرة وغير متكافئة سقط فيها قتيلا مع كل جنوده الذين كانوا معه، وذكر أحمد التوفيق المدني أنّ كل كتب التاريخ الإسبانية والفرنسية ردّدت عبارة "وقد دافع عروج عن نفسه مثل الأسد"[2].

فعلا دافع عروج عن نفسه، فقد كان شجاعا ذا كاريزما حتى وان ذكرت المصادر الأجنبية العبارة التي أوردها أحمد التوفيق المدني فإنّ اسمه أخذ شهرة واسعة في أوربا واسبانيا؛ رغم أنّه فقد إحدى ذراعيه في معركة بحرية سابقة، وحُزّت رأسه وأرسلت إلى وهران ، ثم إلى اسبانيا.

أمّا المكان الذي قُتل فيه عروج، فاختلف المؤرخون في تحديده، وذكر دييغو هاييدو أنّ عروج قُتل على بُعد ثمانية فراسخ (8 lieue) عند مروره قرب الواد الكبير سماه هايدو (Huexda)[3] ، ونقل بربيرجر (Berbrugger) عن الرحالة الانجليزي الدكتور شاو الذي زار الجزائر أنّ عروج قُتل قرب واد المالح في الطريق الرابط بين وهران وتلمسان[4].

هناك رواية أخرى تتحدّث عن مقتل عروج في جبال بني موسى[5] نحو 23 فرسخا، وقد رجّح ادريان بربيرجر أنّ عروجا قُتل في منطقة بني سناسن نحو 90 كيلومتر غرب مدينة تلمسان، بالضبط في جبال بني موسى قرب وادي ايسلي المحاذي لمدينة وجدة المغربية[6] .

رغم اختلاف الروايات حول المكان الذي قُتل فيه عروج[7]؛ إلاّ أنّه وسّع مملكته غربا حتى تلمسان وأصبح وجود الأتراك يهدّد الاحتلال الإسباني بالمنطقة. قُتل عروج سنة 1517م وعاد أبو حمو الثالث لكرسي عرشه

---

[1]-أحمد التوفيق المدني،حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت، ص190.

[2]-المرجع نفسه، ص192.

[3]-(F).Diego de Haedo, Histoire des Rois d'Alger, Trd : H.D.Grammont, Alger, 1881, p.33.

[4] -(A). Berbrugger, la mort du Fondateur de la régence d'Alger, R.A, N° 4, 1860, p.26.

[5]-Ibid, p.31.

[6] -Ibid, p.32.

[7]-ذكر هايدو أنّ عروجا قُتل في سن أربعة وأربعين سنة، وكان ذا لحية حمراء وعينيه تنبع منهما الحيوية والهيبة، أنفه معقوف، أسمر البشرة، شجاع لا يعرف الخوف، يحترمه جنوده، وقد بكوا كثيرا لمقتلة، انظر دييغو هايدو، ص360.

وبقي وفيا لحلفائه الإسبان، يدفع ضريبة سنوية لهم مقابل الحماية وكان للقبائل الوهرانية دورٌ كبيرٌ في ترجيح الكفّة لصالح الإسبان وحليفهم أبي حمو الثالث، الذي بقي على العرش حتى سنة 1528م تاريخ وفاته.

ب-سقوط الدولة الزيانية 1553م:

بدأت مرحلة جديدة من تاريخ دولة بني زيان، وهذه المرة تضاعفت قوة القبائل الوهرانية على حساب قوة السلطةِ القائمةِ، ودخلت في خضم الصراع الثلاثي (الأتراك، الأسبان، الزيانيون)؛ وأصبح شيوخ القبائل يتدخلون بقوة في شؤون الحكم. يقول مولاي بلحميسي عن قائد بني راشد المنصور بن بوغانم: "كان لمنصور بن بوغانم باع طويل وجاه مرموق بفضل مصاهرته لأحد ملوك بني زيان، حتى كان يتصرف في شؤون الدولة ويتفاوض بإسمها ويناصر حزبا على الآخر ويُعيّن ويُعزِل"[1]. ينطبق نفس الوصف على شيخ قبيلة بني عامر عبد الرحمن بن رضوان، كان جدّ أحد أمراء بني زيان من أمه المولاي أبو عبد الله، أقنع حفيده الشاب بطلب الحماية من الإسبان[2]. مع وصول الدون مارتين الكونت دالكوديت إلى وهران وتسميته من قبل الملك الاسباني شارلكان قائدا عاما على وهران والمرسى الكبير ومملكتي تلمسان وتنس في الرابع من جوان سنة 1534. طلب عبد الرحمن بن رضوان حلفا وثيقا مع الاسبانيين واقترح أن يضع تحت تصرف الأسبان ثلاثمائة فارسا من أولاد مْطَفر، ومائتي فارس من أولاد موسى، ومائتي فارس من أولاد منصور[3]. وبالفعل تُوّج الاتفاق بين عبد الرحمن بن رضوان المفاوض نيابة عن الملك الزياني، ونتج عن هذا الاتفاق بأن اقترح شارلكان على سلطان تلمسان أبو عبد الله أموالا تكفيه لخوض حرب برية ضد خير الدين بربروس بمدينة الجزائر[4].

إن فترة تولي الكونت دالكوديت قائدا عاما لوهران (1534-1558م) كانت أكثر شراسة على الجزائريين، فقد ارتفعت وتيرة الحملات الاسبانية على تلمسان وضواحيها، فضلا عن حملات الأتراك العثمانيين وزاد نفوذ رؤساء القبائل وتحالفهم سواء مع الأتراك أو مع غريم الأتراك الإسبان؛ لكن لِمّ كان كل سلاطين بني زيان موالين للأسبان في هذه الفترة؟؛ بل لعبوا على وتر ربح الوقت والتحالف مع الآخر.

---

[1] -مولاي بلحميسي، المرجع السابق، مجلة الأصالة، ص 34

[2] --(P). Ruff, Op. Cit, p.36.

[3] -(Ch). de la Veronne, Op. Cit, p.p.98.99

[4] -بن عتو بلبراوات، **سلاطين مملكة تلمسان الزيانية في مواجهة الإخوة بربروس (1517-1546م)**، عصور الجديدة، العدد 2، جامعة وهران، 2011م، ص 227.

المتتبّع للوضع الزياني يرى أنّ أمراء بني زيان توالوا الحكم في فترة زمنية قياسية إلى درجة أنّه في سنة واحدة جلس على كرسي العرش أكثر من ملك، ذكر أحمد التوفيق المدني أنّه بعد مقتل عروج سنة 1517م تولى الحكم أكثر من أميرين، يقول :"... الملك أبو سرحان المنصور قد خلع سلطة أبي زيان ونصّب نفسه ملكا على ذلك العرش الذي كان من ذهب، فأصبح من قصب، ثم خان العهد...؛ لكن شقيقه عبد الله ثار عليه وطلب النجدة من العثمانيين"[1]. في سنة 1535م أعدّ الإسبان حملة على تلمسان، وقد استغل الكونت التنافس بين أمراء بني زيان، وقد سميت هذه الحملة " بوقعة شعبة اللحم"[2]، وذكر جاكيتون (Jacqueton) أنّ المعركة كانت مُميتة خلّفت عدد كثير من القتلى بكلا الجانبين[3]. ذكر مارمول كربخال أنّ الكونت أعدّ جيشا قوامه تسعة آلاف راجل وأربعمائة فارس[4]، وكانت هذه الحملة موجّهة ضد مولاي أحمد الذي تلقى الدّعم من خير الدين بربروس، وأعاد مولاي عبد الله إلى عرشه[5].

إنّ نتيجة هذه الحملة دخول الإسبان لتلمسان برفقة مولاي أبو عبد الله الملك اللاجئ في وهران والمتحالف معهم، وهروب مولاي أحمد حليف الأتراك، وأقرّت المصادر الاسبانية أنّ المحتلين نهبوا المدينة من أقصاها إلى أقصاها وهم يقتلون ويأسرون كل من صادفوه فيها[6] . مكث الكونت في المدينة أربعين يوما ثم قفل راجعا برفقة جنوده لوهران تاركا مولاي أبو عبد الله على رأس تلمسان.

نظّم الإسبان حملة أخرى سنة 1543م ضد المدينة، وقد حصل الكونت على مدد جديد من مدينة قرطاجنة الاسبانية، الواقعة في الساحل الجنوبي من اسبانيا، جمع الكونت دالكوديت نحو 11775 جنديا إضافة إلى 1425 من الفرسان حسب تقديرات بول روف[7]. وفي طريقه إلى تلمسان تلقى الدّعم من حلفائه بني عامر ، وكانت المفاوضات بينهم وبين بني عامر تتمحور على دعم الإسبان في حملتهم وتزويدهم بالمؤَنْ اللازمة للحملة، يقول بول روف:" دخل ألنسو ابن الكونت في مفاوضات مع شيوخ القبائل العربية، من أولاد موسى وأولاد عبد

[1]-أحمد التوفيق المدني، **تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين (1530-1550م)**، الأصالة، العدد: 26، الجزائر، 1976، ص43.

[2]-شَعْبَة اللّحَمْ: قرية متواجدة حاليا في ولاية عين تموشنت في الجنوب الغربي من مدينة وهران.

[3] -(G). Jacqueton, l’Expédition d’A. Martin de Angulo contre Tlemcen, R.A , N° 36, p.149.

[4]-مرمول كربخال، المصدر السابق، ص314.

[5] -(G). Jacqueton, Op.Cit, p.151.

[6]--مرمول كربخال، المصدر السابق، ص314.

[7]-(P). Ruff, Op. Cit, p.94.

الله من بني عامر، واتّفقوا على أن يزود الشيخ غيْرف قائد منطقة تسالة الحملة بالجمال والحيوانات مقابل المال وملابس النسيج"[1].

تعرّضت وهران إلى نقص حاد في المواد التموينية خاصة الحبوب؛ لأنّ السلطان الزياني ألغى المعاهدة السابقة بين الإسبان وتلمسان، وقد أمر السلطان قائد قبيلة بني راشد المنصور بن بوغانم أنّ يكُفّ عن تزويد الإسبان بالقمح والشعير[2]. وبإلغاء المعاهدة المبرمة بين تلمسان والأسبان كان سبباً وجيهاً في تنظيم الكونت دالكوديت الحملة، وجاءت هذه الحملة بعد سنتين من كارثة مدينة الجزائر التي تعرّض فيها أسطول الملك الإسباني شارلكان للتدمير الكُلّي سنة 1541م، فأراد الكونت أن يُعيد الاعتبار ويُعلن الحرب على تلمسان حليف خير الدين بربروس[3].

قبل ذلك تحصّل الأتراك العثمانيون على معلومات قيّمة حول المرسى الكبير وكان جندي اسباني فارٌ من الجندية بوهران قد قدّمها لهم، واثر هذه المعلومات حاول حسن أغا أن يسيطر على المرسى الكبير، لكن محاولتهم اكتشفها الإسبان وصدّوها[4].

جمع الكونت جيشا قوامه أربعة عشر ألف مقاتل، إضافة إلى هذا الجيش شارك في الحملة احميدة العبد أمير تْنس وشيخ بني عامر عبد الرحمن بن رضوان وشيخ قبيلة أولاد خالفة[5]. كان الجيش الإسباني مسلح تسليحا جيدا بحاملي الرّماح والنّشاب والفرسان، وذكر مرمول أنّ سلاح المدفعية تكوّن من عشر قطع من المدفعية[6].

خيّم الجيش في مزرعة قرب مسرغين وفي اليوم التالي واصل مسيره إلى تلمسان لمعاقبة ملكها الذي امتنع عن دفع الضرائب السنوية، وقبل ذلك تعرّض الملك الزياني إلى ضغط رهيب من حسن أغا خليفة خير الدين بربروس، الذي قاد حملة إلى تلمسان لتأديب الملك الزياني المتعاون مع الإسبان. دخل الإسبان المدينة؛ حيث ذكر محمد بن يوسف الزياني أنّهم مكثوا في المدينة بعد دخولها عنوة ثلاثة عشر يوما، انتهكوا حرمة الجامع الأعظم بأن جعلوه

---

[1]-(P). Ruff, Op. Cit, p.94.

[2]-عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص236.

[3]-خير الدين بربروس: هو أخو عروج بربروس الذي قتل كما أسلفنا قرب تلمسان، وقد خلفه على رأس إمارتهم الناشئة في مدينة الجزائر، وذكر خير الدين بربروس في مذكراته أنّه كان من جزيرة مدللّي، وقد أنجب أبوهم أربع أخوة أكبرهم إسحاق، ويأتي خير الدين ثالثا بعد إسحاق وعروج على التوالي. توفي حوالي 1546م الموافق 953هـ عن عمر يناهز 63 عاما . أنظر أكثر تفاصيل : مذكرات خير الدين بربروس: تعريب محمد دراج.

[4]-(P). Ruff, Op. Cit, p.90.

[5] -(L). Guin, quelque Notice sur entreprise des Espagnols, pendant la première Occupation d'Oran, R.A, N° 30, 1886, p.318.

[6]--مرمول كربخال، المصدر السابق، ص 316.

إسطبلا لدوابهم، وهذا ما أكّده بول روف بقوله:" في صباح يوم الثلاثاء من السادس فيفري عام 1543م دخل الكونت مدينة تلمسان فوجد المدينة خالية من سكانها، وأمر جنوده بأن يجمعوا القمح، والشّعير، والزيت...الخ"[1]، وذكر أيضا أنّ الجنود الإسبان نهبوا المدينة وقتلوا كل من وجدوه فيها حتى أصبحت خرابا[2] وهذا ما أكّده مرمول كربخال هول المشهد في المدينة :"دخلوا المدينة فنهبوها من أقصاها إلى أقصاها، وهم يأسرون كل من صادفوه فيها"[3].

ألقى الإسبان القبض على ألفي شخص من سكان المدينة ومن ضمنهم يهود المدينة، ودنّسوا الجامع الأعظم بالمدينة، ودنّسوا الكتب المقدسة للمسلمين ومزّقوها ورموها في الجداول المحيطة بالمدينة حسب ذكر بول روف[4]. كل هذا حدث أمام عيني مولاي عبد الله الملك الحليف للإسبان، والذي لم يُحرّك ساكنا؛ بل رُفعت له شكوى من أعيان المدينة في مقر إقامته بالمشور ولم يُحرّك ساكنا.

لم ينعم الإسبان أثناء مكوثهم في المدينة؛ بل واجهوا مقاومة عنيدة من سكان المدينة رغم خروجهم لمقارعة أعدائهم وطردهم، وفي السادس والعشرين من شهر فيفري طلب الكونت من الملك الزياني عقد معاهدة تنصّ على دفع ضريبة سنوية تقدّر بأربعة آلاف دوبلا والتبرّع بمجموعة من الخيول الملجّمة والصقور[5].

قفل الكونت راجعا إلى وهران في يوم الثامن من نفس الشهر حاملا معه أربعة من سلاح المدفعية تعود للحملة الفاشلة على المدينة سنة 1535م، والتي استولى عليها التلمسانيون، ومعه الغنائم وطابور طويل من الأسرى؛ لكن جيشه تعرّض لهجمات منظّمة من القبائل التي مرّ بأراضيها، فاقترح ضبّاط الكونت دالكوديت ذبح جميع الأسرى وإشعال النيران في الغنائم لكي لا يعوقوا تحرّكه للوصول إلى وهران[6].

إنّ حصيلة القتلى الإسبان في هذه الحملة حسب ما ذكر مرمول أكثر من ألف جندي، ويضيف أنّ الكونت خرج من المدينة ليس كما دخلها، لأنّه تعرّض لهجمات القبائل التي بلغ حسب تقديره أكثر من مائة ألف من المقاتلين[7]. هذا العدد من المقاتلين بالغ فيه مرمول مقارنة بالكثافة الديمغرافية للقبائل المنقسمين ين مؤيد

---

[1]-(P). Ruff, Op. Cit, p.107.
[2]-Ibid , p.107.

[3]-مرمول كربخال، المصدر السابق، ص314

[4]-(P). Ruff, Op. Cit, p.108
[5]Ibid, p.109.
[6]-Ibid, p.111.

[7]--مرمول كربخال، المصدر السابق، ص315.

للإسبانيين ومعارض لهم، وتعرض السكان للأوبئة والحروب، ولا يمكن للملك الزياني المخلوع أحمد أبا زيان من أن يحشد هذا الجيش الضّخم؛ لأنّه لم يكن يسيطر إلاّ على مدينة تلمسان وأحوازها.

وصل الكونت إلى مدينة وهران مُرهقا وبشقّ الأنفس وفُتحت له أبواب المدينة واسْتُقْبِلَ بإبتهاج كبير، وبعد أربعين يوما بمكوثه بتلمسان حسب مرمول[1]. وهذا عكس ما ذكره محمد بن يوسف الزياني كما ذكرنا سالفا أنّه مكث ثلاثة عشر يوما، ورواية مرمول أصحُ الروايتين؛ لأنّ مدة (13) يوم قصيرة جدا مقارنة باحتلال المدينة وتثبيت أبو عبد الله ملك عليها، وتأمين المدينة من هجمات مناصري الملك الهارب احمد أبو زيان .

بقيت الأمور في مملكة تلمسان في حالة اللاأمن، فقد بقي الصراع على العرش بين الأمراء في المستوى الذي بدأ به؛ حيث الصراع الاسباني العثماني في أوجّه ودخول السعديين من المغرب الأقصى في خط الصراع منذ سنة 1547م[2]. وأصبحت مملكة بني زيان مشكلة كبيرة؛ فأصبح الأمر حتمي لإسقاط المملكة ووضع حامية تركية في المدينة من جنود الأتراك، وإلحاق تلمسان بالإدارة التركية العثمانية بالجزائر. إنّ القطرة التي أفاضت الكأس هو أطماع السلطان الشريف محمد المهدي مؤسس دولة السعديين باحتلال المدينة وإلحاقها بمملكته[3].

احتلت القوات السعدية تلمسان وكان على رأس تلمسان أحد أمراء بني زيان يقول بول روف حول تململ سكان المدينة من السلطان الزياني الجديد، وكيف راسل أعيان المدينة السلطان السعدي للتدخل:" كان سكان المدينة ساخطون على حكومتهم التي كان على رأسها الأمير الجديد مولاي الحسن بن عبد الله أخو السلطان المتوفي مولاي أحمد، والذي كان مدعوما من الأتراك؛ وقد ضجر من الأتراك، واتّصل بإسبان وهران لتجديد معاهدة التحالف السابقة"[4].

لم يكتف السعديون باحتلال مدينة تلمسان ووضع فيها حامية بقيادة ابن السلطان السعدي الأصغر مولاي عبد الله؛ بل تعدّوا ذلك للتوسع خارج المدينة وإخضاع إقليم قبيلة بني عامر والتوجه شرقا ناحية مدينة مستغانم للسيطرة بقيادة ابن الشريف السعدي البكر، هذا التحرّك أغضب الأتراك حسب قول دي غرامون[5] . ودارت معركة دامية بين الأتراك والقبائل الجزائرية المتحالفة معهم والسعديين قرب الواد المالح (عين تموشنت) في الطريق الرابط بين مدينتي وهران وتلمسان، وانهزم المغاربة شرّ هزيمة وقُتِلَ قائدهم، ولاحقهم الأتراك العثمانيون حتى نهر

[1]- مرمول كربخال، المصدر السابق ،المصدر السابق، ص 315.

[2]-(P). Ruff, Op. Cit, p.139.

[3]-أحمد التوفيق المدني، تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين،... مرجع السابق، ص 44.

[4]-(P). Ruff, Op. Cit, p.142.

[5] -(H-D). de Gramont, Op. Cit, p.76.

ملوية، بعد الهزيمة انسحب مولاي عبد الله السعدي من مدينة تلمسان بعد حملة حسن قورصو، وترك فيها حامية من الأوجاق الأتراك نحو خمسمائة شخص بقيادة القائد صافا[1].

بعد وضع الحامية التركية في مدينة تلمسان سنة 1551م عمل صالح رايس خليفة حسن بن خير الدين على القضاء النهائي على الدولة الزيانية، وبالفعل أنهى الحكم الزياني على تلمسان سنة 1554م[2]، وفرّ آخر سلاطين بني زيان إلى وهران، يقول بول روف عنه: "بعد دخول المغاربة لتلمسان دون مقاومة تُذكر، فرّ الملك الزياني مولاي الحسن إلى وهران، وبعد بضع سنين مات بالطاعون الذي ضرب المدينة، وأنّ وابنه وولي عهده اعتنق المسيحية وسمي بكارلوس، وانتقل إلى اسبانيا واستقبله الملك الأسباني فليب الثاني"[3]. والراجح أنّ مولاي الحسن مات بالطاعون الذي ضرب مدينة وهران سنة 1556م.

انتهى حكم بني عبد الواد والذي دام نحو ثلاثة قرون (1235م-1554م)، وانتهى حكما محليا لدولة حملت في طياتها بذور السقوط لما عاشته من صراع بين أفراد الأسرة الحاكمة وتمرد القبائل والتدخل الخارجي الذي انتهى في القرن السادس عشر على أيدي الأتراك العثمانيين والأسبان.

[1] -(H-D). de Gramont, Op. Cit, p.76

[2] -محمد دادة، **تلمسان في دوامة الصراع الثلاثي بين الأسبان والعثمانيين والمغاربة في القرن 16م**، عصور الجديد، المرجع السابق، ص198.

[3] -(P). Ruff, Op. Cit, p.143.

الفصل الثاني

احتلال وهران والمرسى الكبير وزيادة نفوذ الإسبان

في هذا الفصل نحاول أن نفهم طبيعة الاحتلال الاسباني للمنطقة، والبحث في حيثيات احتلال وهران والمرسى الكبير، وأسبابه، وموقف الجزائريين من هذا الاحتلال، ومحاولة فهم العلاقة المتميّزة بين شيوخ القبائل والنظر الى الدوافع وتحالفهم مع الإسبان، وإبراز موقف المغاربة من الاحتلال الاسباني والوجود العثماني في المنطقة، وإنهاء وجود الدولة الزيانية إلى الأبد.

1-تجهيز الحملة العسكرية الاسبانية واحتلال المرسى الكبير ووهران:

منذ سقوط غرناطة سنة 1492م ونهاية الدولة الإسلامية بالأندلس والإسبان يُكثّفون غاراتهم على السواحل المغاربية، وكان مشروع الاحتلال والغزو لمدن الساحل المغاربي والجزائري خاصة مُخطّطاً له بدقّة.

تولى الكاردينال خمينيث(Jiménez) مخطّط غزو وهران والمرسى الكبير، وهو أسقف مدينة طُلَيْطلة الاسبانية (Tolède)[1]. وقد وصفت ملامحه الباحثة الفرنسية نيلي بلوم (Blum) بأنّه طويل القامة، وذو ملامح حادة مستوية، له عينان داخلتان؛ لكنّهما تنبعان بالحياة والنشاط، وتحملان نظرة ثاقبة، لكنّه متزمّت ومتعصّب، ويَنعمٌ بالهدوء ومليء بالحيوية، جبهتهَ بدون تجاعيد، تضيء من تحت شعره مثل تسريحة شَعْرِ الرّهبان الكاثوليك[2]. وتضيف الباحثة نفسها أنّ لديه وجها مستطيلا، وذقنا حادا، وأذنين صغيرتين، وأسنان فكه الأسفل ملتصقة ببعضها البعض مع أنياب بارزة، ووجنتين بارزتين[3].

اقترنت شخصية الكاردينال خيمنيث المثير للجدل باحتلال وهران والمرسى الكبير على المستوى المحلي الجزائري، فقد كان أشدّ المتحمسين لاحتلال الساحل الإفريقي، وهو ينتمي إلى أسقفية طُليطلة المعروفة بعدائها للعرب المسلمين في الأندلس وفي المغرب، وذلك منذ النشرية البابوية التي أصدرها البابا أنوريوس الثالث (Honorius) في 15 ماي 1219م، الذي دعا فيها أسقفية طُليطلة إلى الحرب الموقدة ضد العرب المسلمين[4].

بدأت اسبانيا مشروعها الاحتلالي لوهران والمرسى الكبير بالجاسوسية، لمعرفة نقاط قوة الخصم وضعفه، وبفضل أعمال التجسّس أمكن الأمر للإسبان معرفة جيدة لهشاشة الدفاعات في وهران والسواحل الأخرى.

---

[1] -(J). Cazenave, les gouverneurs d’Oran pendant l’occupation de cette Ville (1509- 1792), R.A, N° 71, 1930, p.257.
[2] -(N). Blum, la Croisade de Ximénès en Algérie, Imprimerie Typographie et lithologie la Fouque, Oran, 1898, p.I.
[3]-Ibid, p. I.
[4] -Ibid, p.1

وتذكر إحدى الوثائق الاسبانية أنّ أحد الجواسيس توجه من وهران إلى مدينة تلمسان ومكث فيها، ثمّ قدّم تقريرا مفصّلا عن أحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية[1]. وذلك في أفريل سنة 1494م.

كتب فرناندو ثافرا (Fernando Zafara) وهو مستشار الملك الاسباني فرناندو الكاثوليكي يصف حال المملكة الزيانية قائلا: "إنّ البلاد مهيأةٌ؛ وكأنّ الله أراد أن يَهبَها لجلالتكم"[2]. يعني هذا أنّ كل بلاد المغرب كانت تعيش في حالة ضعف شديد ومهيأة للاحتلال الأجنبي، وبناء على هذا التقرير، وبدون تردّد بدأ الإسبان التفكير بالتوسع في سواحل بلاد المغرب[3] .

كانت هناك مخطّطات عديدة لاحتلال وهران والمرسى الكبير؛ لكنّ خمينيث ثيسنيروس اعتمد على مخطّط التاجر البندقي فيانيلي (Vianilli)؛ حيث كانت له خبرة واسعة في التجارة ورسم الخرائط بدقة، ومعروف اسمه في موانئ بلاد المغرب وخاصة ميناء وهران، يقول كامي لينيار(Camille. L) : "فيانيلي تاجر من البُندقية معروف في شمال إفريقيا، وله تجارة رائجة في موانئها، وهو مهندس، وضع مخطّطا لمدن وموانئ وَحَدَّدَ نقاط القوة والضعف في سواحل بلاد المغرب. إنّ هذه المعلولات القيّمة التي وضعها في يد الكاردينال خمنيث ثيسنيروس عجّلت في تسريع مشروع الاحتلال، رغم العوائق التي واجهته"[4]. وصفته نيلي بلوم بأنّه كان تاجرا ناجحا وملاّحا ماهرا يَعْرِفُ البحار والجغرافيا جيدا، وكان دبلوماسيا، ومجوهراتي، يُعْرَفُ عنهُ المِكْرُّ مِثْلُه مثلَ البَنَادِقَة، وهو مغامر وشجاع كَمَلَّاحِيْ عَصْرِهِ[5].

التقى لأول مرة الكاردينال خيمنيث والتاجر البندقي فيانيلي بعد عودته من إفريقيا، وعرض عليه عمله التجسّسي، وهو يعلم أنّ الملكة ايزابيلا (Isabelle)تحبُ الأحجار الكريمة، وخاصة الكبيرة منها، لذا عرض عليها صليب ذهبيا مُرَصَّعا بالأحجار الكريمة، يبرق منها عقيق أحمر بمبلغ خيالي[6]. ثمّ عرض عليها ألماسّة جميلة بمبلغ 5000 ايكوس ذهبي(écus d'Or)[7] كان ذلك سنة 1504م، واعتبرها فيانللي صفقة مربحة أسالت لعابه،

[1]-مختار حساني، ...مرجع سابق، ج1، ص60.

[2] -(F). Braudel, les Espagnols et l'Afrique du Nord, R.A, N°69, 1928, p.211.

[3] -Ibid, p.212.

[4] - (L). Camille, **la prise d'Oran par le Cardinal Cisneros**, mémoire de l'Académie de Nimes, N°7, Nimes, 1974-1975,-1976, p.242.

[5]-(N). Blum, Op.Cit, p.4

[6] –Ibid, p.4.

[7] -Ibid, p.4

كانت كافية ليقبل التعاون مع الكاردينال خمينيث بدون تردّد؛ لكن في النهاية ما هي إلاّ طبيعة لعمل رائج في القرن السادس عشر للميلاد، ككل البحّارة والتُجّار الأوربيين.

اقتنع الأسقف ثيسنيروس بالمعلومات التي قدّمها جيروم فيانيلي، وكانت غاية في الدّقة، وقد أقنعه بأهمية وهران والمرسى الكبير، ولضمان ذلك بشكل جيّد وضع خريطة لكل ساحل الجزائري، ومجسّم من الشمع يحاكي مدينة وهران والمرسى الكبير[1].

لقد تعدّدت الأسباب الحقيقية لاحتلال وهران؛ لكن الحملة الإسبانية رفعت الصليب في كل من وهران والمرسى الكبير، دلالة على حرب دينية ضد الإسلام والمسلمين، وهنا نبيّن أسباب احتلال وهران والمرسى الكبير:

أ–السبب الديني:

من المتعارف عليه بين المؤرخين أنّ الكنيسة الكاثوليكية حملت لواء الحرب الصليبية ضد المسلمين، فما كان سقوط غرناطة بيد الاسبانيين سنة 1492م إلاّ بداية لحرب امتدّت رحاها لقرون متلاحقة. فكانت أسقفية طليطلة ترفع الصليب في الحروب ضد المسلمين بقيادة الأسقف ثيسنيروس. كتب ايفل(Hefele) قائلا:"بعد انتصارات الجيش الاسباني في حملاته ضد ايطاليا وعودة القائد العام إلى اسبانيا ونشوة الانتصار بادية عليه اجتمع مع الملك الاسباني فرديناند ونصحه بأن يحتل أماكن على الساحل الإفريقي الشمالي"[2]. وذكر كذلك أنّ ثيسنيروس كان يقول:" بصفتي أسقفاً أتمنى أن أشاهد الصليب مغروساً في ذلك الجانب، أو كنيسة بها أزهار"[3].

عندما دخل الكاردينال ثيسنيروس مدينة وهران محتلا حوّل مساجد المدينة إلى كنائس، يقول احمد التوفيق المدني في هذا الصدد:"إنّ الكاردينال المنتصر بادر إلى تحويل مساجد وهران إلى كنائس؛ فأصبح المسجد الأعظم كاتدرائية، واحتفظ لنفسه بأعلام المسلمين وراياتهم، وأسلحة ثمينة وكُتب نفيسة، ومِصْباح المسجد الأعظم، وهي كلها محفوظة الآن في مكتبة جامعة مدريد"[4].

[1] -(E). de la Primaudaie, le commerce et la Navigation de l'Algérie, Alain Spenato, Paris, 1860, p.246

[2]-(J). Helefe, le Cardinal Ximenès et l'Eglise d'Espagne, Lyon, 1856, p.319.

[3] -Ibid, p.319.

[4]–أحمد التوفيق المدني، المرجع السابق، ص112.

لا ننسى أنّ هذه الحملة الصليبية الجديدة بقيادة اسبانيا كانت بمباركة البابا في روما، الذي أصدر نشريته التي دعا فيها أسقفية طليطلة لإعلان الحرب ضد الكفار حسب قوله؛ لأنّ أسقفية طُليطلة لها سمعة حربية معروفة في أواسط المسيحيين منذ القرن 13م[1].

تطلعت الملكة ايزابيلا الكاثوليكية لاحتلال سواحل المغرب بروح صليبية متعصبة، عبّرت عنها في وصيتها دعت ابنتها وكل المسيحيين إلى محاربة الدين الإسلامي حتى في سواحل المغرب الإسلامي؛ حيث قالت: " أدعوا الله لابنتي الأميرة والأمير ابن زوجي، وكل الأمراء الكاثوليكيين الذين يتملّكهم القلق من الأشياء التي تتعلّق بالله والأَيْمَانْ المقدّسة، يجب عليهم القتال بلا هوادة للاستيلاء على إفريقيا والكفاح من اجل الدين ضد الكفّار"[2].

بدأ حلف صليبي جديد يتكون من ثلاث ممالِيك: اسبانيا؛ البرتغال؛ انجلترا برعاية وتنسيق من خيمنيث، وكان هدف هذه الرابطة تحرير الأراضي المقدسة في فلسطين. ذكر ايفل أنّ الملك البرتغالي ايمانويل (Emmanuel) بعث برسالة إلى الأسقف يأمل فيها أن تتحقّق رغبة الراهب خيمنيث باحتلال الأراضي المقدّسة واجتثاث الدين المحمدي، ويتمنى أن يتحقّق حلمه[3].

كانت حملة صليبية تزعمتها أسقفية طُليطلة بتكليف من الملك فرديناند والملكة ايزابيلا قبل وفاتها، وبمباركة بابوية؛ لكن هناك عوامل أخرى تضاهي السبب الديني للاحتلال.

ب-السبب الاقتصادي والسياسي:

كان التنافس الاسباني البرتغالي في أوجّه للبحث عن مراكز تجارية في إفريقيا وقواعد بحرية لتأميم التجارة، والاستفادة من الموارد الطبيعية في بلاد المغرب. فاسبانيا تعرّضت لانهيار اقتصادي كبير بعد طرد المسلمين واليهود منها على يدّ الإسبان الذين كانوا يشكّلون العمود الفقري لاقتصاد بلاد الأندلس[4].

إنّ ضعف القوى السياسية في الجزائر سواء الدولة الزيانية أو الإمارات وسلطة القبائل، شجّع الإسبان على احتلال سواحل الجزائر التي تزخر بموارد اقتصادية وطبيعية كبيرة، فوهران كانت مركزا مهمّا للتّجار الايطاليين الذين استفادوا بشكل كبير بالتجارة مع المغاربة؛ رغم تحريم البابوية التجارة مع المسلمين وتزويدهم كل ما يمكن أن

1-Nelly Blum, Op.Cit, p.I
2 -Ibid, p.6
3-(J). Helfe, Op.Cit, p.304.

4-عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص32.

يساهم في تسليحهم أو غناهم[1]، وقد احتكر تجار البندقية وجنوة تجارة الرقيق والذهب العابر للصحراء مرورا بمدينة تلمسان عبر موانئ المرسى الكبير ووهران وهُنين، ووصل التُّجار الجنويون إلى الصحراء في محاولة قام بها الأخوة فيفالدي(Vivaldi) سنة 1350م[2].

كانت المبادلات التجارية مُزدهرة جدّا بين دول المغرب وأوربا خاصة مع المدن الايطالية، فكانت أوربا تصدّر المعادن (الحديد، الفولاذ، القصدير)، والمجوهرات، والأسلحة، والنقود، والزجاج والخشب، والورق، والملابس الجاهزة، والعطور...[3]، أمّا المواد التي تصدّرها دول المغرب إلى أوربا فهي: الجلود، والرقيق، والأحصنة، والقطن، والصوف، والحبوب (الشعير والقمح)، والفواكه (الزبيب والتمور)، ومادة الشمع، والكتّان، والأقمشة...[4].

أمام هذا الوضع لم تجد اسبانيا والبرتغال سبيلا آخر غير احتلال مدن سواحل المغرب، واحتدام التنافس الاستعماري بينهما بصفتهما يمثّلان القوى الاستعمارية التقليدية في العهد الحديث، وهنا بدأ الحديث عن الذهب باعتباره منتوجا إفريقيا. للوصول إليه يجب احتلال سواحل المغرب، ووهران كانت قاعدة وصول القوافل التجارية المحمّلة بالذّهب والرقيق، يقول بيار فيلار (Vilar): " إنسان القرن الخامس عشر مثله مثل الذهنيات السائدة في العصور الوسطى فإنّ الذهب هو منتوج إفريقي خالص، إفريقيا بعيدة جدا؛ لكن يمكن الوصول إليها عبر الاتصال بمصر وبلاد المغرب"[5].

الذهب هو المحرّك الأساسي للتجارة العالمية في القرن السادس عشر وقبله وما بعده، فالسيطرة على مصادر الذهب يعني الثروة، فكانت السفن التجارية الاسبانية ومعها السفن البرتغالية تجوب البحار والمحيطات محمّلة بذهب أمريكا الجنوبية وإفريقيا وهذا ما جعل اسبانيا مركزا مالياً عالمياً مهمّا.

حدّد المستكشف والبحّار الايطالي الأصل كريستوف كولومب (Colomb) في خريطة وضعها بين (1488-1492م) وجود موارد الذّهب بدقّة، وبالضّبط في شرق تشاد[6]، على اثر الذهب أصبحت دول افريقية ثرية مثل السنغال والسودان ومالي وتمبوكتو.

[1] -أحمد بوشرب، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، ط1، دار الأمان، الرباط، 1997، ص08.
[2] -(P). Vilar, Or et Monnaie dans l'Histoire, 1420-1920, Paris, 1974, p.59.
[3] -(J). Oliel, les Juifs au Sahara le Touat au moyen Age, CNRS, Paris, 1994, p. 68.
[4] -Ibid, p.68
[5] -(P). Vilar, Op.Cit, p.57.
[6] -Ibid, p.58.

ولحماية سفنها التجارية وتأمين التجارة العابرة للبحر المتوسط لجأ الأسبان لاحتلال سواحل المغرب من مدينة سلا غربا إلى طرابلس شرقا مرورا بمدينة وهران والمرسى الكبير؛ لأنّ بعض السفن التجارية لا تستطيع الغوص والإبحار في أعالي البحار، فتلجأ إلى السواحل، يقول فرنان بروديل في هذا الصّدد: " البحر قبل أن يكون واسطة أو صلة، كان عائقا بوجه الملاحة التي كانت حذرة ولا تبحر بواخرها إلاّ بمحاذاة السواحل بين نقاط مرئية في وضح النّهار، هذا النوع من الملاحة شكّل في أزمنة طويلة الوجه الغالب من نشاطات النقل البحري المتوسطي"[1]، ويؤكّد بروديل أنّه حتى القرن السادس عشر الحركة في البحر المتوسط لم تكن إلاّ قرب السواحل، وأنّ الأساطيل الحربية ما كانت تقوم بمعاركها البحرية إلاّ على مسافة تُتيح للعين رؤيتها على الشاطئ[2].

ج-أسباب عسكرية:

إنّ تنامي القوة العسكرية الاسبانية وتطور أساطيلها وزيادة القوة العسكرية بدأت اسبانيا البحث عن أراضي جديدة لاحتلالها في الشمال الإفريقي، والطموح الذي وصل إليه شارلكان لخير دليل، فقد اعتبر نفسه سيّد العالم مكلّف بمهمة ربّانية بتكليف من الكنيسة التي تربّى في أحضانها[3].

رفع الإسبان شعار القضاء على القرصنة الجزائرية فهي احد الأسباب لاحتلال سواحل الجزائر إضافة إلى تتبّع مهاجري الأندلس الذين طُردوا من الأندلس خوفا من معاودة الكرة للهجوم على الأسبان .

2- احتلال المرسى الكبير سنة 1505م:

بدأت اسبانيا تبحث عن ذريعة لاحتلال المرسى الكبير وهران، بعد أن وافق الملك فرديناند الكاثوليكي على سياسة التوسع في شمال إفريقيا (المغرب الإسلامي). فكان هجوم سفن تعود لبحارة من وهران على السواحل الاسبانية سببا مباشرا لاحتلال المرسى الكبير، وقد ذكر الجنرال ديديي(Didier) أنّ الحادثة وقعت سنة 1505م، يقول:"إنّ قراصنة من وهران يقودون اثنا عشر سفينة شراعية من نوع (Brigante) وفرقاطات صنعها أسرى برتغاليين، أغاروا على ضواحي أليكانت وأخذوا معهم أسرى"[4]. وفي حدث آخر منفصل ذكر

[1]-فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي، تعريب وإيجاز: مروان أبي سمرا، ط1، دار المنتخب، بيروت، 1993، ص35.

[2]-المرجع نفسه، ص35.

[3]-نجيب دكاني، **الاحتلال الاسباني للسواحل الجزائرية وردود الفعل الجزائرية خلال القرن العاشر هجري، القرن السادس عشر ميلادي**، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، (2001-2002م)، ص19.

[4] -(L). Didier, Histoire d’Oran (Période de 1505-1550), Imprimerie Jeanne, Oran, p.78.

ديديي أنّ ستة سفن لقراصنة من وهران أغاروا على ميناء مالقة، وأحرقوا سفن تجارية مملوكة لتجّار إسبان وفلا مند وانجليز[1].

إنّ هذا الحادث وحوادث أخرى على السواحل الاسبانية تركت تذمّرا في الأوساط السياسية الاسبانية، فتعالت أصوات تطالب لوضع حد لهؤلاء القراصنة وعلى رأسهم الأسقف ثيسنيروس. رفع العاهل الاسباني شعار " تخريب وكر القرصنة" لوضع حد للهجمات التي تطال سواحلهم وكذلك الأسطول التجاري الاسباني، يقول المنور مروش: " الإسبان كان لهم نعتان مختلفان فهم يتحدّثون عن القرصنة المغاربية في البحر المتوسط وعن لصوصية البحر الفرنسية والانجليزية والهولندية في المحيط الأطلسي"[2].

بدأت الحملة الاسبانية على المرسى الكبير بأسطول ضخم يقوده دون دييغو فرنانديث دي قرطبة (Don Diego Fernandez de Cordova)، ويتحدّث عن هذه الحملة دي غرامون قائلا: " أنّ القيادة العامة للجيش لدون دييغو فرنانديث دي قرطبة وتحت أمره جيش تعداده عشرة آلاف جندي وعلى رأس الأسطول البحري دون رامون دي كورونا (Don Ramon de Corona)، ويتكوّن هذا الأسطول من ست قطع من نوع فرقاطة ومائة وأربعين سفينة من مختلف الأحجام"[3].

تجمّعت الأرمادة الاسبانية المتوجّهة إلى المرسى الكبير بقرب من مدينة مالقا(Malaga) في الأيام الأخيرة من شهر أوت سنة 1505م، وهذا حسب ما ذكره دي غرامون، وتأخّرت الارمادة قليلا عن موعدها المحدّد بسبب رياح عاتية أعاقت سيرها.

وصف ليون الإفريقي المرسى الكبير بالميناء الكبير الذي يسمح برسو مئات المراكب والسفن الحربية في مأمن عن العواصف والأعاصير البحرية[4]، وذلك لأهميته الإستراتيجية والعسكرية. ركّز عليه الإسبان لاحتلاله ليسهّل احتلال وهران والساحل الجزائري ويؤكد أحد الباحثين وذلك لاعتماده على الوثائق الاسبانية إنّ احتلال المرسى الكبير يندرج ضمن الخطة الاسبانية التي تتمثل في احتلال المنطقة الواقعة بين مليلة والمرسى الكبير، وهذا يندرج ضمن المشروع الاسباني والاتفاق الموقّع مع البرتغال لاقتسام مناطق النفوذ بالمغرب الإسلامي[5].

---

[1]--(L). Didier, Op.Cit,, p.8

[2]–المنور مروش، القرصنة، الأساطير والواقع، ج2، دار القصبة، الجزائر، 2009، ص9.

[3] -(H.D).de Gramont, Op.Cit, p.5.

[4]الحسن بن محمد الوزان، المصدر السابق، ص31.

[5]– مختار حساني ، المرجع السابق، ج1، ص 67، 68

تحدّث مرمول كربخال عن المرسى الكبير وأعطى وصفا دقيقا عن المدينة وميناءها، وذكر إنّ احتلالها من قبل الدون دييغو القرطبي كان سنة 1506م[1]، واتّفق معه دييغو سواريز على أنّ احتلال وهران كان في السنة التي ذكرها مرمول؛ حيث قال: "بدأت الحرب بين اسبانيا ومور[2] المملكة الزيانية منذ أن هاجم هؤلاء مدينة قرطاجنة حتى سنة 1506م تاريخ استيلاء الأسبان على المرسى الكبير"[3]. لكن اغلب المؤرخين المعاصرين يؤكّدون أنّ احتلال المرسى الكبير كان في سنة 1505م؛ حيث ذكر الباحث الفرنسي المتخصّص في الأرشيف الاسباني ايلي دي لا بيرمودي أنّ احتلال المرسى الكبير كان في 13 سبتمبر أو 23 أكتوبر سنة 1505م، وذلك باعتماده على الوثائق الرسمية[4].

أثبتت إحدى الرسائل التي نشرها دي لا بريمودي صحة تاريخ الغزو سنة 1505م الموجودة في أرشيف مدينة سيمنكاس مُرْسَلَة من قائد حامية المرسى الكبير مؤرّخة في 12 جوان 1506م وهذا مقتطف منها: "لقد اسْتَلَمْتُ يوم 17 ماي 1506م رسالة من جلالتكم، وقد أجبت على استفساراتكم التي وردت في رسالتكم في الثامن من شهر جوان الجاري مرفقة بنسخة من تدابير المنظّمة من طرف حاكم المدينة"[5]. هذا يُناقض تماما التاريخ الذي قدّمه دييغو سواريز، والذي ذكر أنّ هجوم الأسبان على الميناء كان في 13 جويلية 1506م، وهذا لا يدع مجالا للشّك أنّ الاحتلال كان قبل سنة 1506م.

استسلمت المدينة وفرّ أهلها بعد قصف عنيف أُستعملت مدفعية البحرية بكثافة، يقول مبارك محمد الميلي: "شرع الأسبان يهاجمون المرسى الكبير صباح يوم 10 جويلية وفي الوقت الذي كانت فيه البواخر الحربية ترسل قذائفها المدوّية على الميناء، كانت بواخر النّقل تنزل الجنود ونظرا عنصر المفاجأة، لم يجد الإسبان أمامهم عددا كبيرا من المدافعين"[6].

---

[1] مرمول كربخال، المصدر السابق، ص328.

[2] -المور:أطلق الأسبان اسم المورو Moro على المسلم في اسبانيا بعد الفتح وتوسع إطلاق الاسم على المسلمين عامة، ويختلف المؤرخين في تحديد أصل المفردة، وبعضهم يرجع أصلها إلى موريطانيا الغربية التي كانت جزءا من المغرب، والبعض الآخر إلى قبلة " الماوري البربرية، ولعل التخريج الأخير هو الأرجح في رأيهم، فأغلبية الفاتحين الذين رافقوا طارق بن زياد كانوا من البربر، أنظر كتاب: في الاستشراق الأسباني دراسات فكرية . ترجمة: كاظم جهاد، ص 10.

[3] -Diego Suarez, Op.Cit, p.252.

[4] -(E). de la Primaudaie, Op.Cit, p.8.

[5] -Ibid, p.8.

[6] -مبارك محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مطبعة بدران وشركائه، بيروت، 1964م، ص23.

إنّ اختلال موازين القوى بين المهاجمين (الإسبان) والمدافعين (سكان المدينة) كان واضحاً، وقد ذكر الجنرال ديديي أنّ الجيش الاسباني كان متكوّنا من 1069 جنديا حاملا السلاح، و130 من العمال التقنيين، و311 كشّافا، و200 شخص يعملون في صناعة الأسلحة، و30 قائدا عسكريا، إضافة إلى جراحين وصيادلة[1]. وذكر أنّ مجموع ما كان في الأسطول حوالي 10490 شخص[2] .

إنّ المقاومة التي نُظِّمت ضد الغزاة كانت في أغلبها من سكان المدينة المحليين، أمّا القوة الزيانية فحدّدتها الوثائق الأسبانية بأربعمائة فارس اغلبهم من القبائل المجاورة لمدينة وهران[3]. كان الدّفاع مُستميتا وشجاعا الذي نظّمه سكان المدينة؛ لكنّ قوة نيران مدفعية الفرقاطات الاسبانية أجبرتهم على ترك مواقعهم والانسحاب إلى الجبل الذي تقع في سفحه المدينة .

استمرت المعركة حتى منتصف الليل رغم هبوب عاصفة رعدية هوجاء مصحوبة بأمطار جارفة[4]؛ لكن في صبيحة يوم الجمعة اشتدّت المعركة مع توافد النجدة من المناطق المجاورة للمرسى الكبير، يقول دي غرامون:" اقتربت السفن الاسبانية كثيرا من المدينة؛ رغم كثافة النيران مدفعية الحصن؛ لكنّ قائد الحامية قُتل في اليوم الأول من الهجوم"[5]. وهذا ما شتّت معنويات المدافعين وأحبط عزيمتهم عن الدفاع .

اضطّرت الحامية للاستسلام بعد ثلاثة أيام من المعارك الطاحنة، وحصار دام خمسين يوما[6]، وحوّل دون دييغو جامع المدينة إلى كنيسة كاثوليكية تحت اسم "سيِّدَتُنا العذراء". على وقع خبر نجاح قائد الحملة الاستلاء على المدينة، عَمَّتْ الأفراح في اسبانيا؛ حيث أُقِيمَتْ الأفراح والصلوات لمدة ثمانية أيام بمناسبة النّصر، وقد استدعي دون دييغو لاسبانيا لتكريمه بهذا النصر وترك في خلافته دون روي دي روثاس [7] (de Roxas).

---

[1] -(L). Didier, Op.Cit, p.9.

[2] -Ibid, p.9.

[3] -مختار حساني، المرجع السابق، ج1، ص73.

[4] -(H.D). de Gramont, Op.Cit, p.8

[5]-Ibid, p.7..

[6] -مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ص23.

[7] - (H.D) de Gramont, Op.Cit, p.8.

3-احتلال وهران:

ارتبط احتلال مدينة وهران باسم الراهب الإسباني خمينيث أسقف كاتدرائية مدينة طُليطلة. كان أكبر المتحمسين والداعمين لفكرة الاحتلال، روّج له لدى الملكين الكاثوليكيين، وهيّأ الرأي العام الاسباني، جمع المال اللازم واعتمد على خطط عسكرية مُحْكَمَة مبنيّة على أعمال الجاسوسية لعدة سنوات تحت قيادة عسكرية مُحنّكة.

بعد أربع سنوات من احتلال المرسى الكبير توجّهت الأنظار لوهران؛ رغم تقدمه في السّن الذي بلغ سبعين سنة؛ إلاّ أنّه أشرف شخصيا على هذا الغزو، وجمع له كل المال اللازم[1]. قبل وصوله إلى وهران وصل الأسطول الاسباني لميناء المرسى الكبير، الذي كان ميناءا اسبانيا منذ أربع سنوات، تقول نيلي بلوم: " وصل خمينيث للميناء في ليلة دامسة الظلام، وأعقبت وصوله أربعُ وثمانون قطعةً بحريةً من أسطول الحملة مخصّصة لضرب دفاعات الأهالي"[2].

لم ينتظر الأسقف كثيرا بعد وصوله إلى الميناء؛ حيث أمر باجتماع حول خطة الهجوم على المدينة رغم التعب الذي بدا على ملامحه[3] . استقبل خيمنيث في ذلك الاجتماع وسيطا يدعى رودريغو ديات (Diaz) وهو سجين سابق في المدينة، ورجلا آخر يدعى مارتن أرغوت(Martin Aragote) ومساعده الآخر ألنسو مارتوس (Alonso Martos) بالتواطؤ مع احمد الكِنْسِيْ وهو أحد أعيان مدينة وهران. تقتضي الخطة فتح أبواب وهران لدخول الجيش الإسباني واحتلال المدينة على غِرَّةٍ أهلها[4].

ساهم تواطؤ هؤلاء الأشخاص إلى حدّ ما في دخول الإسبان المدينة؛ لكن دور اليهود كان حاضرا، وذكرت نيلي بلوم أنّ أحد اليهود يدعى سْتُورَا، لجأ إلى وهران هاربا من المرسى الكبير أثناء المذبحة التي أعقبت سقوط المدينة في يد الإسبان سنة 1505م، وهو الذي كان يفاوض باسم أحمد الكنسي.

وردت رواية أخرى قدّمتها المصادر الاسبانية والمحلية الجزائرية تختلف قليلا عن رواية نيلي بلوم؛ حيث تذكر أنّ الذي فتح أبواب وهران لدخول الإسبان يهودي من سكان المدينة بمساعدة حارسين من المور، يقول محمد بن يوسف الزياني نقلا عن بعض المؤرخين منهم ابو راس الناصري:" ... دخلوها سنة 915هـ من شهر صفر بمداخلة اليهود غدرا، وذلك أنّ يهوديا خدع المسلمين وغدرهم ومكّن النصارى منهم فنّكبوهم قتلا وسبيا، وكيفية ذلك أنّ

---

[1] -(J). Helefe, Op.Cit, p.310.
[2]-(N). Blum, Op.Cit, p.106.
[3]-Ibid, p.p. 106 ;107.
[4]-Ibid, p.107.

أحد اليهود يُقال له الزاوي بن كبيسة أتى بجيش النصارى للمدينة وأدخله بها سرّا بالحيلة، فقام الجيش لباب المدينة ففتحه وأخذ العساسين الذين كانا يَعْسّانْ وهما ابن الغريب الغربي والغنّاس كبيرا"[1]. وهذا ما أكّده مارمول كربخال فيما ذهب إليه الزياني، يقول في هذا الصدد: "كانت عملية الغزو أسهل مما كان متوقّعا ذلك أنّ عامل المرسى الكبير كان اتّفق مع يهودي ومُسلِمَيْن، وكانوا قائمين على تحصيل ضرائب الأبواب لحساب أمير تلمسان، على أن يُسلّموا له المدينة في موعد مضروب"[2].

لكن هل يُمكننا أن نأخذ رواية اليهودي على أنّه هو السبب الرئيسي في فتح وهران أمام الغُزاة، وتحميله مأساة وهران؟.

اتّفقت معظم المصادر الاسبانية والمحلية التي تحدّثت عن احتلال المدينة أنّ اليهودي المذكور كان ضالعا في المؤامرة؛ لكنه لم يكن المتآمر الوحيد؛ بل كان يعمل لصالح أحمد كنيس (هكذا ذُكِرَ اسمه عند نيلي بلوم). دييغو سواريز قدّم روايته تفيد أنّ الاتصالات والمفاوضات السرية كانت قائمة مع اثنين من أعيان المدينة لتسليمها للتاج الإسباني بواسطة احد الأسرى الذي يدعى مارتن أرغوت[3].

هذا لا يدع مجالا للشّك أنّ اليهودي الضالع في المؤامرة، لم يكن وحده الذي فتح الأبواب؛ ولم يكن إلى جانبه رجلان من العَسَسْ؛ بل كان متواطئا مع أشخاص نافذين في المدينة. من خلال هذه الروايات المتضاربة أحيانا والمتّفقة أحيانا أخرى فيما بينها نقدّر رواية دييغو سواريز أقربُ الروايات إلى الحقيقة باعتباره خدم الجُندية في وهران لمدة تزيد عن عشرين سنة؛ لأنّه عايش الأحداث في المنطقة وما جاورها وأرّخ للأحداث في وهران في كتابٍ عنوانه طويل نوعا ما:

Maestre Ultima que fue de Montesa y de su hermano Don Filipe de Borja, la menera como gobernaron las memórales places de Oran y Merzequevir, rayones de Tremasen y Tenes en África´´[4]

[1] -محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص141، 142.

[2] -مرمول كربخال، المصدر السابق، ص330.

[3] -(A). Berbrugger, Conquete d'Oran, R.A, N° 10, 1866, p.43.

[4] -(A). Morel- Fatio, Soldats Espagnols du XVII Siècle, Alonso de Contreras ; Meguel de Castro et Diego Suarez, B.H, N° 02, 1902, p.10.

الكتاب يندرج ضمن السيّر الذاتية التي يكتبها الجنود والضّباط أيام الخدمة العسكرية، وكتاب سواريز أرّخ للأحداث التي جرت في وهران والتي شاهدها وسمعها وأُخبر عنها إلى أن غادرها في الواحد والعشرين من شهر جويلية سنة 1604م .

لقد خلّد النّحات الايطاليّ خوان دي بورغونيا (Borgoña) غزو المدينة من قبل الإسبان في أَيْقُونَةٍ دِيْنِيَةٍ على جدران كاتدرائية طُليطلة، وقد بدأ عمله بطلب من خيمنيث ثيسنيروس، وأخرج دي بورغونيا أيقونته حول احتلال مدينة وهران في مدة تسعة أشهر من شهر جانفي سنة 1514 حتى شهر جوان من نفس السنة[1]. استقى دي بورغونيا معلوماته وتفاصيل الغزو من قبل رجل يدعى كثايا (Cazalla) وعلى ما يبدو كان شاهد عيان في معركة أُستخدمت فيها السلالم والمدافع والحجارة[2].

تُبيّن الأيقونة على جدار الكاتدرائية الجنود يحاصرون المدينة من كل الجهات، وهم مدجّجون بمختلف الأسلحة، وتبيّن أنّ المعركة حامية الوطيس، وقد استعمل الجنود الإسبان المَتَارِيسْ والسلالم لتسلق جدار المدينة، وأهالي المدينة يدافعون بكل ما أوتوا من قوة للدفاع عن المدينة[3].

تصف لنا صوفي دومنغيث مشهد وهران من خلال أيقونة دي بورغونيا أنّ الفرسان المور يُعرَفُون بألوية الحرب ذي ثلاثة أَهِلّة ونوع ألبستهم، أمّا الفرسان الإسبان فهم يرفعون اللّواء الصليبي، أمّا في السماء فيُلاحظ طيور سوداء ونسور تحلِّق فوق المدينة لنهش جثث القتلى والشمس آيلة للزوال تُطلق أشعتها في زاوية حادة من اليّسار[4].

إنّ الباحثة الفرنسية نيلي بلوم قدّمت تفاصيل مهمّة عن حملة خيمينيث على وهران وقد استقت معلوماتها من مصادر اسبانية وفرنسية متنوعة، لقد كان وصفا مثيرا عن الحملة التي قادها بيدرو نافارو، وذكرت أنّ الحملة كانت تحمل أوزانا مختلفة من المواد التموينية التي يحتاج إليها الجيش المحْتَل وجاءت كالآتي:

- 15000 قنطارٍ من البيسكويت على متن عشر فرقاطات؛

---

[1] -(S). Dominguez- Fuentes, **les fresques de la compagne d'Oran peinte par Juan de Borgoña dansla chapelle Mozarabe de la Cathédral de Tolède**, Cahier de la Méditerranée, N° 83, 2001, p.2
[2]- Ibid, p.6.
[3]- Ibid, p.3
[4] -Ibid, p.3

-2000 (Fanègue)من الشّعير للجياد؛

-1600 برميلٍ من المياه الصالحة للشّرب؛

-1200 قنطارٍ من اللّحوم المملّحة، و600 مثلها من السّمك؛

-800 برميلٍ من السّردين؛

-30 برميلاً من الزّيت، وأخرى من الخلّ؛

-300(Fanègue) من الملح وأخرى من الخمر.

أمّا فيما يخصّ المعدّات الحربية تكوّنت من: أربعة مدافع كبيرة، إضافة لفرقاطات حربية وحاملات للجند، والدروع والمتاريس والسلالم، وإنّ تكاليف الحملة بلغت أكثر من ثلاثين مليون مرابيدس (Marevédis). هذه الأرقام قدّمتها السيدة نيلي بيلوم[1].

كانت معركة وهران حامية الوطيس، دافع أهاليها بشجاعة وقاتل الجنود الإسبان بشراسة وكفاءة، وفي النهاية كانت الغلبة للإسبان؛ لأنّهم كانوا منظّمين للغاية يتّبعون خطة عسكرية مدروسة بدقّة ومدجّجين بأسلحة متطورة مقارنة بأسلحة أهالي المدينة.

دخل الإسبان المدينة بعد مقاومة مستميتة من قبل الوهرانيين، وارتكب الغُزاة مذبحة رهيبة في حق أهالي المدينة، يقول أحد كُتّاب سيرة الراهب خيمنيث ثيسنيروس: " لقد كان النّصر باهرا لكنّه تلطّخ بالدّماء؛ لأنّ المنتصرين ارتكبوا مجزرة رهيبة بدون رحمة ولا تمييز، وكانوا يقتلون كل من وجدوه أمامهم"[2]. وأردف قائلا:" خاف القائد بيدرو نافارو كمائن المور ضد جنوده، فأمر أن يُثْخَنَ السيف في رقابهم حتى إذا أشرقت الشمس ترى هول المجزرة"[3]. وقد وصف احدهم الجنود الإسبان وهم يسيرون في شوارع المدينة كالسّكارى وسط السّلب والنّهب، ينامون في الشوارع والساحات العامة بجانب جثث قتلى أعدائهم[4].

تضارب الأرقام حول عدد القتلى من الأهالي بين أربعة آلاف وأربعين ألف قتيل؛ حيث ذكرت نيلي أنّ عدد الذين ذُبحوا في الشوارع تجاوز أربعة آلاف قتيل لدرجة أنّك لا تستطيع أن تمشي في الشارع من كثرة الجثث الملقاة

---

[1] -(N). Blum, Op.Cit, p. 95
[2] -(j). Helefe, Op. Cit, p.318.
[3] -Ibid, p.318.
[4]-(L). de lavergne, **le Cardinal Ximenès**, Revue de Deux Monde, T.26, 1841, p.51.

في الطرقات، وأمام المنازل وفي البساتين، بالإضافة إلى خمسة آلاف أسير تنتظرهم العبودية[1]. أمّا على جدران كنيسة موثارابي في كاتدرائية مدينة طُليطلة فقد ذكرت الكتابات المرفقة لصور غزو المدينة أنّ القتلى تجاوزوا أربعين ألف قتيل[2]؛ لكنّ هذا الرقم مبالغ فيه ويتجاوز عدد سكان المدينة مجتمعين، فقد ذكر ليون الإفريقي أنّ مدينة وهران كانت تضمّ ستة آلاف كانون (منزل)[3]، وإذا عددنا متوسط عدد أفراد المنزل الواحد بستة أفراد مكوّناً من الأبوين وأربعة أبناء فهذا اقل من عدد القتلى المذكورين على جدران أسقفية طليطلة. وذكر ليون الافريقي أنّ السكان خرجوا يقاتلون بغير انتظام وتركوا المدينة خالية، فعلم الإسبان بذلك وأرسلوا قسما من جنودهم إلى الجانب الآخر من وهران، فلم يجدوا غير النساء والأطفال[4].

فنّد الباحث ليون غودار صحة هذا الرقم وهو الذي اطّلع على الكتابة المرفقة للوحة الجدارية في الأسقفية المذكورة؛ حيث ذكر أنّ الكتابة التي تشير إلى هذا الرّقم كُتبت سنة 1708م؛ أيّ بعد انسحاب الإسبان من مدينة وهران في السنة نفسها[5].

دخل خيمنيث المدينة مفعما بروح الانتصار وعلى صهوة جواده طاف الكاردينال حول المدينة، وأمر بترميم الحصون القديمة وتشييد أخرى جديدة[6]. وبعد ذلك أمر بتحرير حوالي ثلاثة إلى أربعة آلاف أسير مسيحي كانوا عبيدا عند سكان وهران، وهذا حسب ما ذكرت بعض التقارير وأرقام المؤرخين؛ حيث ذكر احد الباحثين أنّ خيمينيث بعد تسلّمه مفاتيح قصبة المدينة أمر بتحرير ثلاثة آلاف أسير مسيحي منذ 1505م و1507م؛ أيّ بعد احتلال المرسى الكبير وموقعة مسرغين[7].

أمر الكاردينال ثيسنيروس بدفن الجثث الملقاة في الشوارع، وتجميع الغنائم وتقسيمها على الجنود، أمّا الباقي فتعود للملك الإسباني، ولم يحتفظ لنفسه غير بعض الكتب العربية في الطّب وعلم التنجيم، وبعض العلوم الأخرى

---

[1]-(N). Blum, Op. Cit, p.p. 119.120.
[2]-(L). Godard, Souvenir de l’Expédition de Ximenès, R.A, N° 5, 1861, p.54.
[3]-الحسن الوزان، المصدر السابق، ص30.
[4]-المصدر نفسه، ص31.
[5]-(L). Godard, Op. Cit, p. 55.
[6] -(J). Helefe,Op. Cit, p.320
[7]-(L). Camille, **la Conquête d’Oran par le Cardinal Cisneros**, Mémoire de l’Académie de Nîmes, T. LIX, 1977, p.252.

أهداها لجامعة القلعة باسبانيا، وأمر بتحويل مسجدي المدينة إلى كنيستين كاثوليكيتين، وشيّد مستشفى ومساكن للرهبان الكاثوليك[1].

بعد مكوثه عدة أسابيع في مدينة وهران غادر الكاردينال المدينة عائدا إلى اسبانيا وترك وراءه قائدا عاماً وهو بيدرو نافارو؛ لكنّ هذا الأخير اعتذر عن قبول هذا المنصب؛ لأنّ طموحاته كانت أكبر من أن يكون قائدا عاما لمدينة وهران والمرسى الكبير. وعُيّن بدله دون دييغو فرنانديث دي قرطبة، وبعد مشاورات بين الملكة خوانا وأبيها فرديناند الكاثوليكي اتّفقا على تسميته ب" الحاكم العام لمملكتي تلمسان وتنس وحاكم مدينتي وهران والمرسى الكبير"[2]. وبهذا التعيين طُويت مسألة وهران وبدأت صفحة جديدة من تاريخ وهران أكثر تعقيدا؛ حيث بدأ التوسع الاسباني خارج وهران ومحاولة السيطرة على مملكة تلمسان، والتي بدأت تدافع عن وجودها كدولة.

4-ردود الفعل على احتلال وهران والمرسى الكبير:

-موقف السلطة الزيانية:

كانت وهران والمرسى الكبير تقعان ضمن أراضي السلطة الزيانية، عاصمتها تلمسان، وتبعد عنها بمسيرة خمسة أيام[3]. يدفع سكانها الضرائب ويدعوا أئمة مساجدها الدعاء للسلطان الزياني على منابر مساجدها؛ لكن المؤرخين يؤكّدون أنّ وهران كانت تابعة اسميا للسلطة الزيانية، فقط كانت تدفع الضرائب والمكوس للسلطان[4]. وحسب الباحث الفرنسي روني ليسباس فإنّ وهران كانت جمهورية تجارية صغيرة[5]، وكان الوهرانيون أعداءً للملك الزياني، ولم يقبلوا قط أيّ والٍ من وُلّاتِهِ ماعدا أمينا للمال وقابضا يستلم مداخيل الميناء وهذا حسب ما ذكر ليون الإفريقي (الحسن الوزان)[6].

هذا لا يمنع أن تكون في وهران والمرسى الكبير حامية مسلحة تابعة للملك الزياني؛ حيث حدّدت الوثائق الاسبانية عدد القوة الزيانية المرابطة في المرسى الكبير أثناء الهجوم الإسباني على الميناء بأربعمائة فارس أغلبهم من القبائل المجاورة[7].

---

[1]-(L).Camille, Op.Cit, p. 253.
[2] -(J). Cazenave, les gouverneurs d'Oran…Op.Cit, p. 258
[3] -(A). Bargès, Tlemcen ancienne Capital du Royaume de ce nom, Paris, 1859, p.87.
[4] -(R) .Lespès, Oran étude de Géographie et d'Histoire urbaine, Paris, 1930, p.51.
[5]-Ibid, p.51

[6]-الحسن الوزان، المصدر السابق، ص30.
[7]-مختار حساني، المرجع السابق، ج1، ص73

لم يكن ردُّ فعل السلطة الزيانية في تلمسان في مستوى آمال سكان وهران عند احتلالها؛ فقد كان الصراع على العرش على أشدّه بين الأمراء الزيانيين، تنافس على العرش الأخوان أبوزيان الثالث المسعود، وأبو حمو الثالث، وتغلب الثاني على الأول وأدخله السجن[1]. ولا يمكن القول أنّ الاحتلال مرّ بِسَلاَسَة، لأنّ احتلال وهران هو احتلال الجزائر كلّها وتهديد للعرش الزياني، يقول يحي بوعزيز:" أصبحت تلمسان بين فكّي كمّاشة يحيط بها خطر الإسبان من كل جهة، وليس هناك نصير أو مُعين، في حين لا تملك هي القوة والعُدّة الكافية التي تساعدها على مواجهة هذه الأوضاع الخطيرة"[2].

في بداية القرن السادس عشر الميلادي لم يكن للسلطة الزيانية جيش نظامي يدافع عنها من الأخطار الخارجية والداخلية، وقُدّر الجيش الزياني بألف رجل حسب قول حسن الوزان (ليون الإفريقي)[3]. والرّاجح أنّ أغلب هؤلاء الجنود من الفتيان المسيحيين، واعتمد الزيانيون في حروبهم على القبائل المجاورة لتلمسان والخاضعة لملوكها، يقول الحسن الوزان:" في وقت الحرب عندما يُزحف ضد العدو فانّه يجمع الأعراب والفلاحين من مختلف القبائل ويؤجرهم مدة العمليات العسكرية"[4].

هذا الجيش غير النظامي لا يملك أيّ خبرة عسكرية يقف في وجه الجيش الاسباني، سلاحهم الوحيد السيوف والرّماح، والنّشاب. لم يكن الملك الزياني خارج الأحداث التي جرت في أراضيه في المرسى الكبير ووهران؛ حيث يُعدّ سكان وهران رعايا ملك تلمسان، ذكر دييغو سواريز أنّ الملك الزياني مولاي عبد الله ابن أحمد الزياني جنّد المتطوعين والمرتزقة قدّرهم بألفي فارس للدفاع عن وهران والمرسى الكبير[5]، وتكوّن هذا الجيش من أبناء القبائل الخاضعة للسلطة الزيانية أو كما سماهم سواريز بالمور، وجعل الملك الزياني مبلغاً شهرياً لكل جندي مقداره عشرة زياني للفرد الواحد في الشّهر[6]؛ لكن هناك من قال إنّ الملك الزياني قاد حملةً ضد الأسبان على رأس جيش قوامه أثنا عشر ألفَ جنديٍ، ووصل إلى مشارف وهران في اليوم نفسه الذي دخل فيه الإسبان المدينة[7].

هناك من يتساءل لماذا لم يدخل الملك الزياني في حرب مع الإسبان؟

[1]-يحي بوعزيز، **المراحل التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية**، مجلة الأصالة، العدد: 26، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ص24.

[2]-المرجع نفسه، ص25.

[3]-مولاي بلحميسي، **نهاية دولة بني زيان**، مجلة الأصالة، العدد: 26، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ص30.

[4]-الحسن الوزان، المصدر السابق، ص22، 23.

[5]-(A). Berbrugger, Op. Cit, p. 352.

[6]-حسان مخطاري، المرجع السابق،ج1، 66.

[7]-المرجع نفسه، 66.

نعتقد أنّ هذا الجيش لم يصل أصلا إلى مدينة وهران لمحاصرتها أو الدخول عنوة إليها، أو ربما لم يُجْمَعْ هذا العدد المكوّن لجيشه؛ لأنّه لم تكن هناك إرادة من الزيانيين للدفاع عن أراضيها وفي الأخير اضطرّ الملك الزياني أبو عبد الله محمد الخامس إلى الاعتراف بالاحتلال الإسباني والدخول تحت حمايته سنة 1512م.

5-توسع الإسبان خارج وهران:

أ-في ضواحي وهران والمرسى الكبير:

بعد احتلال المرسى الكبير سنة 1505م سعى الإسبان إلى إيجاد منفذ بري للحصول على التموين الكافي للجنود في هذه المدينة المحصّنة طبيعيا؛ حيث تقع في سفح جبل سيدي هيدور.

كان المرسى الكبير يعتمد على السلع القادمة من مدينة وهران، وعلى ما تقدّمه القبائل المجاورة من جهة الغرب؛ لكن احتلال الإسبان له جعل أهالي مدينة وهران والقبائل المجاورة يضربون حصارا خانقا عليهم ما اضطرّ الإسبان لتنظيم حملات على المناطق المجاورة للحصول على المؤونة اللاّزمة.

شرع الإسبان في البحث عن المياه الصالحة للشرب لتوريد الحامية العسكرية هناك، وأول ما فعلوه سيطرتهم على مصادر المياه القريبة لهم. وقدّر المؤرخون عدد هذه الحامية ما بين سبعمائة وثمانمائة جندي[1].كانت مصادر المياه التي سيطروا عليها تقع في الطريق الرابط بين وهران والمرسى الكبير، وأقاموا عليها حصناً متقدّماً لحراستها. تُعدّ هذه المصادرُ مياهاً معدنيةً معروفةً منذ القِدَمِ[2]، وأُطلق عليها لاحقا بحمام الملكة خوانا ابنة الملكة الكاثوليكية ايزابيلا[3].

أراد الإسبان أن يرفعوا طوق الحصار عنهم فبادروا إلى مفاوضات مع سكان الجبال المجاورة لهم من المور، فنتج عن ذلك إنشاء سوق للمبادلات الحرّة على بعد مسافة قريبة من المرسى الكبير[4]. فكان أول اتصال مباشر بين الإسبان والقبائل المجاورين لهم، وعُدّ هذا نصرا للإسبان لاستمالة المسلمين لهم.

---

[1] -(H-D). de Gramont, Op. Cit, p.8

[2] -Masserer et Gasser, les Eaux Thermo-Minéral de Bain de la Reine, Archives Générales d'Hydrologie, 1895, p.17.

[3] -هذه المياه لها خصائص استشفائية لمعالجة بعض الأمراض الجلدية مثل البرص وكذلك يداوي القرحة المعدية، وقد زارت الملكة خوانا هذا الحمام أكثر من مرة، ويقال أنها شفيت من مرض جلدي، وكان يسمى "عيون سيدي ديوب" نسبة لأحد المرابطين ويبتعد عن مدينة وهران حوالي ثلاثة كيلومترات.

[4] -(H-D) .de Gramont, Op. Cit, p.9.

خرج الحاكم العام للمرسى الكبير دون دييغو فرنانديث دي قرطبة إلى اسبانيا للاحتفال بالنصر وتقديم تقرير مفصّل عن الأوضاع السائدة في هذا الجزء من الجزائر، وترك نائبا عنه وهو دون روي دي روكشس (Don Ruy de Roxas)، وتلقى دعما من اسبانيا بخمسة آلاف جندي اسباني. وفي سنة 1507م وبناءا على معلومات قدّمها جاسوس حول موقع دوار كبير من القبائل المعادية لهم على بعد ثلاثة فراسخ في الجهة الغربية وراء الجبال المحيطة بالمرسى الكبير وبالضبط بمنطقة مسرغين وهي أرض فلاحية خصبة لزراعة الحبوب والخضر والفواكه، وهي متوفرة المياه[1].

انطلق الجيش الإسباني بقيادة دون دييغو مع آلاف الجنود، يدُلّهم مجموعة من الأهالي المتعاونين معهم، بعد ساعات من السير وصلوا إلى المنطقة التي يتجمعُ فيها أعداء الإسبان، وهذا التّجمع خيّم يسكنها الأهالي، وأراد الإسبان أن يكون عنصر المفاجأة فعّالا لتشتيت العدو والحصول على قدر كبير من الغنائم، والأسرى والقتلى، يقول والسين استرهازي (walsin Esterhazy): "كانت مضارب العرب قرب منطقة مسرغين في خيامهم مع قطعان ماشيتهم. كانت الفرصة سانحة للانقضاض عليهم، بينما هم يغطّون في نومهم، فيفاجئهم الإسبان بالهجوم"[2].

تعرّضت هذه القبيلة العربية – الراجح أنّها قبيلة شافع العامرية التي كانت تخيّم بهذه المنطقة– لهزيمة نكراء تركت كل متاعها وقطعان ماشيتها لنهب الإسبان. كانت الغنيمة كبيرة حسب قول استرهازي إضافة إلى أعداد معتبرة من الأسرى العرب[3].

لم يكن طريق العودة منظّما كفاية؛ لأنّ الغنيمة شتّتت تنظيم الجيش الإسباني وأغرت جنوده فكانت مؤخرة الجيش غير محروسة جيّدا. علمت القبائل المجاورة بهذه الحملة فأسرعوا فور سماعهم الخبر لمطاردة الجيش الإسباني المرْهَق والمثْقَّل بالغنائم والأسرى، فتوالت الهجمات عليه، فكانت المفاجأة هذه المرة من قبل القبائل الجزائرية[4]. من جهة أخرى حاصر مجموعة من فرسان مدينة وهران مقدّمة الجيش، فاستولوا على غنائمهم ودارت معركة خسر فيها الإسبان وكاد قائد الجيش الإسباني أن يكون في عداد القتلى لولا اختفائه رفقة خمسة من جنوده[5].

[1] -(L). Camille, Op. Cit, p.245.
[2] -(W). Esterhazy, de la domination Turque dans l'Ancienne régence d'Alger, Paris, 1840, p.115.
[3] -Ibid, p.116.
[4] –مبارك محمد الميلي، المرجع السابق، ص25.
[5] –المرجع نفسه، ص25.

فقد الإسبان في هذه الحملة الفاشلة على مسرغين أكثر من ثلاثة آلاف جندي[1]. كان هذا أول هزيمة يتعرض لها الإسبان بعد احتلالهم للمرسى الكبير، وبعد سقوط مدينة وهران بدأ الإسبان في توسع مدروس ومنظّم غربا وجنوبا وشرقا وهنا نعرض بعض توسعات الإسبان:

ب–مستغانم وضواحيها:

في سنة 1511م استسلمت مدينة مستغانم للإسبان تحت ترهيب سكان المدينة، ورأى أهالي المدينة وجوب الاستسلام والخضوع لهم؛ لأنّ أيّ مقاومة غير متكافئة تجلب الخراب والقتل والتنكيل كما جرى لمدينة وهران، وقد نشر ايلي دي لا بيرمودي رسالة من القائد الإسباني بوهران لسكان مدينتي مستغانم ومزغران تشمل كُلُ من في المدينة(شيوخ القبائل، المرابطين، اليهود، والمسلمين) يدعوهم وجوبا لخدمة الملك الإسباني وطاعته. ودفع كل الضرائب التي كانوا يؤدوها للملك الزياني[2]. هذه الضرائب تقدّم للحاكم بوهران نيابة عن الملك الإسباني، ويحرّر أهالي مستغانم ومزغران كل العبيد المسيحيين في المدينة ويعيدونهم للإسبان.

جاء في نفس الوثيقة إجراءات أخرى تؤديها مستغانم تقول: على السكان أن يتعاملوا في البيع والشراء وتموين مدينة وهران بالمؤن الضرورية، وبسعر جد مُخفّض، ويتعهد السكان عدم تحصين المدينة أو ترميم الحصون المحطّمة[3]. وقد جاء الرّد من أعيان مدينة مستغانم بالسّمع والطّاعة للإسبان، وقد أورد أحمد التوفيق المدني وثيقتين فيهما إمضاء نحو خمسة وعشرين شخصية من الأعيان على استسلام المدينة، أمضاها باسمهم قاضي مستغانم يحي بن عبد الله[4].

توسطت مستغانم الطريق الساحلي الرابط بين مدينتي الجزائر ووهران، وهي موطن تقليدي لقبائل مجاهر العربية المعروفة بكثافتها الديمغرافية، وبقدرتها أن تجنّد فتيانها عند اقل طلب للحرب وأراضٍ زراعيةٍ خصبة تقدّر بنحو 77800 هكتار[5]. وقبائل مغراوة البربرية كانت تسكن في الجبال المحيطة بها، وذكر ابن خلدون أنّ بعض بطون مغراوة كانت مواطنهم قرب جبل راشد وبلاد الشلف، منها قبائل بني عيار[6] .

[1] -(L). Didier, Op. Cit, p.37.
[2] -(E) .de la Primaudaie, Op. Cit, p.17
[3] - Ibid, p.17

[4]–أحمد التوفيق المدني، المرجع السابق، ص149.
[5]–عابد سلطانة، المرجع السابق، ص13.
[6]–عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص63.

تحيط بمستغانم مدن مهمّة مثل مدينتي مازونة والقلعة، ويُعتبر سكانها أثرياء؛ حيث ذكر الباحث الفرنسي ايمري (Emerit) أنّ مدينة مازونة ذات مركز ديني واستراتيجي، ولم تكن محصّنة بالشّكل الكافي، ويحرسها خمسمائة كولوغلي. أمّا مدينة القلعة فهي محصّنة طبيعيا بالجبال التي تحيط بها، تسكنها أربعة آلاف عائلة من الكراغلة ومائتي عائلة من الأهالي(المور)[1]. هذه الأرقام التي قدّمها اميري تعود القرن التاسع عشر الميلادي، في أوج اكتمال الحكم التركي بالجزائر، أمّا في القرن السادس عشر الميلادي كان الاندفاع الإسباني شرسا نحو الشرق ووصل حتى مدينة تنس الساحلية.

لم يبق سكان مستغانم ومزغران مستسلمين أمام معاهدة الاستسلام المذّلة؛ بل سعوا جاهدين للتخلّص منها وساعدتهم الظروف السياسية والعسكرية، فتقدّم الأتراك العثمانيون لنجدتهم وتمركزهم في مدينتي مازونة وقلعة بني راشد، كما ساعدتهم قوة قبائل المجاهر العربية التي وقفت ندّا عنيدا ضدَّ الإسبان.

حاول الإسبان أن ينتقموا من سكان مستغانم بتنظيم حملة عسكرية سنة 1543م، جمع الكونت دالكوديت سبعة آلاف جندي واختار خمس قطع من سلاح المدفعية في الواحد والعشرين من شهر مارس[2]، وانضمّ إليه قبائل بني عامر من جبال تسالة بقيادة الشيخ غِيْرِفْ" يقود أربعة آلاف من أفراد قبيلته حسب ما ذكر بول روف[3]. وبعد عقد اتفاقية التحالف بين الشيخ حميدة العبد (شيخ تنس) والمنصور بن بوغانم شيخ قبائل بني راشد، انطلق الكونت في حملته ضد المدينة.

وصف القسيس الإسباني فرانسيسكو دي كويبا (F. de Cueva) اللّقاء المفترض بين الكونت دالكوديت والشيخ حميدة العبد والمنصور بن بوغانم في مخيّم الجيش الإسباني في منطقة واد تليلات قائلا: "عند مجيء الشيخين أعطى الكونت الأوامر للّرماة لاستقبالهما كتحية عسكرية وهذه هي المرة الأولى التي يرى فيه حميدة العبد الكونت دالكوديت، وقد دُهِشَ بهذا الاستقبال لدرجة أنّ عيناه لم تفارق النظر إلى الكونت، وكأنّه ينظر إلى القائد الروماني سيسيوس أو حنبعل"[4]. وكذلك ينطبق نفس الوصف على الشيخ المنصور بن بوغانم.

قاد المعركة من جانب الآخر (سكان المدينة) حسن أغا، وقد أرسل الأتراك ستُ قطع بحرية وسار الجيش الاسباني نحو المدينة؛ لكنّهم وجدوا وادي هبرة ارتفع مستوى منسوب مياهه بسبب الفيضانات فأمر بقطع

[1]-(M). Emerit, Op.Cit, p.117.
[2]-(P). Ruff, Op. Cit, p.117.
[3] -Ibid, p.118.
[4] -(F). de la Cueva, la guerre de Tlemcen, Tr par (M). Brunel, B.S.G.A.O, T.24, 1894, p.p. 322.323.

الأشجار لجعلها جسرا يمر عليه سلاح المدفعية، أمّا غالبية الجيش قطعت النّهر سباحة. وصل الكونت إلى بلدة مزغران واحتلّها بسهولة، لم يستطع الإسبان احتلال مدينة مستغانم؛ لاستماتة سكان المدينة للدفاع عن أسوارها ، ولما فشل في احتلالها وكسر المقاومة قفل راجعا؛ لكنّه تعرض لهجمات متتالية من قبائل معادية لهم أصابت مؤخرة الجيش[1].

وفي عام 1547م جهّز الكونت حملة أخرى ضد مستغانم، وأطلق الإسبان أكثر من مائة طلقة مدفعية على المدينة . وكانت كسابقتها فاشلة لأسباب أوجزها بول روف:

عدم التحضير الجيد للمعركة؛ ونقص العتاد الحربي وعدد الجنود؛ نقص المعلومات حول وضعية عدوّهم؛ والتحضير الجيّد للمعركة من جهة سكان مدينة مستغانم[2].

للمرة الثالثة حاول الكونت دالكونت عبثا احتلال المدينة وضواحيها؛ لكن هذه المرة ولتجاوز أخطاء الحملتين السابقتين الفاشلتين قرّر الكونت أن يطلب المدد الكافي من العتاد والجنود ويضمن تحالف القبائل المتعاونة معهم، ويقيم تحالف مع السلطان السعدي محمد المهدي.

قضى الكونت حتفه في هذه المعركة وقُتِلَ الآلاف من جنوده، واستسلم بقية الجيش، وقبل ذلك وصل الى مدينة بلد الوليد (valladolid) للقاء ولية العهد الأميرة خوانا وفي غياب أخيها الملك فليب الثاني[3]، لحشد الدعم وعرض خطته على المجلس العسكري في البلاط الملكي، وتقتضي الخطة أن يتحرك الأسبان شرقا إلى مدينة مستغانم واحتلالها على أن يتحرك المغاربة سالكين الطرق الخلفية ويهاجموا مدينة مليانة، وبهذا يُحاصر الأتراك العثمانيين وينتهي وجودهم نهائيا بالجزائر[4].

واجه الكونت معارضةَ شرسةَ من لويس أورتادو دي مندوثا (Mondoça) وهو عارفٌ بشؤون إفريقيا، ومقاتلٌ سابقٌ في الحملات الاسبانية على سواحل المغرب؛ حيث قدّم حُججاً دامغةً بأنّ الحلفَ مع الشريفِ السعديّ وبعضِ شيوخِ القبائلِ غير مضمون النتائج. وأنّ خطة الكونت لم تقدّم أيّة ضمانات لنجاح الحملة على مستغانم[5]. إنّ الأتراك يؤكّد معارض الحملة لديهم قوة التأثير في الفقهاء والمرابطين يستطيعون تأليبهم عليهم، ومنع

---

[1]-(P).Ruff, Op.Cit, p.121.
[2] Ibid, p.133
[3]Ibid, p.123.

[4]–أحمد التوفيق المدني ، المرجع السابق، ص372، 373.

[5]-(P). Ruff, Op. Cit, p. 159

شيوخ القبائل من التحالف مع الإسبان، ولديهم القدرة على دفع تعزيزات عسكرية كبيرة من مدينة الجزائر ومن المناطق القريبة من مستغانم إذا هاجما الأسبان[1].

رغم هذه المعارضة إلاّ أنّه تلقى دعما من رئيس المجلس الملكي القشتالي خوان دي بيغا (Juan de Vega) وهذا مارجّح الدعم لصالح الكونت دالكوديت. تلقى الكونت دعما بالجنود حوالي ستة آلاف جندي، واتّجه صوب مدينة وهران، لم يكن يعلم بأنّ أحد ركائز حلفه محمد المهدي ملك فاس قُتل في 23 أكتوبر سنة 1557م من قبل أحد الأتراك في مخدعه، وحُزّت رأسه وأُرسلت إلى اسطنبول[2]. إنّ هذا الحدث يعد من أسباب تصدّع الحلف الذي ارتكزت عليه خطة الكونت.

سار حسن باشا ابن خير الدين بربروس على رأس جيشه المتكوّن من ستة آلاف انكشاري لردع المغاربة الذين احتلوا تلمسان وأجزاء من الغرب الجزائري، انسحب المغاربة عند سماعهم خبر زحف حسن باشا إلى تلمسان؛ لكن حسن باشا لا حقهم حتى قرب مدينة فاس، هنا حُوصر الإسبان من جهة الجنوب، وعادت تلمسان إلى الأتراك وفقد الإسبان أيّ أمل لدعم محتمل من جهة تلمسان.

وصل الكونت دالكوديت في السادس من جوان إلى وهران، ومكث فيها ستة أيام؛ حيث كان ينتظر نتائج المفاوضات مع بعض شيوخ القبائل، وهذا ما جعل المؤرخين يعيبون عليه بأنّه ضيّع الوقت. إضافة إلى ذلك بدل أن يتجه شرقا صوب مستغانم ومزغران سار بجيشه في طريق طويلة نحو الجنوب إلى جبال تسالة والى ضواحي مدينة معسكر لجمع القبائل المتحالفة معه وتأديب قبائل موالية للأتراك، وفي طابور غير منظّم دامت هذه الحملة ثلاث أسابيع كانت كافية للمقاومين من سكان مدينة مستغانم لتنظيم صفوفهم. أصاب الجيش الإسباني إرهاق شديد في طريق عودته حيث قتل عدد غير معلوم من جنوده نتيجة الجوع وتناولهم فطرا ساماً، وهجمات القبائل المعادية لهم.

[1] –مرمول كربخال، المصدر السابق، ص333

[2] -(P).Ruff, Op. Cit, p.160

خلّد الشاعر الشّعبي سيدي لخضر بن خلوف[1] المعركة التي جرت بين سكان مستغانم والأتراك العثمانيين من جهة والإسبان والقبائل الحليفة لهم من جهة أخرى في قصيدته " قصة مزغران" فذكر تفاصيل مهمّة عن المعركة بصفّته شاهد عيان، وأحد المقاتلين الذين شاركوا في المعركة إلى جانب جيش حسن باشا.

بدأ الشّاعر بتعظيم ذلك اليوم الذي انتصر فيه الجزائريون ومقتل وجرح معظم الجيش الإسباني واستسلام ما تبقى منه، ومقتل الكونت دالكوديت، والذي يسميه الأهالي بالفرطاس (الأصلع)، يقول في مطلع قصيدته:

يَاْ فَاْرَسْ مِنْ ثَمَّ جِيْتْ اَلْيُومْ غَزْوَةْ مَزَغْرَاْنْ مَعْلُوْمَةْ

يَاْ عَجْلَاْنْ رَيَّضْ اَلْمَلْجُوْمْ رَاْيَتْ جْنَاْبْ اَلْشْلُوْ مَوْشُوْمَةْ

يَاْ سَاْيَلْنِيْ عَلَىْ طْرَاْدْ اَلْيُوْمْ قِصَّةْ مَزَغْرَاْنْ مَعْلُوْمَةْ[2]

بيّن الشاعر الشّعبي الطريق الذي سلكه الجيشين للوصول إلى بلدة مزغران[3]؛ حيث ذكر أنّ الجيش الأسباني سلك طريق الغرب إلى الجنوب فالشرق ووصل إلى مزغران. أمّا جيش حسن باشا انطلق من مدينة الجزائر وسار في سهل متيجة القريب من مدينة الجزائر وانضم إليه جموع القبائل المتحالفة في الطريق الذي مرّ في أراضيها:

مَاِ بَاْحُوْا بَاْلصَوْتْ إِلَّا شَطْنَا مِنْ زَيْدُوْرْ لْوَاْدْ اَفْكَاْنْ

قَطْعُوْا سِيْقْ وَاْتْوَجْهُوْا لَهْنَاْ زَاْدُوْا بَالْحَرْكَةْ لْمَزْغْرَاْنْ

وقال أيضا:

اْسْتَوْعَظْ اَلْسُلْطَاْنْ فِيْ طُلْبْتَهْ وَشْكَىْ وَمْشَىْ لْحُرْمْ اَلْثَعَلْبِيْ وَدْخَلْ

ظَلْ يْسِيْرْ بَعْسَاْكْرَهْ وَاَلْقَوْمْ فِيْ وَطْنْ مَتِيْجَةْ وَلْبَحْ اَلْمَاْ[4]

---

[1]-سيدي لخضر بن خلوف : شاعر شعبي ولد بناحية مستغانم، عمّر طويلا، أكثر من قرن من الزمن عاش في القرن السادس عشر ميلادي وسّمي بمدّاح الرسول صلى الله عليه وسلم، من كثرت القصائد التي مدحه فيها. ينتمي إلى قبيلة مغراوة البربرية التي تخيّم في الجبال المحيطة بمستغانم. أنظر أكثر تفاصيل: محمد الغوثي بخوشة، ديوان سيدي لخضر بن خلوف.

[2]-محمد الغوثي بخوشة، ديوان سيدي لخضر بن خلوف، نشر ابن خلدون، تلمسان، د.ت، ص182

[3]-مزغران: بلد صغيرة تقع على بعد 4 كلم غرب مدينة مستغانم، وهي مدينة ساحلية، وذكر ليون الأفريقي أنّها مدينة صغيرة بناها الأفارقة، قريبة من مصب نهر الشلف في البحر

[4]- المصدر نفسه، ص182، 183.

سلك حسن باشا الطريق البرّي عبر سهل متيجة، قرب حوض واد الشلف مضارب قبائل السويد العربية التي أنضمّت إليه، وقبائل بني راشد ومغراوة من القبائل البربرية حسب ما ذكر سيدي لخضر بن خلوف

أَخْذْ اَلْوَاْدْ اَلْشَايَعْ اَلمِعْلُوْمْ وْفِيْهْ اْظْلَاْنْ اَسْوِيْدْ مَلْمُوْمَةْ

مِنْ بْنِيْ رَاْشَدْ وْآَلْ سْوِيْدْ مَنْكُمْ خَلفْتْ سُلْطَاْنَاَ واجْوَاْدْ[1]

هذه ما أكدّه دييغو هايدو أنّ باشا الجزائر خرج من المدينة بجيش قوامه ستة آلاف من الانكشارية وانضمّ إليه ستة عشر ألفا من الفرسان والمشاة أتى بهم شيوخ القبائل العربية[2]، وذكر كذلك أنّه أرسل إلى ميناء مستغانم عن طريق البحر أسطولاً بحرياً يتكوّن من أربعين فرقاطةً (سفن شراعية كبيرة)، وغليوطات وزوارق صغيرة مسلّحة تسليحا جيّدا بالمدافع والذخيرة وثلاثة آلاف من رياس البحر[3]. سيطرت هذه السّفن على المدافع والذّخيرة والمؤن التي كانت تحملها سفن الإسبان التي وصلت قرب مستغانم، وذكر مرمول أنّ الأتراك العثمانيين استولوا على أربع سفن ملكيةٍ اسبانيةٍ[4].

كانت انتكاسة كبيرة؛ حيث أصيب جنود الكونت بالجوع والتّعب، وأُحبطت معنوياتهم. دخل الكونت مزغران دون مقاومة تُذكر؛ لأنّ سكان المدينة أخلوها واحتموا بأسوار مدينة مستغانم بعد انسحابهم إليها. كانت معركة ضروسا التقى فيها الجيشان في بلدة مزغران، وانهزم فيها الجيش الإسباني، وقُتل فيها الكونت نفسه، واستسلم بقية الجنود لعوامل ذكرنا بعضها سابقا.

اختلفت الروايات حول مقتل الكونت دالكوديت بين الرواية التي ذكرها الشّاعر الشّعبي سيدي لخضر بن خلوف والمصادر الإسبانية، فسيدي لخضر بن خلوف قدّم رواية أقرب الى الحقيقة، بصفته شاهد عيان، فذكر أنّ مقتله كان على يد أحد أحد الجنود ولم يذكر أكان من الانكشارية أم من رجال القبائل المتحالفين مع الأتراك؛ إذ ذكر أنّه تعارك معه بالأيدي والمبارزة بالسيف، وحزّ رأسه وأسقط أسنانه بنطحة رأسه، قال:

كْبِرْ لْنَيْفْ اَلْكَلْبْ رَاْسَهْ طَاْرْ وَالْرَقْبَةْ مِنْ اَلْحْنَفْ مَقْطُوْعَةْ

ضَرْبَهْ شَاْطَرْ حَطْ بَالْمَطْيَاْرْ يَلْغَىْ لَهْ بْأَصْوَاْتْ مَنْزُوْعَةْ

[1]-محمد غوثي بخوشة، المصدر السابق، ص183، 184.

[2] -(D). de Haedo , Op.Cit, p.115.
[3]-Ibid, p.115

[4]-مرمول كربخال، المصدر السابق، ص333.

وَاَلْمْدَرَّعْ فِيْ اَلْحِيْنْ سَاَرْ اَشْطَاْرْ وَاَلْشِيْعَةْ باَلْسَيْفْ مَقْلُوْعَةْ

وَمْسَى اَلْشَاْرَبْ كَلْتَهْ مَقْسُوْمْ وَاَلْسَنَّةْ بَاَلْنطَحْ مَفْرُوْمَةْ[1]

أمّا مرمول كربخال فيصف موته بالشجاعة النادرة؛ لأنّه كان يحرّض جيشه على القتال وعدم الاستسلام، بعدما أصاب جيشه هرجٌ ومرجٌ، فسقط عن فرسه فداسه جنوده بعد تدافعهم؛ حيث قال:"...لكنّه لم يقدر على اختراق الحشد المندفع فرارا إلى الداخل؛ بل إنّ فرسه قد حرن به وثار ملقيا بركابه، من فوق ردفه فداسه جمهور الجنود الذي كان مهتمّا بخلاصه أكثر من اهتمامه بواجبه... فسرعان ما اختنقت أنفاسه ومات مُداسا بأقدام جنوده"[2] .

وخوفا من إحباط معنويات الجنود اتّفق دون مارتين وضبّاطه أن يدفنوا الجثة في مسجد المدينة وهذا ماذكره مارمول وسيدي لخضر بن خلوف.

طُلْ عْلَىْ اَلْفَرْطَاْسْ يَوْمْ مَاْتْ فِيْ اَلْمَغْرَبْ أَهْلْ اَلْخَزْيْ رَدْمُوْهْ

اَحْلَفْ لْهُمْ سُلْطَاْنَا بَثْبَاْتْ شِيْبْ اَلْنَّاْرْ مِنْ اَثْرَىْ جَبْدُوْهْ

اَحْتَنْطُوْا بَاَلْفَاْسْ وَاَلْمَسْحاْتْ لَنْ وَجْدُوْهْ مِنْ اَلْثْرَىْ جَبْدُوْهْ[3]

عاد حسن باشا مُنْتَشِيا بنصره يجُرُ غنائم كثيرة وآلاف الأسرى من خمسة آلاف إلى ستة آلاف أسير حسب ما ذكر بول روف[4]. وكان ضمن هؤلاء الأسرى دون مارتين الذي أصيب بجرح خطير، وبقي في الأسر مدة سنتين[5]، وبعدها فداه أخوه دون ألنسو. أمّا جثة الكونت سُلِمت لابنه بعد أن ألقي حسن باشا التحية العسكرية على جثتة، ووضعت على ظهر بغل مُسرّج وساقها الأهالي إلى مدينة وهران.

---

[1]-محمد الغوثي بخوشة، المصدر السابق، ص185.

[2]-مرمول كربخال، المصدر السابق، ص 336.

[3]-محمد الغوثي بخوشة، المصدر السابق، ص186

[4]-(P). Ruff, Op. Cit, p.176

[5] -(H-D). de Gramont, Op. Cit, p.90

ج- إقليم بني راشد:

وصف ليون الإفريقي هذا الإقليم بأنّه يمتد على طول نحو خمسين ميلا من الشّرق إلى الغرب وعلى عرض يقرب من خمسة وعشرين ميلا، وذكر أنّ جهته الواقعة جنوبا كلُّها سهول والواقعة شمالا كلّها مرتفعات[1]. أمّا مرمول فهو يتحدّث على أنّ بعض سكانه في الجبال، ويسكنون القرى ويشتغلون بزراعة الحقول والكروم، أمّا البعض الآخر فيجوبون الآفاق كما يفعل الأعراب، وهؤلاء أكثر غنى وشهرة وخيلا وجِمالا[2].

إنّ هذا الإقليم فيه اثنتان من مدنه الرئيسية وهما: قلعة هوارة التي تشمل على أربعين دارا للصنّاع والتُجّار، والمدينة الثانية هي معسكر التي تقع جنوبا، مبنية فوق ربوة غير مرتفعة كثيرا ويُقام فيها سوق أسبوعي يأتيها التُجّار من كل حدب وصوب، وقد زارها الحسن الوزّان في القرن السادس عشر ميلادي، ووجد فيها خليفة الملك مع فرسانه[3]. تعود أصول سكان بني راشد إلى قبائل بربرية زناتية، نتج عن قبائل بني راشد ثلاث بطون وهي: بنو يلومي، وبنو وامانو، وبنو واسين[4] .

منذ الوهلة الأولى حاول الإسبان التوسّع جنوبا لإكتشاف أراضي جديدة أو البحث عن مصادر لتموين مدينة وهران بالسلع والحبوب والخضر والفواكه، واللحوم، وذكر أبو راس الناصري أنّ الإسبان وصلت غاراتهم حتى جنوب مدينة معسكر، يساندهم رجال من بني عامر؛ حيث قال: " إنّ الكفرة مرّة غزوا على قوم مهدي الشيخ سيدي عيسى بن موسى التيجاني في وسط المائة العشرة وهو حينئذ نازل شرقي نهر الطاغية فأتت قنبرة أمامه وصارت تذري التراب وتصوت فأمر بالرحيل من حينه، وكان عارفا فعبروا النّهر ودخلوا في غابة عظيمة يقال لها دار الهنا، وإذا بالجند واقف في حافة الواد الشرقية من الكفرة وبني عامر"[5]. وهذه المنطقة مضارب لقبائل الحْشَمْ العربية في منطقة فروحة، وجرت معركة بين الإسبان والحشم قُتل في المعركة شيخ الحشم " العروصي"[6]، وفي أثناء

[1]-الحسن الوزان، المصدر السابق، ص26.

[2]-مرمول كربخال، المصدر السابق، ص324

[3]-الحسن الوزان، المصدر السابق، ص26.

[4] -Lespinasse, Note sur le Hachem de Mascara, R.A, N° 21, 1877, p.142.

[5]-أبي راس الناصري، المصدر السابق، ج1، ص 125.

[6]-المصدر نفسه، ص125.

عودتهم أغاروا على قرية الكرط[1] عدة مرات وقتلوا الكثير من أهلها وهرب جلّ الباقين[2]. إضافة إلى غزوهم قبائل بني شقران، الذين استقروا في سلسلة الجبال الواقعة شمال مدينة معسكر.

6-علاقة الأسبان ببعض شيوخ القبائل:

برزت عدة شخصيات من شيوخ القبائل في القرن السادس عشر ميلادي سواء التي تحالفت مع الإسبان وأعلنت ولاءها لهم، والتي العداء لهم منذ الوهلة الأولى وتحالفت مع الأتراك العثمانيين. بعض شيوخ القبائل تذبذب ولاءهم حسب قوة الخصم وضعفه، وبحكم الطبيعة القبلية للمنطقة ، وفاعلية ومكانة القبيلة الجزائرية سارعوا إلى الاتصال بشيوخ القبائل والرجال النافذين في المنطقة المجاورة لوهران، وكذا المناطق البعيدة عنهم.

من بين هذه الشخصيات عبد الرحمن بن رضوان شيخ بني عامر، أحد الشخصيات التي تحالفت مع الإسبان في المنطقة. ولعب دورا أساسيا في التقريب بين بعض ملوك بني زيان وحكّام وهران، خاصة في فترة تولي الكونت دالكوديت الحكم في وهران في الفترة الممتدة بين 1534م و1558م. لم تُحدّد المصادر التي تحدّثت عنه من أيّ قبيلة ينتمي سوى انّه من بني عامر، لكن الشيخ عبد الرحمن بن رضوان كان صاحب نفوذ كبير في المنطقة، وقادر على تجنيد آلاف الفرسان من القبائل المختلفة، فقد ذكر عبد القادر المشرفي قبيلة من بني عامر تدعى العوامر أو بني عامر، وقال أنّ هذه القبيلة تُنسب الى جدّهم عامر[3]، والراجح أنّه شيخ قبيلة أولاد موسى القبيلة التي لطالما كانت وفية له في تجنيده لفرسانها.

كان عبد الرحمن بن رضوان جدّ لأحد ملوك بني زيان من أمه وأبو عبد الله محمد[4]، وكثيرا ما كان يضغط على حفيده لعقد اتفاقيات مع الأسبان، تجاوزت مراسلاته الكونت دالكوديت إلى الملك الاسباني شارلكان. أرسل عبد الرحمن بن رضوان رسالة مؤرخة في 3 فيفري 1535م إلى شارلكان يدعوه لعقد حلف مع حفيده مولاي عبد الله، ودعمه ضد خصومه الأتراك، المهدّدين لمصالحهما، ويخبر أنّه أودع ابنه رهينة للأسبان في وهران

[1]-الكرط: تقع هذه القرية على بضع كيلومترات غرب مدينة معسكر، تعد موطن لعائلة المشارفة التي لها باع في العلم والشرف، ومازالت بعض أثار المدينة اتي خربها الأسبان، ويقال أن تأسيسها كان قبل تأسيس مدينة معسكر.

[2]محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص145.

[3]-عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص21.

[4]-(P). Ruff, Op. Cit, p.36.

ليؤكّد حسن نيته معهم، وفي نهاية سنة 1535م أكّد بن رضوان للكونت دالكوديت أنّه يستطيع أن يجند العرب القاطنين بمنطقته لخدمة الإسبان، وهو وكأنّه إعلان ولاء لهم[1].

إنّ نفوذ الرجل تجاوز قبائل بني عامر والقبائل الحليفة معهم؛ بل أصبح الآمر النّاهي في القصر الزياني بتلمسان، فحفيده مولاي بوعبد الله قليل الخبرة ويواجه منافسة شرسة من أخوه أحمد وأمراء زيانيين آخرين فرسائله المحفوظة في الأرشيف الأسباني في سمانكاس مخطوطة بالخط العربي أو مترجمة باللغة الإسبانية، والتي تبادلها مع حكام وهران الأسبان والملك الإسباني تؤكّد هذا النفوذ والقوة. وقد نشر بعض هذه الرسائل عدة باحثين منهم الباحث الفرنسي ايلي دي لبيريمودي والباحثة شانتال دي لفيرون.

فكّر الكونت دالكوديت في حملة شارلكان المحتملة على مدينة الجزائر سنة 1541م، ولتأمين الجبهة الداخلية وإعلان ولاء القبائل المتحالفة معهم في المنطقة الممتدّة من تلمسان غربا إلى مدينة تنس شرقا، دَلَّلَ العَقَبَاتْ والخلافات بين شيخ السويد حميدة العبد والملك الزياني مولاي بو عبد الله، وقوى العلاقات بينه وبين شيخ بني عامر عبد الرحمن بن رضوان[2]. ولتموين الحرب المحتملة على مدينة الجزائر عرض حاكم وهران على بن رضوان تجديد معاهدة الحلف مع التلمسانيين قبل انقضاء أجال المعاهدة السابقة الموقّعة قي 24 جوان 1535م، فطلب عشرة آلاف دوبلا سنويا، وقد اصطحب ابن رضوان معه إلى مدينة وهران ثلاثة آلاف فارس، و15000 فنق من القمح و5000 أخرى من الشعير، و1500 رأس من البقر. إضافة إلى تسليم خمسين رهينة من أبناء شيوخ القبائل للإسبان، والمساهمة ببناءحصن في ميناء أرزيو ورشكول[3].

كثيرا ما كان الإسبان يُحرّضون شيوخ القبائل ضدّ بعضهم البعض، وحتى بين حلفائهم الذين يتحالفون معهم، في رسالة مؤرخة يوم 2 أو 3 جويلية سنة 1535م أرسل ابن رضوان يُفَصِّلُ تفاصيل المعركة بينهم وبين قوات المنصور بن بوغانم قرب واد يسّر[4]، وبيّن في هذه الرسالة أسباب انهزامهم أمام قوات المنصور بن بوغانم، ويُذَكِّر الإسبان أنّ أفراد وحداته قاتلوا إلى جانب الإسبان بشجاعة[5].

---

[1]-(P).Ruff, Op.Cit, p.111.
[2] - Ibid, p. 128.
[3] -(Ch). de la Veronne, Op.Cit, p.127

[4]–حسب مرمول أنّ هذا النهر يقع على بعد خمسة فراسخ، حوالي 40 كلم، وقد أطلق عليه الأسبان واد تِبْدَة، وحسب نفس المصدر فالاسم يعود لمدينة قديمة (رومانية) مخربة بقيت أطلالها ذات حصون، ويمر هذا النهر عبر سلسلة جبال تسالة التي تقع في الجنوب الغربي من مدينة وهران. ينبع على بعد 30 كلم جنوب شرق تلمسان، ويلتقي مع نهر تافنة (سيقا سابقا) شمال مدينة تلمسان، على بعد 4 كلم بقرب من بلدة الرمشي حاليا، ويأخذ نهر تافنة الاسم حتى مصبه قرب رشقون في البحر.

[5]- (E). de la Primaudaie, Op. Cit, p.109

كانت النتيجة لصالح المنصور بن بو غانم؛ إذ انهزم عبد الرحمن بن رضوان، وقتل وأُسر الكثير من الجيش الاسباني وأُخِذَ قائد الجيش الاسباني ألفونسو مارتينيس أسيرا إلى مدينة تلمسان ولم ينجُ من الإسبانيين سوى عشرين جنديا فرّوا إلى مدينة وهران، وهذا حسب ما ذكر مارمول في روايته[1].

كان المنصور بن بوغانم شخصية نافذة مثله مثل بن رضوان، لم يكن مُلتزماً ولا وَفِيّاً لأي قوة نافذة في الجزائر، أحيانا يتحالف مع المغاربة، وأحيانا أخرى مع الإسبان، وحين تتسنّى له الفرصة يتحالف مع الأتراك، يهمّه فقط استمرار مصلحته الشخصية وقبيلته، وهو قائد بني راشد ويعدّ جد أحمد أمراء بني زيان؛ لأن ملوك بني زيان كانت تربطهم علاقة مصاهرة مع شيوخ القبائل لضمان ولائهم، والراجح أنّ حفيده الأمير مولاي أحمد الذي قام بالثورة ضد أبيه السلطان مولاي عبد الله[2].

كان الصراع بين المنصور بن بوغانم والشيخ بن رضوان شديدا الأول شيخ قائد قبائل بني راشد البربرية والثاني شيخ قبائل بني عامر العربية لتنصيب حفيديهِما على رأس السلطة في تلمسان وضمان مصلحتهما الشخصية. وهناك مراسلات بين حكّام وهران والقائد المنصور بن بوغانم، ونشر دي لبريمودي رسالة أرسلها الكونت دالكوديت إليه يُحذّره من فتح اتصالات مع خير الدين بربروس ، وأنّ غرض بربروس هو احتلال مدينة تلمسان لا غير[3].

رافق المنصور بن بوغانم الأمير الزياني الهارب مولاي محمد بن عبد الله إلى مدينة الجزائر لنجدته ضد أخيه مولاي أبو عبد الله وجدّه عبد الرحمن بن رضوان الوصّي عليه، وبيّن للأتراك أنّه الوريث الشرعي لمدة عشر سنوات وشهرين وَوُلِيَّ عهد أبيه قبل أن يغتصب أخوه العرش[4]. بقي مولاي بوعبد الله على كرسي العرش الزياني لمدة ثمانية عشر شهرا، وتوفي في الثامن من شهر رمضان سنة 948هـ الموافق لسنة 1543م، وخلفه ابن أخيه أحمد المنتصر؛ لكن تلمسان حاصرها الأمير اللاجئ بمدينة الجزائر وحليفه المنصور بن بوغانم، وأصبح هو ملك تلمسان الجديد بمساعدة المنصور بن بوغانم[5].

ظهرت شخصية حميدة العبد مع بداية الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر وهو شيخ قبائل سْويد (لَمْحَالْ) العربية، وكان أميرا لمدينة تنس الساحلية التي تعرّضت لهجوم من عروج بربروس وقبل هذا دخلت مدينة تنس في

[1]-مارمول كربخال، المصدر السابق، ص313

[2]-(E). Mercier, Op. Cit, p. 35
[3] -(E). de la Primaudaie, Op. Cit, p. 177
[4] -Ibid, p.526
[5] -Ibid, p.526

اتفاقية خضوعٍ للإسبان سنة 1506م[1]، ويُكتبُ اسمه أحيانا حَمِيْدْ العبد وأحيانا أخرى أحْميدة، ويُقال إنّ سبب تسميته بالعبد أنّ أمه كانت سوداء[2]. ومازال اسمه متداولا في الأوساط الشعبية بالمنطقة حتى الآن، وتقول الروايات أنّ شيوخ سويد الذين أتوا من بعده كلّهم تلقّبوا بهذا الاسم تكريما لبطلهم الذي عاش في القرن السادس عشر، وقد سيطرت قبيلة لمحال على مدن مهمة منها مستغانم ومزغران، وتنس، وأعلنوا إمارتهم في هذه المناطق[3]،وشيّدوا برجا في مدينة مستغانم عُرف ""ببرج لمحال".

استعرض والسن استرهازي عدة انجازات للشيخ حميدة العبد منها أنّه أنشأ عدة مطامير لتخزين الفائض من الحبوب قرب مستغانم، ولاحقا بنى مدينة صغيرة قرب هذه المطامير (تدعى المطْمر)، وبنى جسرين (قنطرة) أحداهما قرب منطقة سيق جنوب مدينة وهران، والآخر قرب واد الشلف[4].

إنّ قوة حميدة العبد نابعة من قوة قبيلة سويد، وكما ذكرنا سابقا هَادَنَ حميدة العبد الإسبان وتحالف معهم؛ بل دخل معهم في صراع عدة مرات. وينطبق نفس الشيء على الأتراك العثمانيين الذين واجهوا القبيلة في معارك وحروب لم تنته إلاّ بسقوط حكمهم على يد الفرنسيين سنة 1830م.

لم يعد اسم حميدة العبد يُذكر مثل سابقيه من شيوخ القبائل الذين ذكرناهم إمّا أنّهم انهزموا في الحروب أو ماتوا أو أنّ نفوذهم تقلّص. مات حميدة العبد بعد فراره إلى الصحراء، وقبل ذلك عاد إلى تنس بعد مفاوضات مع عروج بربروس واستعادة ملكه[5]، وتعهده بعدم القيام بالثورة ضدهم.

في ضواحي وهران نجد عدة شخصيات نافذة ومقربة من الإسبان، وقد اعتمدت الباحثة شنتال دي لفيرون كعادتها على الأرشيف الإسباني لتبيّن اتصالات هذه الشخصيات بهم. في منطقة بوسفر القريبة من المرسى الكبير والواقعة على بعد بضعة كيلومترات غرب المدينة، نجد الشيخ سليمان، وإبراهيم، وعدة أشخاص من عائلة أحمد كنيس[6](هكذا ذُكر اسمه) أحد أعيان مدينة وهران الذي كان له فضل في دخول الإسبان لوهران أثناء اجتياحها من قبل جنود الراهب ثيسنيروس سنة 1509م. حسب نفس الباحثة فقد ذكرت عدة أشخاص في المنطقة الجبلية

[1]-صالح عباد، المرجع السابق، ص34.

[2]-محمد حاج صادق، مليانة ووليّها سيدي أحمد احمد ين يوسف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1964، ص31.

[3]-(W). Esterhazy, Op. Cit, p. 107.

[4]-Ibid, p. 109

[5]محمد حاج صادق، المرجع السايق، ص 32.

[6] -(Ch). de la veronne, Op. Cit, p.12

المحيطة بوهران وهم: الشيخ علي، والشيخ لحسن، أمّا شيوخ قبيلة مديونة فذكرت منهم: الشيخ بلقاسم كونتة[1]. وقد ورد اسم الشيخ غِيرَف بكثرة سنة 1543م بعد حملة الإسبان على مدينة مستغانم وضواحيها، يقول فرانسيسكو دي كويفا (de la Cueva):" في يوم الخميس وعلى الساعة الثّامنة صباحا؛ تحرّك الكونت دالكوديت بالجيش من المخيّم الذي ضُرِبَ قرب مستغانم، وفي هذه الإثناء سار الشيخ غيرف الذي كان في الطريق برفقة ثلاثمائة من الرُّماة لمساعدتنا، ومعه كامل دُوّاره من نساء وأطفال يسوقون أربعة آلاف من الماشية"[2]. وهو شيخ قبيلة من بني عامر؛ لكن المصادر الاسبانية لم تُحدّد اسم القبيلة التي كان شيخها في هذه الفترة .

ظهر اسم بعض الفقهاء والمرابطين في القرن السادس عشر الميلادي منهم سيدي أبو يحيى الكُبيني، الذي ترأس بعثة دبلوماسية من تلمسان أرسلها السلطان الزياني أبو عبد الله محمد (أبو قلموس) في جوان 1511م إلى مدينة وهران لعقد اتّفاق سلام مع الإسبان(asiento en lo de la paz). وفي سنة 1515 بعث الملك الزياني سفارة أخرى إلى وهران ترأسها الفقيه المفتي العام لمدينة تلمسان المسمى "الفقيه العُبيدي" لعقد اتفاق مع الأسبان تدعي [3](Parias).

راسل بعض الشيوخ والشخصيات الملك الإسباني شارلكان والملكة خوانا وأخوها الأمير فليب الثاني أبرزهم الشيخ امحمد مرزوق والشيخ الحُسين والشيخ سليمان وأخوه اسحاق. وكانت هذه المراسلات بين سنتي 1531م و1532م[4]. بعد وفاة عبد الرحمن بن رضوان ظهر على المشهد السياسي والحربي الشيخ غيرف وهو شيخ بني عامر، كان له دور مهم في تجنيد قبائل بني عامر لصالح الإسبان، وَذُكِرَ اسمه في الوثائق الاسبانية الرسمية .

بالرّغم من قوة المملكة الإسبانية في عهد الإمبراطور شارلكان، واتّساع حدود مستعمراتها وانشغالها الكبير بأمريكا الجنوبية، والحروب والتمرّدات في أوربا، والتهديد العثماني في شرق أوربا، إلاّ أنّ الإمبراطور الإسباني والذين خلفوه راسلوا شيوخ القبائل المحليين في وهران وضواحيها، لأهمية المنطقة في السياسة الاسبانية.

[1]-(Ch). de la Veronne, Op.Cit, p.13
[2] -(F). de la Cueva, Op. Cit, T.12, 1892, p.463.
[3] (Ch). de la Veronne, Op. Cit, p. 20
[4] -Ibid, p.p. 79. 81.

عارض بعض المرابطين والمتصوفة بقوة الاحتلال الإسباني من بينهم الوليّ الصوفي سيدي أحمد بن يوسف[1]، الذي له نفوذ كبير في الجزائر شرقا وغربا، ودعّم الأتراك العثمانيين ضد الأسبان وكثيرا ما عارض تحالف الزيانيين مع الغُزاة الإسبان، وخاصة في عهد السلطان أبو حمو الثالث (1515م-1527م)، الذي حكم عليه بالموت حرقا وهو حي؛ لكنّه نجا من المحرقة[2]. كان يدعوا على الزيانيين لطغيانهم وانحرافهم عن الدين، فقال: " شوّشونا شوّشهم الله برّا وبحرا"، وقد سُجن الفقيه في عهد الملك أبو حمو الثالث أكثر من مرّة.

التقى أحمد بن يوسف لأول مرة مع عروج بربروس في منطقة كرشتل الساحلية؛ حيث عرض عليه عروج مساعدته في دحر المحتلّين الإسبان؛ لأنّ له نفوذاً واسعاً في الغرب الجزائري حسب قول بودان[3] (Bodin).

رحّب الوليّ الصوفي بهذا العرض؛ لأنّه كان يرى في الأتراك العثمانيين دور كبير في الجهاد البحري وإنجاد مسلمي الأندلس من محاكم التفتيش الأسبانية، ونقل بودان عن صاحب البستان أنّ الشيخ احمد بن يوسف دخل قلعة بني راشد مع الأتراك سنة 1517م وخرج منها سنة 1518م بعد أن اقتحم المدينة جنود أبا حمو الثالث بدعم من الأسبان[4]. يقول الأغا بن عودة المزاري عنه نقلا عن أبي راس الناصري: "كان يدخل مسجد المدينة (مدينة القلعة) حافيا ويقول أنا أُنجّسَهُ قبل أن يُنَجِّسَهُ الكفّار، فلم يكن إلاّ قليل حتى أتى عروج والأسكندر (يعني به إسحاق) والأتراك فذهبوا إلى تلمسان فبقي عروج ورجع الأسكندر إلى القلعة فحُصِرَ بها ودخل النصارى للجامع الأعظم ونجّسوه كما قال"[5].

استطاع الأتراك أن يكسبوا رجلا يستطيع أن يُجنّد القبائل الواقعة غرب مدينة الجزائر بأكملها سواء كانت قبائل بربرية أو عربية، فهذه القبائل تكنُّ الاحترام لهذا الولي الصوفي، الذي ينتمي إلى قبائل بني راشد الزناتية (قبائل بني مرين)، وليَضْمَنَوا عدم قيام هذه القبائل بالثورة ضدّهم.

سيدي محمد الأقدار عارض الإسبان؛ وحرّض قبيلة سويد على مقاتلة أفراد قبيلة هبرة، التي كانت تسلب لاجئيْ الأندلس قرب ميناء أرزيو، وكثيرا ما يَبْقِرُونَ بطون النسوة الأندلسيات في اعتقادهم أنّ بطونهن تحوي على

---

[1]-هو أبو العبّاس أحمد بن عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف، المعروف بالراشدي، لأنّه من قبائل بني راشد، ووصل صيته حتى المشرق الإسلامي. وكثيرا ما كان يتكلّم بلسانه البربري الزناتي، أخذ عن شيوخه القراءات السبع، والتصوف، والسيرة النبوية دفن في مدينة مليانة في صفر 931هـ الموافق لسنة 1524م. أكثر تفاصيل أنظر: محمد حاج صادق، المرجع السابق.

[2]-محمد حاج صادق، المرجع السابق، ص102.

[3] -(M). Bodin, Note et Question sur Sidi Ahmed Ben Yousef, R.A, N°66, 1925, p.126

[4]- Ibid, p.130

[5]-الأغا بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص213.

المجوهرات حسب ما ذكر الأغا المزاري[1]. كانت النسوة في قبيلة هبرة لما تراكمت عليهن الحروب والمآسي من قبائل سويد من جهة وبين الإسبان وهبرة من جهة أخرى، فيجتمعن ليلا ويَقُلْنَ كلاما ممزوجا بالأسى:

فِيْنَاْ بِيْنْ اَلْنَّاْرْ يَاْرَبْ وَاَلْنَّاْرْ   بِيْنْ اْنْصَارَ دَكْ وَأَنْصَارْ قَدَّاْرْ

أَنْتْ اَلْمُعِيِنْ يَاْ اَلْعَزِيْزْ اَلْقَهَّاْرْ   يَاْ رَبْ عْلِيْنَاْ دَبَّرْ

مِتِيْنْ وْعَشْرِيْنْ فِيْ مَشْوَاْرْ   دُوَّاْرْ مِنْ مْلاَحْ مَاْ عَزَّهْ دُوَّاْرْ[2]

ذكر محمد بن يوسف الزياني إنّ الولي الصوفي سيدي ابلاحة المهاجي من قبيلة أولاد علي الموالية للإسبان غزوه الإسبان وهو مقيم بزاويته بوطن تسالة، وقتلوا وسبّوا الكثير من مريديه وأسروه هو وبناته الثلاث، وبقي في الأسر مدّة، وفُدي مع ابنتيه، الأولى فداها شيخ أولاد سليمان بوعزة بن حميدة، والأخرى فداها شيخ أولاد علي ولد دموش، أمّا الثالثة فهربت من الأسر بوهران[3]. وسبب هجوم الإسبان على زاويته هو معارضته لهم حسب تقرير أرمبورو.

7-توسع المغاربة في الأراضي الجزائرية:

تدخل المغاربة في شؤون الجزائر بقوة منذ سنة 1547م؛ حيث أرسل الشريف السعدي السلطان محمد المهدي[4] ابنيه لاحتلال مدينة تلمسان والتّوسع أكثر نحو الشرق، وذلك في سنة 1551م. حين أرسل قوة عسكرية إلى غرب الجزائر بقيادة محمد الحرّان والأمير عبد الله؛ حيث دخل محمّد الحرّان مدينة تلمسان بسهولة، بعد هروب الملك الزياني أبو زيان إلى وهران[5]، أمّا ابنه الآخر عبد الله اتّجه شرقا واحتل مدينة مستغانم بعد انسحاب قبائل بني عامر عن طريقه وذكر محمد الصغير الوفراني أنّه وصل إلى واد الشلف؛ حيث قال: "استولى

[1]-الاغا بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص212.

[2]-المصدر نفسه، ص212.

[3]-محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص150.

[4]-هو محمد المهدي القائم بأمر الله بن عبد الرحمن يصل نسبه الى فاطمة الزهراء زوجة علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، حسب ما ذكر مؤرخ الدولة السعدية محمد الصغير الوفراني، وهو سلطان الدولة السعدية، وقد قضى على حكم آخر سلطان مريني (أبو حسون)، وجعل عاصمة دولته الجديدة مدينة فاس.

[5]-(P). Ruff, Op. Cit, p. 143.

على تلمسان وأعمالها إلى واد الشلف ، وكان دخوله لتلمسان يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وتسعمائة"[1] .

من أسباب دخول جيش الشريف السعدي لتلمسان ووصول جيشه إلى مدينة مستغانم هو التخوّف من توسع الأتراك العثمانيين نحو فاس وتهديدهم السلطة الجديدة، والدليل على ذلك استقبال حسن بن خير الدين بربروس عدوّه اللّدود أبو حسون آخر سلاطين بني مرين بعد طلب اللّجوء إليهم.

ردّ السلطان السّعدي بحزم على مبعوث السلطان العثماني سليمان بعد عرض الأخير الحماية مقابل الطاعة؛ حيث قال:" إنّ سلطان المغرب لم يدخل في صراع معكم حول ممتلكاتكم في مصر"[2]. هذا الرّد يدل على أنّ السلطان السعدي محمد المهدي لن يقبل أيّ تدخل أو حماية عثمانية على بلاده، واحتجّ على دعم السلطان العثماني غريمه أبو حسون الوطاسي.

لم يسقط حصن المِشْوَرْ بالرّغم من سقوط مدينة تلمسان في يد الأمير السعدي محمّد الحرّان، فقد دام حصار الحصن مدة تسعة أشهر، وتحصّنت فيه حامية تركية صغيرة بقيادة ضابط يدعى صافا وحوالي أربعمائة تركي[3]، قبل أن تأتي النجدة من مدينة الجزائر يقودها حسن بن خير الدين باشا.

تحالفت قبائل بني عامر هذه المرّة مع الأتراك العثمانيين في وجه العدو المشترك قوات الشريف السعدي الذي هاجم مدينة مستغانم واستباح أراضي بني عامر، رغم تجنيدها اثنا عشر ألف مقاتل من أبنائها، ومن جانب الأتراك العثمانيين كان قائد الجيش هو العلج علي ويساعده حسن قورصو ودارت المعركة عدة ساعات قرّر فيها الأمير السعدي مولاي عبد الله الانسحاب تاركا وراءه غنائم كثيرة حسب ما ذكر دييغو هايدو[4].

تابع الأتراك العثمانيون وبني عامر السير خلف جيش الأمير عبد الله الهارب؛ حيث دارت معركة أخرى بين الجانبين ساعات طوال، سال فيها دم غزير، وقُتل خلق كثير من الجانبين، ولما حسّ الأمير السعدي بالهزيمة فرّ إلى الأراضي المغربية. دخل العثمانيون ومعهم بني عامر إلى مدينة تلمسان رافعين الحصار عن الحامية التركية المتحصّنة داخل قلعة المَشْوَر ، وقُتل على اثر ذلك الأمير السعدي البكر محمّد الحرّان[5] .

---

[1]–محمد الصغير الوفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، مطبعة بردين، باريس، 1888، ص36.

[2] -(Ch). de la Veronne, **relation entre le Maroc et la Turquie dans la seconde moitié du XVI et le début du XVII**, R.O.M.M, N° 15-16, p.158.

[3]-(P). Ruff, Op. Cit, p.158.

[4]-(D). Haedo, Op. Cit, p.78.

[5]-Ibid, p. 79.

انتقم الأتراك العثمانيون من الملك السعدي محمد المهدي بطريقتهم الخاصة، بأسلوب الاغتيال، وكما ذكرنا سابقا بأنّه اغتالته مجموعة من الأتراك ادّعوا أنّهم فارين من مدينة الجزائر وطلبوا الحماية من الملك السعدي، قال صاحب نزهة الحادي في هذه الحادثة: "...بعثوا رجلا من أبطالهم يُقال له صالح الكاهية في شَرْذِمَة من أجنادهم مظهرين له أنّهم هربوا من السلطان العثماني ورغبوا في خدمته، والتّحصّن به من طلبهم ونيتهم الاغتيال، فلمّا قدموا على السلطان أبي عبد الله فرح بهم وأظهر لهم السرور بقدومهم...ولما أمكنتهم الفرصة منه وهو بحركته بجبال دون موضع يقال له الكلاكل، دخلوا عليه على حين غفلة من العسس فضربوه بشاقور ضربة واحدة"[1]. وباغتياله انتهى مشروع محمد المهدي القاضي طرد الأتراك العثمانيين من الجزائر حتى مصر، وغالبا ما كان يقول: "لا بد لي أن أذهب إلى مصر وأُخرج منها الأتراك من أحجارهم وأنازلهم من ديارهم"[2].

لم يكن الأتراك العثمانيون هم السبب الوحيد في غزو السعديين مدينة تلمسان ووصولهم حتى ضواحي مدينة مستغانم؛ بل وجود الإسبان في مدينة وهران كان يُؤَرِّقُ السعديين، فالإسبان كانوا يتدخّلون في شؤون الدولة الزيانية الموجودة على الحدود الشرقية للمغرب الأقصى، إضافة إلى السياسة الإسبانية الداعمة للأمراء الوطاسيين، ففي سنة 1555م لجأ الأمير الوطاسي مولاي الناصر الابن البِكْر للسلطان أبو حسون إلى مدينة وهران[3]، وقبل ذلك لجأ السلطان أبو حسون الوطاسي إلى مدينة مليلة[4] في شمال المغرب سنة 1549م[5].

إنّ السياسة في الجزائر خلال القرن السادس عشر ميلادي متناقضة جدا؛ فالإسبان انحاز إليهم الوطاسيين أعداء السعديين، و كانت رغبة الشريف السعدي احتلال وهران وطرد الإسبان إلاّ أنّه منذ سنة 1555م دخل الشريف السعدي في مفاوضات تحالف مع الإسبان لطرد الأتراك العثمانيين من الجزائر.

قام بالمفاوضات بين الطرفين (الإسبان والسعديون) المترجم غونزالو ايرنانديث، وهو ابن أحد الأمراء الزيانيين من أم اسبانية، والتاجر الجنوي المستقّر بمدينة فاس وبولو غريو (Pollo Grillo) وقائد بني راشد المنصور بن بوغانم واليهودي من مدينة وهران جاكوب كانسينو. في سنة 1554م وبداية 1555م كتب حاكم وهران إلى المولاي عبد الله الغالب يدعوه إلى عقد اتفاقية سلام بواسطة المنصور بن بوغانم، فكان الرّد السعدي ايجابيا لهذا

[1]-محمد الصغير الوفراني، المصدر السابق، ص43.

[2]-المصدر نفسه، ص42.

[3] -(R) . Ricard, et (Ch). de la Veronne, Op. Cit, p.78.

[4]-مدينة تقع في شمال المغرب على ساحل البحر المتوسط، احتلّها الاسبان منذ 1497 وبقيت إلى الآن أرضا اسبانية

[5]-Ibid, p. x.

الطلب[1]. وفي رسالة أخرى مؤرخة في شهر فيفري سنة 1555م اتّضحت رغبة الشريف السعدي إنهاء الوجود العثماني بالجزائر بالتعاون مع الإسبان، وعقد اتفاق سلام مع الملك الإسباني شارلكان؛ لكنّه طلب دعم اسبانيا له بعشرة آلاف رمح[2]. لقد وعد الإسبان المغاربة بدعمهم باثنا عشر ألف جنديا وقطع مدفعية، في المقابل يقدّم السعديون مبالغ مالية للإسبان، وتقديم رهائن لهم لضمان هذا الحلف[3].

لم يتحقق من هذا الحلف شيء؛ لأنّ الشريف السعدي محمد المهدي قُتل وتحرك الكونت وحده في مواجهة الأتراك العثمانيين والقبائل الحليفة له، فكانت النتيجة مقتل هذا الأخير في معركة مزغران عام 1558م.

في النصف الثاني من القرن السابع عشر ميلادي جهّز الشريف العلوي محمد الشريف حملة عسكرية على غربي الجزائر، وقد أنشأ مركز عملياته العسكرية على الجزائر في مدينة وجدة المغربية، يقول أحمد الناصري:" استولى على وجدة سنة ستين وألف هجرية (1650م) ثم دلّته العرب على أولاد زكري وأولاد علي وبني سنوسن المجاورين لهم، فشنّ عليهم الغارات وانتهبهم فدخلوا في طاعته، ثم سار ناحية ندرومة فشنّ الغارة على مطغرة وطرارة وولهاصة"[4]. وامتدت غارات محمد الشريف إلى مدينة تلمسان وأحوازها، فواجهه سكان تلمسان والحامية التركية بالمدينة، وأوقع منهم عدد كثير من القتلى حسب رواية أحمد الناصري[5].

أمام هذا الضغط الذي مارسه الشريف العلوي محمد الشريف على القبائل الجزائرية أذعنت له القبائل الصحراوية التي مضاربها جنوب مدينة تلمسان، منها عرب المعْقَلْ، وبني سناسن، وقبائل أنْكاَد، وبايعته قبائل حميان تحت الضغط الذي تعرضوا له.

لم يكتف الشريف العلوي بالسيطرة على تلمسان والمناطق القريبة منها؛ بل امتدّت غاراته حتى عين ماضي شرقا[6]، يقول أحمد الناصري: "لما انصرم فصل الشتاء خرج على طريق الصحراء فأغار على الجعافرة وانتهب أموالهم، وقدِمَ عليه شيخ حميان من بني زغبة، وهم في عداد بني عامر بن زغبة، فقدِمَ عليه في قبيلته مُبايعا له

[1]- (R). Ricard, et (Ch). De la veronne, Op.Cit, p. xi
[2]-Ibid, p.xii
[3] -Ibid, p. 345.
[4]--أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى –الدولة العلوية-، تح:جعفر النّاصري ومحمد النّاصري، ج7، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997، ص20.
[5]-المصدر نفسه، ص20.
[6]-تقع مدينة عين ماضي على بعد مئات الكيلومترات جنوب مدينة الجزائر، وفي القرن الثامن عشر ميلادي أسّس فيها أحمد التيجاني طريقة صوفية عُرفت بالطريقة التيجانية، أنظر: صالح عباد، المرجع السابق، ص 175، 176.

ومتمسّكا بطاعته، وقدِمت عليه دخيسة ففرح بهم ودلّوه على الأغواط وعين ماضي والغاسول فنهب تلك القرى"[1].

ردّ الأتراك على حملات الشّريف العلوي إرسال تعزيزات عسكرية من مدينة الجزائر إلى مدينة تلمسان وضواحيها، وما إن سمع محمد الشريف ذلك انسحب إلى الصحراء المغربية جنوبا أيّ أنّه كان يستعمل أسلوب الحرب الخاطفة على المناطق الغربية من الجزائر، وذكر الناصري أنّ عثمان باشا[2] أرسل سفارة تتكوّن اثنين من الفقهاء واثنين من كبار الضباط الأتراك يحملون رسالة منه إلى محمد الشريف العلوي، تشرح هذه الرسالة النتائج الوخيمة التي آلت إليها المناطق التي استباحها الشريف العلوي، يقول: "شتّت الغارة الشعواء على بني يعقوب ...وغادرتْ جماهيرهم تسعى على عيالهم الزياني والموزونة في أسواق مستغانم وديار مازونة، وجرَرْت ذيل المذلّة على أطراف الغاسول والاغواط، وقادك الجاهل الجهمُ محمود حميان لعين ماضي والصوانع وبني يطغان، فراحت سويد ينفُضُ كلّ بطل منهم غُباره وطينه"[3].

وتُبيّن الرّسالة أنّ قبائل بني عامر تحالفت مع الشريف العلوي في حملاته على المناطق والقبائل حيث قال باشا الجزائر في نفس الرسالة: " وزنتَ صولتك لبني عامر، لذاذة النفار لكنف الكافر"[4].

لم يستطع الأتراك العثمانيون وضع حدّ لحملات السلطان العلوي محمد الشريف ضد الحدود الجزائرية الغربية، وتهديده بايلك الغرب؛ بسبب الأزمة السياسية التي مرّ بها نظام الحكم التركي بالجزائر (نظام البشاوات) الذي انتهى سنة 1659م، وتفشّي داء الكوليرا بالجزائر لمدة ثلاث سنوات ابتدءا من سنة 1648م[5]. فكانت أفضل السبل لثنيْ محمد الشريف على شن الغارات على الجزائر بالمفاوضات، وأسفر عن ذلك اتفاقية احترام الحدود بين البلدين سنة 1649م[6].

---

[1] -احمد بن خالد الناصري، المصدر السابق، ص21

[2] -ذكر مولود قايد أنّ الاجتياح المغربي على بايلك الغرب كان في ولاية يوسف باشا (1647-1650م)، وكانت الحملة على الاغواط وعين ماضي سنة 1548م، وعثمان باشا كان في عهد حكم الدايات.

[3] -أحمد بن خالد الناصري، المصدر السابق، ص23.

[4] -المصدر نفسه، 23.

[5] -(H-D). de Grammont, Op. Cit, p.200.

[6] -(M). Gaid, Op. Cit, p.131.

بدأ السلطان المغربي الشريف العلوي مولاي إسماعيل[1] حملة كبيرة على بايلك الغرب حتى إلى الشرق الجزائري بالتواطؤ مع مراد باي، الذي عزل الباي تشاكر[2]، بدعم من سلطان المغرب الأقصى، وقد جانب السلطان مولاي إسماعيل مدينة تلمسان وسلك الطريق الصحراوي جنوب المدينة، وقد بايعته القبائل المخيّمة في تخوم الصحراء منها كما ذكرها أحمد الناصري: ذوي مْنيع، ودخيسة، وحميان، والمهاية، أولاد عمود، وأولاد جرير، وبني عامر، والحشم[3]؛ أيّسلك طريقا مختصرا تفادى ملاقاة الحاميات التركية في مدن: تلمسان؛ معسكر؛ مستغانم؛ مازونة وقبائل المخزن الوفية للأتراك العثمانيين.

تحالفت بني عامر مع الشريف العلوي مولاي اسماعيل ضد الأتراك؛ حيث ذكر الناصري أنّ بني عامر كانت الدليل الذي وجّه جيش مولاي اسماعيل شرقا، وكان باشا الجزائر الحاج مصطفى (1700-1705م) جهّز جيشل قوامه سبعة آلاف جندي لملاقاة السلطان العلوي، يتكوّن من ستة آلاف جندي من المشاة وألف صبايحي، أمّا جيش المغاربة فعداده خمسين ألف جندي[4]. أمّا دي غرامون فقد قال: " في سنة 1692م انطلق باشا الجزائر لملاقاة سلطان المغرب بجيش يتكون من عشرة آلاف انكشاري وثلاثة آلاف صبايحي ومن المقاتلين الزواوة، وكان اللّقاء عند معبر واد ملوية، وكان جيش أعدائهم يتكون من أربعة آلاف مقاتل وثلاثة آلاف من الخيول، انهزم فيه جيش السلطان؛ حيث قُتل خمسة آلاف شخص، وأثخن فيهم الأتراك السيف حتى أسوار مدينة فاس"[5].

ناقض الناصري رواية دي غرامون حول مكان المعركة، فهو يؤكّد أنّ السلطان نزل في منطقة واد الشلف تسمى واد صا، يقول: "نزل على رأس واد الشلف في منطقة المسمى اليوم بواد الصا، وكان رائده إليها والدّال له عليها بنو عامر بن زغبة، فخرج جيش الترك من ثغر الجزائر بقضّهم وقضيضهم ومدافعهم ومهاريسهم، ونزلوا على واد الشلف قبالة السلطان رحمه الله"[6].

---

[1]-يعدُ من أقوى سلاطين الدولة العلوية المغربية،دام حكمه فترة أطول (1676-1727م)، وفي عهده عرفت الدولة العلوية أزهى أيامها وأسّس جيشا من العبيد سماهم (جيش عبيد البخاري)، لأكثر تفاصيل أنظر مقال لشانتال دي لفيرون حول حياة السلطان مولاي إسماعيل: (Ch).de la Veronne, la Vida de Muley Ismail, Rey de Fez(1708-1728) par Joseph de Leon, S.H.PH,1968.

[2] -(M). Gaid, Op. Cit, p. 151.

[3]-أحمد بن خالد الناصري، المصدر السابق، ص59.

[4]-(M). Gaid, Op. Cit, p. 151.

[5] -(H-D). de Gammont, Op. Cit, p.262.

[6]-أحمد بن خالد الناصري، المصدر السابق، ص59.

رواية الناصري أكّدها مولود قايد لقوله أنّ مكان المعركة في منطقة جْديوية القريبة من واد الشلف، قُتل فيها آلاف الأشخاص وغنائم كبيرة منها خمسة آلاف من الخيول وفرس السلطان مولاي إسماعيل. وقد أهدى الجزائريون فرس مولاي إسماعيل للملك الفرنسي لويس الرابع عشر بمناسبة زيارة قنصل الجزائر للقصر الملكي الفرنسي[1].

ذكرت الأسطوريوغرافيا المحلية الجزائرية منهم ابو راس الناصري، ومحمد بن يوسف الزياني أنّ سبب حملة مولاي إسماعيل ملك المغرب على بايلك الغرب وحصاره مدينة وهران هو تمثيل الإسبان بجثّة باي مازونة شعبان زناقي، وأنّه جاء ينتقّم له منهم ومن المغاطيس الذين قتلوه. يقول الأغا بن عودة المزاري: "لما سمع الشريف سلطان المغرب مولاي إسماعيل بن علي العلوي بقتل العرب المتنصّرة للباي شعبان استغاظ غيظا شديدا وجمع جيشا عظيما لا يكاد يُسمع له مثله من أقاصي السوس، وجاء حاركا به على وهران سنة اثني عشر من الثاني عشر (1700-1701م)، ونزل بجبل هيدور ونظر إليها وحطّ كلْكله عليها"[2].

إنّ هذه الرواية تنافي ما جاء لأجل السلطان مولاي إسماعيل للجزائر، فقد أراد أن يوسّع مملكته شرقا إلى الجزائر، ويقضي على الحكم التركي العثماني بالجزائر، وسلك طريق صحراوي بعيدا عن وهران متّجها إلى الشرق الجزائري لدعم حليفه مراد باي، وهذا ما ينفي رواية أنّ السلطان جاء منتقما لباي تركي قتله الإسبان ومثّلوا بجثّته. أمّا حصاره وهران وقصفه لها جاء ليحفظ ماء الوجه لهزيمة نكراء أمام جيش باشا الجزائر الحاج مصطفى في منطقة جديوية؛ لكن مولاي إسماعيل فشل فشلا ذريعا للدخول لمدينة وهران؛ لوجود تحصينات اسبانية صلبة وقوية التي شيّدوها. يقول أبو راس الناصري: "كانت المحاولة الثالثة على يدّ المولاي إسماعيل سنة 1112هـ ضرب حول وهران فساطيطه وخيّم أخبيته ورتّب عسكره وأصلح آلته يرد من الكفرة النّزال ومجاهدة الأبطال... واستعان بمَخِيْس نفر من المسلمين المجاورين لها ولما لم يجد لها محلا يلحقها منه ضرره لمنعها برج مرجاجو... فعند ذلك صعد المائدة، فقال: هذه أفعى تحت حجر تضرّ ولا تُضَرُّ، ثم عاد إلى المغرب الأقصى."[3].

[1]-(M).Gaid, Op. Cit, p. 151.

[2]-الأغا بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص230.

[3]-أبو راس الناصري، المصدر السابق، ج1، ص46.

8-دوافع تحالف القبائل وتعاونها مع الإسبان:

تعدّدت الأسباب حول تعاون بعض القبائل الوهرانية المذكورة سلفا مع الإسبان، فقد كانت الجزائر تعيش ظرفا سياسيا معقّدا، ويمكن لنا أن نقدّم عدة أسباب مختلفة :

1-طبوغرافية المنطقة: تعتبر المنطقة المحيطة بمدينة وهران مكشوفة نسبيا فهي سهول ممتدّة على مدّ البصر، سهل زيدور من الغرب وسهل سيرات من الشرق وسهل هبرة من الجنوب، يتخلّلها عدة وأودية لا تعيق تقدّم الإسبان نحو مضارب القبائل ودوويرها، ومن أهم هذه الأودية واد المِقْطَعْ ويصُبُّ في وسط الخليج بين مستغانم وأرزيو، ووادي هَبْرَة ويطلق عليه الأسبان (el Rio Chiquinaque)، ويبلغ طوله 240 كلم، ووادي سيق، وطوله 240كلم ويدعى كذلك واد مَكْرَةْ، ووادي التافتة طوله 170 كلم وينبع من جبال تلمسان، ووادي يَسَّرْ طوله 100 كلم[1] ، وذكر أحمد التوفيق المدني هذه السهول وهي: سهل سيق وهبرة وارتفاعهما 44م جنوب مدينة وهران، والسهل المنبسط خلف المدينة وارتفاعه 80 م، وفي وسطه سبخة وهران الكبيرة[2].

سهّلت الطبيعة الجغرافية للمنطقة تقدّم الإسبان بكل سهولة باستثناء سسلسلة بني شقران التي تقع شمال مدينة معسكر، فهي تعدّ حاجز طبيعي يصعب المرور به نحو مدينة معسكر والقبائل المحيطة بها.

إنّ كثافة الهجمات الاسبانية على المناطق المحيطة بمدينة وهران جعل القبائل والدواوير المخيّمة بالقرب من المدينة تذعنُ وتطلبُ وطلب الأمان ودفع ضريبة يحدّدها الإسبان؛ حيث ذكرت شانتال دي لفيرون إنّ المجاورين لوهران من الأهالي غرب المدينة كانوا خاضعين مباشرة للادراة الاسبانية في وهران، وينطبق نفس الشيء على سكان قرية بوسفر بالغرب وكنستال بالشرق والمستقرّين في الجبال المحيطة بالمدينة[3]. لم يتسامح الإسبان مع الأهالي القريبين من المدينة والذين ثبت تعاونهم مع الأتراك العثمانين ضدهم، فذكر ايلي دي لبيرمودي بلدة ذكرها مارمول كربخال تدعى قيزة « Guiza »خرّبها الكونت دالكوديت سنة 1546م، واتّهمهم الكونت بتعاونهم مع الأتراك[4].

2-الصراع القبلي: يعود هذا الصراع والتّنافس بين القبائل منذ السنوات الأولى من تأسيس الدولة الزيانية فكانت قبائل لها امتيازات كبيرة ومخزن الدولة، مثل قبائل بني عامر، في المقابل قبائل مضطهدة ومعادية لوجود

---

[1]-أحمد التوفيق المدني، جغرافية القطر الجزائري، د.ت، ص22.23

[2]-المرجع نفسه، ص25.

[3]-(Ch). de la veronne, Oran et Tlemcen… Op.Cit, p.p. 12.13

[4] -(E) .de la primaudaie, le Commerce…Op.Cit, p.240.

الدولة الزيانية. فالزيانيون اعتمدوا على قبائل بني عامر للدفاع عن المملكة والوقوف في وجه القبائل المعادية لهم سواء كانت بربرية أو عربية.

ذكر ابن خلدون أنّ يغمراسن كان على خلاف شديد مع قبائل بربرية أخرى هم بني توجين ومغراوة، وأنّهم زاحموا بني عبد الواد في الملك[1]، وقد تحالف بني توجين ومغراوة مع الأمير الحفصي أبي زكريا بن أبي حفص ضد يغمراسن[2]. هنا أصبح التهديد جديا لوجود دولة عبد الواد؛ لهذا السبب نقل يغمراسن بني عامر من نواحي زاغر الى جنوب تلمسان أشجاء للمعقل، وتبعتهم قبائل حميان العربية وصاروا في عدادهم[3] . ولعب سلاطين بني زيان على وتر التنافس بين القبائل العربية فيما بينهم فتارة يفضّل قبائل سويد العربية التي تخيّم في المناطق الشرقية للدولة الزيانية على قبائل بني عامر التي تخيّم بالقرب من مدينة تلمسان، وكذلك الاستفادة من نفوذهم لدى الدولة المرينية[4]، والعكس صحيح يفضل بني عامر على قبائل سويد ليبقى التنافس بينهم.

دفع الحقد الدفين بين هذه القبائل إلى اندفاع بني عامر في أحضان الإسبان وطلب الحلف والمساعدة منهم،خاصة أنّ القبائل المعادية لبني عامر تحالفت مع الأتراك ضد الإسبان والزيانيين، يقول بيير بويي: "هناك عدة قبائل من بني عامر كانت مخزناً تقليدياً للإسبان منها شافع وقيزة اللّذان كانتا تخيّمان قرب أسوار المدينة، وفي المنطقة القريبة من مرجاجو وعين البيضاء"[5].

3-الدوافع الإقتصادية:

يقول عبد القادر المشرفي: "ولما استقل قدم الأسبانيين بوهران وانحاز اليهم طوائف من الاعراب الذين ضعف ايمانهم فصاروا خدمة لهم، ةمن جملة جيشهم وكثر بهم السواد على المسلمين، فكانوا لهم اخوانا، فشنّوا بهم الغارات وانتّفعوا فيما يحتاجونه من الدّواب، والأقوات والسبب في ذلك غرضهم الفاني"[6]. إنّ عبد القادر المشرفي يؤكّد أنّ السبب الاقتصادي هو المحرك الأساسي في تحالفهم وتعاونهم مع الإسبان، فقبيلة أولاد عبد الله تعدّ من أهم الممولين للبضائع[7] .

---

[1]-عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ العبر...، مصدر سابق، ج7، ص116.

[2]-المصدر نفسه، ص116.

[3]-مبارك محمد الميلي، تاريخ الجزائر...، مرجع سابق، ج2، ص337.

[4]-عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص352

[5] -(P). Boyer, Historique de Beni Amer…, Op.Cit, p.14.

[6]-عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص13.

[7]-(P). Boyer, Op.Cit, p.15.

كان التعامل التجاري مع الإسبان مربحا؛ لأنّ الإسبان كانوا بحاجة إلى المواد التموينية المختلفة التي تحتاج إليها المدينة، ويُصدّر الفائض إلى المدن الساحلية الجنوبية الاسبانية، وأحيانا يقدّمون معلومات مهمة حول أعدائهم في المدن والأرياف (الجاسوسية) مقابل كسب مادي كما كان يفعل أفراد قبيلة كرشتل البربرية.

استطاع الإسبان أن يحتلوا وهران والمرسى الكبير بسهولة؛ لأنّهم اعتمدوا على خُطّة عسكرية مدروسة بجدٍ في المقابل سكان وهران دافعوا بعفوية تخلّلها خيانة سقطت على أثرها وهران بسهولة، ولم يجدوا الدعم الكافي من الزيانيين. إنّ ربط الإسبان علاقات مميّزة مع شيوخ القبائل النافذة في المنطقة وسّع نفوذهم وزاد من حدّة الهجمات والحروب على أهم المدن وقد هدّد هذا التحالف الوجود العثماني بالجزائر، أمام أطماع مغربية في الأراضي الجزائرية واحتلالهم مدينة تلمسان، ووصل توسعهم حتى إقليم بني راشد، لولا قوة الأتراك العثمانيين الذين أنهوا وجود الدولة الزيانية كدولة في منتصف القرن السادس عشر.

الفصل الثالث

طبيعة التحالف والتعاون بين القبائل الوهرانية والإسبان وآفاق العلاقة.

تمكّن الإسبان من كسب ود قبائل مهمة كان لها دور كبير في تعزيز الاحتلال الاسباني واندفاعه لسيطرته على جزء كبير من المنطقة الغربية من الجزائر، وهذا راجع الى طبيعة التحالفات والولاءات وكسب وّدها. ولفهم طبيعة هذا التحالف والولاء نبحث في مهام القبائل وتصنيفاتها حسب طبيعة العمل ومساهمتها في الغارات التي ينظّمها المحتلون ضد الدواوير والقبائل المعادية للإسبان، وعلاقة الإسبان باليهود وصولا إلى طردهم من المدينة، وإبراز دور محاكم التفتيش في تنصير الأهالي وترهيبهم.

1-أصل تسمية المغاطيس:

أُطْلِقَ الاسم على القبائل التي تخيّم قرب مدينة وهران أثناء الاحتلال الاسباني، وقدّمت هذه القبائل خدمات متعدّدة منها المشاركة في الحروب والحملات العسكرية بجانب الجيش الاسباني، والجاسوسية، وتموين المدينة بمختلف السلع التموينية التي تحتاج إليها المدينة. وذكر بودان قبائل معيّنة هي: قبيلة قيزة المخيّمة في سهل ملاتة، وحميان، وشافع قرب عين البيضاء وجبل سيدي سعيد، وغُمرة، وكرشتل، وأولاد عبد الله، وأولاد علي، وبني شقران[1].

اختلف الباحثون حول أصل تسمية المغاطيس، فالباحث بودان أكّد أنّ اسم المغاطيس أطلقه الإسبان على قبائل محدّدة من حلفائهم، ويعود أصل الكلمة إلى اللغة الاسبانية (Mogatazes) وأنّ الكُتّاب المسلمين حرّفوا الكلمة عن أصلها[2]. أمّا أحمد التوفيق المدني فذكر أنّ الاسم أطلقه جماعة من المسلمين المناوئين للإسبان على القبائل المتحالفة معهم[3] وقال أنّ أصل الكلمة اسبانية؛ لكن الباحثين بودان وأحمد التوفيق المدني لم يبيّنا لماذا أُطلِق الاسم وما معناه.

بيّن عبد القادر المشرفي من هم المغاطيس ومعنى التغطيس في رسالة كتبها في حدود 1764م؛ أيّ بعد الاحتلال الاسباني الثاني لوهران سنة 1734م، وجملة القبائل التي تعاون معهم؛ حيث ذكر أنّ قبيلة كرشتل البربرية هي التي أطلق عليها الإسبان اسم المغاطيس، وعُمِّمَ الاسم على كل القبائل التي تحالفت معهم، يقول: "...فهم المغاطيس ويقال لهم المغطّسُونَ فهذا الاسم هو لهم على الحقيقة، ولغيرهم على المجاز، لعملهم اقتداء بهم"[4]. يشرح معنى التغطيس، فذكر أنّهم كانوا يخطفون الناس من الدواوير المعادية للإسبان ويبيعونهم في سوق

---

[1] -(M). Bodin, sur l'origine du nom de Mogatazes donné par les espagnols à certains de leur auxiliaire indigènes pendant leur occupation d'Oran, B.S.G.A.O, T. 42, 1922, p.243.
[2] -Ibid, p. 244.

[3]-أحمد التوفيق المدني، حرب ثلاثمائة...مرجع سابق، ص108.

[4]-عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص14.

النّخاسة بوهران، ويقول في هذا الصّدد: " ويحكى أنّهم غَطَسُوا إمامهم الذي يصلي بهم، بأن باعوه للاسبانيين غفلة منه، وكيفية التغطيس أنّهم يأتون بدوابهم للدواوير على صفة أهل الحضر المتجوليين في الدواوير البائعين للعطرية (يعني العطور)، ومعهم مناطقة من الجلود الفلالية، فإذا وجدوا خبرا جلبوه للنصارى، وإذا رأوا فرصة في الصغير أو الكبير أخذوه وجعلوا الجلود على فيه كي لا يتكلم وحملوه على دوابهم ومشوا به ليلا إلى وهران، فيبيعونه وينتفعون بثمنه"[1].

نفهم من هذا الاقتباس لعبد القادر المشرفي معنى التغطيس هو سرقة الأشخاص من الدواوير وبيعهم في أسواق وهران عبيدا، وبأسعار زهيدة، وكذا التجسّس لصالح الإسبان. وكان يقوم بهذه الأعمال فقط أفراد قبيلة كرشتل لا غير، ولاحقا لجأت القبائل الأخرى لنفس الأعمال التي قامت بها كرشتل، وتوسع التغطيس لقيام بأعمال حربية، والتجنيد في صفوف الجيش الاسباني.

حُرِّفَ اسم المغاطيس عن أصله اللغوي ومعناه الحقيقي، وبدا المسلمون المناوؤون لهم يطلقون عليهم اسم " المغَطَّسُون"[2] وجاء في لسان العرب لابن منظور معنى كلمة غَطَس أيّ الغطْسُ في الماء، والغَمْسُ فيه، غَطَسَهُ في الماء، يغْطِسُهُ غَطْسا[3]. يذهب معنى التسمية أنّ هذه القبائل ارتدّت عن الإسلام واعتنقت المسيحية، وقاتلوا تحت راية الإسبان، اعتنقُوا الديانة المسيحية فغُطِّسُوا في أحواض كَنَسِيَة، ويقابلها في اللغة الفرنسية **les baptisés**.

أورد الأغا المزاري اسما آخرا للمغاطيس في مؤلّفه "طلوع سعد السعود"، وهذه المرة أُطْلِقَ الاسم على قبيلة دون غيرها من القبائل المتحالفة مع الاسبانيين وهي قبيلة أولاد عبد الله وهي بطن من بطون بني عامر سماها بعرب "دَمَلْيُونْ"؛ لأنّهم يطلبون من الإسبان إذاطلب منهم هؤلاء المشاركة في الحروب والحملات العسكرية التي يُنظّمونها ضد أعدائهم عشرة ملايين، وهم أولاد عبد الله ، سَمَوهم بهذا الاسم؛ لأنّهم كانوا يطلبون منهم العدّد الكثير، فيقول أحدهم للنصارى " دمليون" بمعنى أيّها الرّوم أعطونا عشرة ملايين (كذا) أيّ عددا كثيرا فيه ألف ألف[4].

[1]-عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص14.

[2]-(M). Bodin, Op.Cit, p.244.

[3]-ابن منظور، لسان العرب، مطبعة بولاق، مصر، 1301هـ، ص34.

[4]-الأغا بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص216.

تختلف التّسميتان بإختلاف المهام، فالمغاطيس هم كرشتل يجلبون الأخبار (الجاسوسية) ويخطفون الناس ليبيعوهم عبيدا للإسبان، ويشاركون في الحملات العسكرية أحيانا، أمّا قبائل أولاد عبد الله الذين ينتمون لقبيلة بني عامر العربية، فالأمر يختلف فهم يطلبون المال مقابل المشاركة في الحرب أو الغارات التي ينظمونها على الدواوير والقبائل وحتى جيوش بني زيان والأتراك، ويدل على قوة تأثيرهم في تقوية نفوذ الإسبان في المنطقة .

لم يحدّد المؤرخون السنة التي شكّل فيها الإسبان المغاطيس وأطلقوا عليهم هذا الاسم، ففي تقرير جوزيف باييخو سنة 1734م شكّل هذا الحاكم العام للمدينة فرق شبه نظامية من القبائل عُرفوا بالمغاطيس بناءا على قرار ملكي صدر في 10 ماي 1734م؛ لكن الاسم كان استعماله موجودا في القرن السادس عشر ميلادي. وقد ذكر الجندي الاسباني دييغو سواريز أنّ المغاطيس كانوا يقومون بعمليات استكشاف ويحدّدون مضارب القبائل والدواوير المعادية للإسبان، وجلب المعلومات الكافية حول الدواوير المراد مهاجمتها[1] .

صنّف عبد القادر المشرفي القبائل الخاضعة والمتحالفة مع الإسبان منذ بداية الاحتلال قبائلُ جُنْدٍ، وقبائلُ رَعِيَةٍ، فذكر: " من جملة جند النصارى الذين بوهران من الأعراب المتنصّرة "حميان" وهي قبيلة عظيمة"[2]، إضافة إلى قبيلة شافع دون قبائل بني عامر الأخرى[3]. فهم جند في صفوف الإسبان، وقبيلة قيزة المخيّمة قرب وهران، وبطن من أولاد عبد الله يقال لهم الونازرة نسبة إلى جدّهم ونزار بن عبد الله، أمّا القبائل الرعية الذين ذكرهم عبد القادر المشرفي في رسالته منهم: أولاد عبد الله التالي، وأولاد علي القبيل وغيرهم[4] .

عُرف المغاطيس وغيرهم من القبائل المتعاونة مع الإسبان بالشّجاعة والقوة والفروسية مثلهم مثل القبائل الجزائرية الأخرى، فكانوا في مقدّمة المعارك التي يخوضها الإسبان ضد أعدائهم، فذكرت المصادر المحلية أنّ الباي شعبان الزناقي باي مازونة زحف على رأس جيشه قِوامه أربعة آلاف مقاتل أكثرهم مشاة وأكثر من ألف فارس إلى مدينة وهران سنة 1687م/1098هـ، والتقى الجيشان شرق المدينة بكدية الخْيار(حي مارفال حاليا)، فاختلّت صفوف الإسبان، وقُتل الكثير منهم، وحسب محمد بن يوسف الزّياني فقد قُتل إحدى عشر مائة[5]

[1]-(A). Berbrugger, Op. Cit, R.A, N°11, 1866, p.200.

[2]-عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص27.

[3]-المصدر نفسه، ص26.

[4]-المصدر نفسه، ص30.

[5]-محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص149.

(حوالي 1100 قتيل)؛ لكنّ أحد المغاطيس قتل الباي شعبان الزناقي، وحسب الأغا بن عودة المزاري الذي قتله يدعى أبو نصابية من النصاصيب أحد بطون أولاد عبد الله[1].

ذكر مارمول كربخال أنّ الجنود الإسبان وأفراد القبائل الحليفة لهم عندما يُخيّمون في منطقة آمنة قبل خوض أيّ معركة يلجؤون إلى الأعمال الرياضية، والترفيه على أنفسهم بالمصارعة، ويصف ذلك بقوله: " وأثناء تلك المدّة كان الجنود يتدرّبون جيّدا على القفز والمصارعة، والعدو راجلين وراكبين على الخيل، وقذف القضيب الحديدي، وما أشبه ذلك من التّمرينات الرياضية ...وقد صارع مسيحيا احد المغاربة (من الأهالي) وضمّه بشدّة إلى أن سال الدّم من فمه بغزارة، لكنّ(الموري) أسقطه بشغربية فتفوّق عليه ووضع ركبته على معدّته"[2]. وذكر كذلك أنّ شيوخ القبائل عندما يَقْبِلوُنَ إلى الكونت دالكوديت مع فرسانهم يتقدّمون إليه ويعانقون ويتحدّثون معه، ويقيم فرسانهم أعمال الفروسية، ويُحيّ هؤلاء الفرسان الكونت .

أمّا عموم قبائل بني عامر فأطلق عليهم مناوئيهم لقب " اللّصوص"، أو قطاع الطّرق[3]؛ لأنّهم أشدّاء وتشبه أعمالهم تصرفات قبيلة كرشتل.

أطلق الإسبان على المغاطيس أو القبائل الحليفة لهم اسم " عرب السلام" (los moros de paz) في مقابل العرب الأعداء (los moros de guerra) الذين لم يدخلوا في تحالف أو تعاون مع الإسبان؛ بل قاوموهم وتحالفوا مع أعدائهم الأتراك، وهم لا يدفعون أيّ ضريبة أو يتعاملون معهم تجاريا ومعرّضون إلى الغارات الاسبانية .

2- الغارات العسكرية الإسبانية (las jornadas):

كثّف الإسبان حملاتهم العسكرية على سكان المنطقة المحيطة بهم؛ بل حتى التي تبعُد عنهم مئات الكيلومترات جنوبا وغربا وشرقا، منذ بداية احتلالهم لوهران والمرسى الكبير، فكانت المدن والدواوير عرضة لحملاتهم العنيفة. تعدّدت أسباب الغارات على المنطقة، ولا يمكن حصرها في سبب معيّن. إنّ أول ما جعل

[1] -الأغا بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص229.

[2] -مرمول كربخال، المصدر السابق، ص 317، 318.

[3] -(D). Chérif**, les Colonies portuaires espagnoles au Maghreb du XVI au XXsiècle**, Insaniyat, 2ème partie, N°49, 2010, p.86.

الإسبان يتوسّعون خارج وهران هو البحث عن المؤونة وفكّ الحصار، الذي فرضه عليهم أعداءهم، بالنسبة لهم إنّها مسألة حياة أو موت.

كانت المؤونة التي يحتاج إليها الإسبان في وهران تأتي في الغالب من أوربا وخاصة اسبانيا، مواد غذائية، وألبسة، ومواد بناء، وحتى حطب التدفئة[1]؛ لكن هذا الطريق في الغالب لم يكن آمنا، فقد كانت العواصف البحرية في الغالب تمنع وصولها إلى ميناء المرسى الكبير أو هجمات القراصنة الأتراك العثمانيين الذين يستولون على كل السفن التي يهاجمونها. ما جعل الإسبان يعيشون في أزمة حقيقية وأصابهم الجوع. وغالبا ما اشتكى حكّام وهران في تقاريرهم المرسلة إلى اسبانيا من تدهور الأوضاع، واشتكى الكونت دالكوديت من نقص المؤونة، وتَعَرُّضْ الجنود في الحاميتين إلى الجوع وعدم حصولهم على إتاواتهم، وذكر كذلك أنّ الجنود طالبوا بالعودة إلى اسبانيا ومغادرة وهران، وذلك في تقرير أعدّه إلى الملك الاسباني في سنة 1535م[2].

أمام هذا الوضع المزري داخل وهران قرّر الإسبان خوض حملات عسكرية في العمق الجزائري، وراء أسوار مدينة وهران، وأطلقوا على هذه الحملات أو الغارات اسم la Jornadas (خورنادا)[3]ويقابلها في اللغة الفرنسية كلمة la Razzia يعني الغارة. أو الغزوة وكذلك أطلقوا عليها (las salidas) وتعني الخروج للغارة، وهي مصطلح عسكري اسباني أُستُعمِلَ في الجزائر وخاصة في ضواحي وهران، والتي عاناها سكان المنطقة الغربية بالجزائر طيلة الاحتلال الاسباني بوهران.

لجأ الإسبان إلى هذا الأسلوب من الحرب(las jornadas)كأسلوب إنتاج يدرُّ الأرباح عليهم. ويفكّ الحصار عنهم، والجوع الذي تعرّضت له وهران، يقول مالكي نورالدين: "اعتمد الإسبان على الحملات العسكرية كخيارٍ استراتيجيٍ عسكريٍ واقتصاديٍ"[4].

إنّه أسلوب الإنتاج الوحيد الذي اعتمد عليه الإسبان في المنطقة إضافة إلى تجارة القوافل التي تدخل وهران؛ لأنّ وهران تفتقر لأي أراضٍ زراعية. فالإسبان عاشوا داخل أسوار مدينة وهران التي لا تتعدي بضعة عشرات

---

[1] -(C). Kehl, Oran, et l'Oranie avant l'occupation Française, B.S.G.A.O, T.63, 1942, p.40.
[2] -(E). de la Prémaudaie, Op. Cit, p. 219.
[3]-(M). Nordine, Razzia, butin, et esclavage, dans l'Oranie du XVI ème Siècle, Dar-El Garb, p.65.
[4] - Ibid, p. 64.

الكيلومترات، ما عادا بعض الصيد البحري الذي مارسوه على الساحل الوهراني، وكما قال كِيْل عن الغارات:" إنّها الصناعة الوحيدة التي اعتمدت عليها وهران"[1] .

إنّ المنطقة التي خلف أسوار المدينة غنية بالثروة المتنوعة، من نشاط زراعي تمارسه القبائل الحليفة لهم أو المعادية، وثروة حيوانية متوفرة بكثرة (أبقار، أغنام، معز ، خيول، دواجن...)، هناك قبائل رعوية تعتمد الترحال كأسلوب عيش، وقبائل مستقرة تعتمد على الزراعة (خضر وفواكه، حبوب). تضاعفت وتيرة الغارات الاسبانية على المنطقة طيلة ثلاثة قرون، ووصفها كيل "بحُمَى الغارات"[2](la Fièvre de Razzias). إنّه أسلوب إنتاجٍ مُربحٍ للغاية يعتمد على القوة والتكتيك العسكريين.

لم تكن كل الخرجات الإسبانية ضد أعدائهم موفّقة، أحيانا تكون الغارة فاشلة، كان هذا الأسلوب الإنتاجي ريعيّاَ، ففي القرن السادس عشر والنصف الاول من القرن السابع عشر اندفع الاحتلال بقوة معتمدين على القوة والحماس العسكريين مستغلين تراجع وضعف القوى المحلية (تفكك دولة الزيانيين والقبائل). وبدأ عصر الانحطاط والتقهقر في النصف الثاني من القرن السابع عشر وطيلة القرن الثامن عشر، وهذا ما أكّده تقرير جوزيف باييخو: " كانت هذه الغارات إلاّ للضرورة القصوى، وتتمُّ بسرعة"[3].

أحيانا لا يحترم حكّام وهران وجنودهم معاهدات الحلف والسلم التي وقّعوها مع القبائل الحليفة لهم، فيغيرون عليهم ويَسْلِبُون ماشيتهم بداعي الجشع، وقد وصل بهم الحال إلى تنظيم حملات خروج بدون سبب، ودون دراسة العواقب الوخيمة عن ذلك التصرف ضدّ القبائل التي طلبت الحماية منهم[4].

للقيّام بحملات أو غارات ناجحة اتّبع الإسبان خُطَطْ عسكرية مدروسة بدقّة تراعي الخصوصيات الجغرافية الطبيعية والبشرية للمنطقة، وهنا نوضّح أهم الخطوات التي اعتمدوها للغارة الناجحة:

أ–التجسّس:

اعتمد الإسبان على أسلوب التجسّس ضد أعدائهم، ولا يمكنهم تنفيذ غارة (la jornada) إلاّ إذا توفّرت لديهم معلومات كافية حول تحرّكات أو مضرب الدّوار المراد مهاجمته، وعدد أفراد القبيلة، وقوة تسليحها.

[1]-(C). Kehl, Op. Cit, p. 41.
[2]-Ibid, p. 40
[3] -(J). Vallejo, Op.Cit, p.41.
[4] -(C). Kehl, Op.Cit, p. 41.

يقول دييغو سواريز منتانياس: " يقوم بهذه العملية عادة حلفاء الإسبان، أو عابر سبيل يعطي معلومات دقيقة عن الدواوير المراد مهاجمتها، واسم القبيلة والبطن الذي تنتمي إليه القبيلة، وعدد الجياد المخصّصة للحرب، ومضارب الموِرْ الآخرين (الأهالي) المجاورين للقبيلة المستهدفة، الذين باستطاعتهم تقديم العون للقبيلة ضدهم، وأخيرا المسافة الفاصلة بين مكان تخييم القبيلة ومدينة وهران"[1]. وأكّد سواريز أن المغاطيس هم الذين يقومون بعمليات الجاسوسية وكذلك المور اللاجئين(الهاربين من قبائلهم) إلى مدينة وهران، وبعض المسيحيين[2].

يَكْمُنُ التجسّس في بيع معلومات للإسبان، ويمكن أن تكون هناك مفاوضات بين الجاسوس وبينهم على المبلغ المطلوب الذي يطلبه الجاسوس مقابل البيع. يدرس الحاكم العام هذه المعلومات في صحتها من عدمها، وقد وصف دييغو سواريز طريقة عمل الجاسوس: " يندسُّ ويتخفّى بين الناس ويجمع المعلومات الكافية حول الآخرين، يتنقّل بين مدن تلمسان ومستغانم وأماكن أخرى لتنفيذ عمله، وبعد ذلك يأخذ طريق وهران ليبيع المعلومات حول دوّار أو قبيلة معادية للإسبان"[3].

يتعرّض الجاسوس للتصفية الجسدية حين يقدّم معلومات خاطئة حول تموقع القبيلة أو الدّوار، أو يكون عميلا مزدوجا (حسب التعبير الحديث)، ويُقتلُ غالبا رميا بالسّهام، وغالبا ما تنفّذ عملية القتل قرب وهران حين العودة من الغارة الفاشلة[4]. تقوم القبيلة المعادية لهم بإرسال شخص يدّعي أنّه يقدم معلومات في غاية الأهمية حول قبيلة ما؛ لكنّه يقدّم معلومات مزيّفة، وعند خروج الإسبان على أساس هذه المعلومات يتعرّضون لكمين مُحكم[5] ، وقد تعرّض الكونت دالكوديت لكمين محكم سنة 1547م عندما هاجم قبيلة مديونة في سهل زيدور غرب وهران بناءا على معلومات قدّمها جاسوس مزدوج.

كان دييغو سواريز شاهد عيان سنة 1577م لعملية إعدام جاسوس مزدوج قدّم معلومات خاطئة؛ حيث رُبط الشخص بعمود ووُضع في فرن ساخن وأُحرق حيّا[6] .

يتقدّم على رأس الكتيبة العسكرية رجل يعرف جيدا الطريق المؤدي إلى الدّوار المستهدف سواء كان هذا الشخص جنديا اسبانيا أو من الأهالي يَسْتَطْلِّعُ الطريق ويتفادى الطُرُق الخطرة في طريق الذهاب والعودة إلى وهران

[1]-(A). Berbrugger, Op. Cit, R.A, N°10, 1866, p.p. 200.201.
[2] -Ibid, p.200.
[3]-(M). Nordine, Op. Cit, p.85.
[4] -Ibid, p.86.
[5]-Ibid, p.87.
[6]-(D). Suarez, Op. Cit, p. 203.

ويكون خبيرا جيدا بتضاريس المنطقة وطبائع القبائل، وقد أطلق الإسبان على هؤلاء الدليل أو المستكشف[1] Adalid

يؤكّد مالكي نو الدين أنّ مصطلح Adalid أصله من الكلمة العربية " الدّليل" وتعني الشخص الذي يقود مجموعة من الأشخاص إلى منطقة ما وعلى العموم يقُود مجموعة من الجنود[2]، وقد استعمل الإسبان المصطلح في مراسلاتهم الرسمية في كل المناطق التي احتلوها في الجزائر وذُكر كلمة "الدليل" في الحامية الاسبانية بمدينة بجاية، اسمه مارتين بيالون(Martin Villalon)[3]، وذكر ايلي دي لبيريمودي أنّ لكل قائد عسكري أكثر من دليل، يحمل على عاتقه تجسيد تقارير الجواسيس الأهالي والسّير بالجنود إلى الأماكن الآمنة بعيدا عن الطريق التي يمكن أن يحصل فيها كمائن ضد الجنود[4].

أحيانا يقوم بهذه الأعمال اليهود الذين لهم علاقات واسعة مع مختلف القوى المتصارعة في الجزائر وكذلك الأهالي اللّاجئين إلى مدينة وهران، والذين طُرِدوا وفرّوا من قبائلهم؛ لأنّهم ارتكبوا خيانة في حق أهاليهم، هؤلاء يمتهنُون فقط الجوسسة لصالح الأسبان[5]. في سنة 1541م بين شهر أفريل ونوفمبر من نفس السنة دفع أمين الخزينة في وهران كريستوبال ريخون (Rejon) للجواسيس المور واليهود ما يقارب 263340 مرابيدس (maravédis) مقسّمة على: 182790 مرابيدس لخمسة وعشرين من المور الأهالي، و24500 لإثنين من الفرسان العرب، و56500 لخمسة من اليهود، نظير لخدماتهم في أعمال التجسّس[6].

ب-الخروج (la Salidad):

قبل الخروج للغارة خارج مدينة وهران يُحَضِّرُ الجنود أنفسهم جيّدا للمهمة المحفوفة بالمخاطر، ويأمر الحاكم العام لوهران ضُبّاطَهُ تجهيز الحملة بكافة الوسائل الضرورية من المعدّات، والسلاح، والأحصنة، والبغال التي تحمل المؤونة للجنود، ويتمُ اختيار الجنود والفرسان حسب الخبرة والسّن والأقدمية، وحسب دييغو سواريز تدوم عملية التحضير للخروج مدّة أربعة إلى خمسة أيام[7]. ويُكلّف الحاكم العام ضابطا برتبة ملازم في الجيش ينقل الخبر للجنود

---

[1]-(D). Suarez, Op. Cit, p.202.
[2] -(M). Nordinne, Op. Cit, p. 92.
[3] -(E'). de la Premaudaie, Documents Inédits sur l'Histoire de l'Occupation Espagnole (1506-1574), R.A, N° 19, 1875, p. 278.
[4] -(D). Suarez, Op. Cit, p.204.
[5] -Ibid, p.204.
[6] -(Ch). de la veronne, Oran et Tlemcen..., Op. Cit, p.166
[7] -(M).Nordine, Op. Cit, p.94

حول الموعد التي تخرج فيه الكتيبة، ويُسمى هذا الإعلان ب "الموتشيلا" (la mochila)، وأحيانا يستعمل الجنود هذا المصطلح للتعبير عن المسافة الفاصلة بين وهران والدوآر المراد استهدافه. يصف سوارييز التحضير ساعة الخروج قائلا: " نحصل على أفضل البغال في البلاد لحمل مسحوق البارود والرصاص، وفتيل شعلة السهام، والبنادق من نوع موسكي، ويَعُسُّ الكتيبة اثنا عشر من رماة المدفعية أغلبهم شباب يوزّعون الذخيرة على الجنود. أمّا الحيوانات فيقودها رعاة البغال، يُحسنون استعمال السلاح"[1].

تخرجُ الكتيبة من وهران إلى وجهتها، وتتكّون الكتيبة من سرايا وعادة ما تتكوّن السرّية العسكرية من 60 إلى 200 فرد، ويسير أفرادها جندي خلف جندي على خط مستقيم يقودهم قائد السرية، وخلفه حامل اللواء الحربي الاسباني. في الوسط تُوضَعُ الأمتعة اللازمة للحملة، ويحرسها نفس العدد من الجنود من اليمين إلى اليسار، ومن الأمام إلى الخلف، ويكون في مقدّمة الجيش الجواسيس والمستكشفون Adalids لمسح الأرض أمام الجيش من أيّ كمين يمكن أن يتعرّضوا له. وغالبا ما يكون الجنود المشاة خلف الفرسان لحمايتهم[2].

يسود الصمت خلال المهمّة للحفاظ على الأمن خوفا من اكتشافهم من قبل أعدائهم، وليكون عنصر المفاجأة فعّالا لتشتيت روح المقاومة لدى أعدائهم.

عند الوصول إلى المكان المقصود تتوقّف الكتيبة الاسبانية للجاسوس لتقديم تفاصيل مضرب القبيلة وأماكن القوة والضعف، ودراسة طريقة الهجوم على الدوّار أو القبيلة، وانتظار حلول الظلام لبدء الهجوم. يقول دييغو سوارييز: "يُخْطِرُ ضابط كل سريّة بالاستعداد للعمل...وفي صمت مُطبَّق، وحتى الحيوانات التي تحمل الأمتعة (أحصنة وبغال) تُلجّم وتُوقّف تماما، فلا يُسمع غير زقزقة العصافير"[3].

قُبيل الهجوم يصلي الجنود الصلوات ويقرؤون ترانيم الصلاة على السيدة مريم العذراء، وبعد الانتهاء من الصلوات والتضرّع يأمر الحاكم العام ضُبّاطه من أعلى رتبة إلى جندي المشاة بالاعتداد بكلمة سر تُمرَّر من مقدّمة الجيش حتى مؤخّرته وهذا حسب ما ذكر دييغو سوارييز[4].

---

[1] -(D). Suarez, Op.Cit, p.206.
[2] -(M). Nordine, Op. Cit, p.97
[3]-(A). Berbrugger, Op. Cit, p, R.A, N° 11, 1867, p.73
[4]-Ibid, p.74

قبل بزوغ الفجر، وبينما الجميع يَغُطُّ في نوم عميق يفاجئهم الإسبان بالهجوم، بعدما لاحظ الجنود عدد العَسَسْ، ويبدأ الجنود في القتل والسَّبْيْ، لا يميّزون بين كبير وصغير، ولا رجل وامرأة، هدفهم الحصول على أكبر عدد من الغنائم والأسرى، وهذا بأمر من الحاكم العام، ويقوم الجنود بتجميع أكبر كمية من النقود المتداولة (دوبلا، والزياني...)[1].

يَقِرُّ الجندي الاسباني دييغو سوارييز ببشاعة القتل الذي يتعرّض له أفراد الدّوار وَهَوْلُ المنْظَرِ، وعدم رحمة التي يتّصف بها الجنود الأسبان، يقول: "يتظاهر المور بالموت بسقوطهم أرضا، لكنّهم يُقْتَلُونْ، ويَطْلُبُ الجرحى الموت على أن يكونوا عبيدا، أما الأطفال والنّساء فيطلقون العويل والبكاء"[2].

بعد الانتهاء من العملية وحمل الغنائم وتكبيل الأسرى بالسلاسل الحديدية يُسرع الإسبان بالعودة إلى وهران خوفا من اكتشافهم من قبل القبائل المعادية لهم، وأحيانا تسارع القبائل المجاورة لهم لنجدة إخوانهم. يصف مالكي نورالدين طريق العودة إلى وهران قائلا: "بعد الانتهاء من السّلب ينسحب الجنود محمّلين بالغنائم، ويجتمعون بانتظام للعودة إلى وهران؛ لكنّها المرحلة الصعبة؛ حيث يُبْطِءُ مَسِيرَهُم الأسرى المكبّلين بالسلاسل الحديدية، وخوفا من أي كمين مُحْتَمَل يتخلص الإسبان من الأسرى الجرحى وبعض من قطيع الأغنام" [3]. وذكر سوارييز أنّ أي شخص من الأسرى يطلب قضاء حاجته يتعرّض للقتل[4].

ج–تقسيم الغنائم:

عند وصول الإسبان قرب مدينة وهران يحدّد الحاكم العام المكان الذي تُوضَعُ فيه الغنائم، ويأمر أربع جنود لهم الأقدمية والخبرة والنزاهة بِجَرْدْ هذه الغنائم بحضور متصرّف اقتصادي يدعى "بييدور" (Veedor) وهو بدوره يرافق الجنود في حملتهم. أما الأسرى فيوضعون داخل سجن مخصّص لهم بُنِيَ لهذا الغرض داخل وهران يدعى بانيون (Baño)[5]. تُجمعُ رؤوس الماشية بعد جَرْدِهَا في سجل وتُنقل إلى خارج أسوار مدينة وهران، ترعاها وتُراقبها كتيبة عسكرية تتكوّن من مشاة وفرسان.

1-(M). Nordine, Op.Cit, p.97.
2-(A). Berbrugger, Op. Cit, p.79
3 -(M).Nordine, Op. Cit, p.106
4-(A). Berbrugger, Op.Cit, p.80.
5 -(M).Nordine, Op.Cit, p.111.

تُباع الغنائم وسط مدينة وهران في مزاد علني، وكذلك الأسرى بعد جعل جزء منهم عبيدا، وافتداء جزء آخر، ويُحملون إلى مختلف موانئ اسبانيا. تقسّم عائدات الغنائم على الكل وتتفاوت من فئة إلى أخرى حسب الترتيب:

1-قِسْمْ للحاكم العام لوهران: منح الملك الاسباني له قسم مهم من هذه الغنائم والأسرى وأطلق سوارييز على هذا القسم ب "خويا[1](Joya) يمتلك حرية اختيار العبيد من النساء والرّجال؛ لكن بعد الإصلاحات التي قام بها الحاكم العام لوهران والمرسى الكبير سنة 1565[2] بمقتضى هذه الإصلاحات يتعيّن على الحاكم العام أن يختار عبدا واحدا سواء كان رجلا أو امرأة، وقبل هذا التاريخ كان الحاكم العام يأخذ عددا كبيرا من الغنائم.

2- قِسْمْ للملك الاسباني: يُسمى هذا القسم الذي يأخذه الملك الاسباني ب « quinto » أيّ الخُمس، وأحيانا تُقدّم هدايا مختلفة للملك الاسباني، أيّ بنسبة 20% من الغنائم المتحصّل عليها، وأكّد دييغو سوارييز أنّ الملك غالبا ما يأمر حكّام وهران بتعزيز الدفاعات وتحصين الحصون في وهران والمرسى الكبير من حصة الملك. يقول سواريز:" في عام 1569م أمر جلالته حاكم وهران مايستري دي مونتيسا (Montesa) أن تُمْنَحَ ثلاثة أرباع من حصّته المقدّرة بالخُمُس بموجب قرار ملكي مؤرّخ في 13 أوت سنة 1569م للخدمات الشخصية وزيادة الأرباح"[3].

3-قِسْمَ يُقَدَّم للمُتَرْجِم (التُرجمان): سمّاه سوارييز ب(lengua) ؛ أيّ الذي يكون وسيطا بين الجاسوس من المور الذي لا يُجيد اللغة الاسبانية والحاكم العام الذي لا يُجيد العربية.

وللمترجم مكانة مهمّة لدي الإسبان فهو يترجم الرسائل، ويترجم الحوار والمفاوضات بين الإسبان والأمراء المحليين وشيوخ المنطقة، وغالبا ما يكون اليهود المقيمون بوهران هم الذين احتكروا هذا المنصب الحسّاس، وذلك قبل الطرد الجماعي لليهود من وهران سنة 1669م بقرار ملكي.

احتكر منصب المترجم الرسمي لدى حكّام وهران أسرة اليهودي إسحاق كانسينو (Cansino)؛ لأنّه من يهود تلمسان الذين فرّوا من الأندلس بعد سقوط غرناطة واستقرّ بوهران قبيل مجيء الأسبان. لدية علاقات وثيقة

---

[1]-(M). Nordine, Op.Cit, p.122.

[2]-هو الدون ألنسو لا كوبيا (la cuiva) خلف ابن الكونت دالكوديت، عُيّن حاكما عاما سنة 1564حتى 1566.

[3] -(M). Nordine, Op.Cit, p.127.

بالقبائل المجاورة لوهران، يُتقن العربية والاسبانية، ويترجم فوريا وبدقة المحادثات، وخبير في المفاوضات والمراسلات السياسية والعلاقات الدبلوماسية[1].

إلى جانب اليهود كان بعض الإسبان يحملون صفة المترجم الرسمي في المدينة والمتحدّث الرسمي باسم الحاكم العام الاسباني بوهران، وقد احتكّ الإسبان بالسكّان المحليين بواسطة التجارة أو المشاركة جنبا إلى جنب في المعارك، أو تعرّضهم للأَسْرْ في سجون الأتراك العثمانيين أو الزيانيين أو عند القبائل المعادية للإسبان، جعل بعضهم يتقنون التحدّث باللهجة المحلية لسكان قبائل الغرب أو حتى في المغرب الأقصى، بعضهم كان أسيرا في سجون المغاربة مثل مرمول كربخال؛ لكنّه لم يكن مترجما رسميا، وأحيانا بالمصاهرة بين الإسبان والجزائريين، منهم المفاوض الرسمي باسم الكونت دالكوديت لدى الشريف السعدي والزيانيين غونزالوا ايرنانديث (Gonzalo Hernandez).

تذكر إحدى وثائق سيمانكاس- التي قدّمتها شانتال دي لفيرون- أنّ أصول غونزالو ايرنانديث تعود إلى أحد ملوك بني زيان؛ الذي تزوّج ابنة أول حاكم عام لوهران والمرسى الكبير دون دييغو فرنانديث دي قرطبة، ماركيس دي كوماريس فأنجبت منه عدة أطفال منهم غونزالو ايرنانديث، وأخذ هذا الاسم الاسباني من أمه بعد أن اعتنق المسيحية مع زوجته، لديه عدة أبناء شغلوا مناصب مختلفة في المدن التي احتلها الإسبان في بلاد المغرب، وشغل ابنه نفس المنصب الذي شغله أبوه[2]، وأكّدت شانتال دي لفيرون أنّه يُجيد التحدّث باللّغة العربية وعارفا بشؤون وخبايا مملكة بني زيان، وكان وسيطا وقاد المفاوضات منذ سنة 1555م بين الكونت دالكوديت والشريف السعدي[3].

4-حصة تقدّم للجنود الإسبان: بعد حساب ما تبقى من الغنائم، يتقدّم الضّابط المكلّف بتوزيع حصة الجنود عليهم، والكلُّ يأخذ قسطه، وتتفاوت حصة الجنود حسب المساهمة في الحملة العسكرية. أمّا الجنود الذين بقوا يعُسّون وهران والمرسى الكبير في غياب الحاكم العام وجنوده فلا يتحصّلون إلا على قسط صغير من هذه الغنائم، وتختلف هذه القسمة بين الفرسان والمشاة والذين يقودون الدّواب التي تحمل المؤونة والأسلحة.

---

[1] -(L). Joseph de stomayor y valenzuela, Brève relation de l'expulsion de juifs d'Oran en 1569, Tr : J-Frédéric schanb,Ed : Bouchène, Paris, 1998, p.12

[2] -(R) .Ricard et (Ch).de la veronne, Op.Cit, p.364.

[3] -Ibid, p.364.

القائمين على الحاميات (الحصون) والمكلّفين بأبواب المدينة هم بدورهم يتحصّلون على قسمتهم[1]. إذن الكّل في وهران يأخذ حصّته، وتتفاوت حسب المساهمة في هذه الحملة.

تعدّدت الغنائم التي استولى عليها الإسبان، وفيما يخص الحيوانات فقد استولوا على: الأبقار؛ الماعز؛ الدواجن؛ الحَجَلْ؛ الأرانب؛ الحلزونات؛ الصقور.

أمّا المنتجات الفلاحية فهم يستولون على: التين؛ الزبيب؛ اللّوز، الجوز؛ التمور؛ الحمص؛ الفول؛ الزبدة؛ العسل؛ الشمع؛ الزيت ...

إضافة إلى على هذه المنتجات يستولي الأسبان على مطامير القمح والشعير، والمواشي. هذه المواد أكثر استهلاكا في المنطقة سواء الأسبان أو القبائل الجزائرية.

في مدة قصيرة نسبيا من 18 أفريل 1568م إلى نوفمبر 1571م؛ أيّ في ظرف أربع سنوات نفّذ الإسبان إحدى عشر عملية« jornada » على سكان المنطقة[2]. بغض النظر عن نجاحها أو فشلها فهذا العدد كبير نسبيا مقارنة بعدد السنوات نحو 3 خرجات في العام الواحد، وأحيانا كانت استعراضية تبيّن مدى قوة الإسبان وبإستطاعتهم مهاجمة أيّ مكان في المنطقة، فقد وصلت جنوبا حتى مدينة معسكر وضواحيها، وغربا حتى مدينة تلمسان وضواحيها وشرقا إلى مستغانم .

إنّ أبعد نقطة وصل إليها الإسبان عن وهران كانت غربا لمسافة 126 كلم « lieue17 » بمنطقة تْرارَةْ قرب مصب واد رشقون، أمّا جنوبا ببني شقران لمسافة 89 كلم « lieue12 »،وشرقا وصلوا إلى سهل سيرات وحوض هبرة لمسافة تبعد عن وهران ب 59كلم « lieue 8 »، وأحيانا يكون الخروج في سلسلة جبال قيزة الواقعة في الشّمال الغربي لمدينة وهران، يقول دييغو سوارييز: "في صباح يوم الاثنين أعلن الحاكم العام دي منتيسا الخروج من وهران وتسلق جبال قيزة برفقة مجموعة من الجنود لمهاجمة أحد دواوير القبائل المعادية التي تخيّم هناك ومفاجئتهم، وأسفرت العملية عن أسر ثلاثة أسرى أو أربعة"[3].

في سنة 1568م في صباح يوم الجمعة قرّر دي مونتيسا أن يخرج إلى مكان يسمى "بوطيور" (Butior) على بعد 4 فراسخ (28كلم) للهجوم على مضارب احد دواوير المنتمين لقبائل الحْجَسْ بني حميد قرب وهران

---

[1] -(M). Nordine, Op.Cit, p.131.
[2]- Ibid, p. 173.
[3]- (D). Suarez, Historia del Maestre… Op.Cit, p.160.

مع مجموعة من الجنود، تاركين البقية لحراسة المدينة؛ إلاّ أنّ الأمطار الغزيرة أعاقت تحركهم مع الظلام الدامس اضطرّ حاكم وهران العودة إلى المدينة[1] .

اهتمّ الإسبان في حملاتهم العسكرية بإلقاء القبض على عدد كبير من الأسرى من كافة الأعمار، بعضهم يجري تعميدهم خصوصا الأطفال، والبعض الآخر من الرجال والنساء يبيعونهم عبيدا، أمّا الباقي فيفديهم أهاليهم وشيوخ القبائل حسب مكانة الشخص المفْدَى في قبيلته.

في المدّة التي أشار إليها سوارييز مونتانييس التي كانت مسرحا لإحدى عشرة عملية خروج (خورنادا) قبض الإسبان على 2160 أسيرا من مختلف الأعمار ينتمون لقبائل عديدة، أغاروا عليها، فقد باعوا 1803 أسرى ليكونوا عبيدا بوهران، و253 أُرسِلوا للبيع في اسبانيا، أمّا الباقي فوجّهوهُم للخدمات في مستشفى المدينة[2]. والبعض الآخر اقتادوهم للعمل في تجديف السفن وأشغال ترميم الحصون.

تباين عدد الأسرى المقبوض عليهم من عملية لأخرى، فأضعف عملية أسر كان عدد الأشخاص المقبوض عليهم فيهاأربعة أشخاص، وأكبر عملية أسر كان العدد فيها 283 أسير، نتج عن إحدى العمليات أسر 198 شخص، وأطلق سراح 20 شخصا، وكانت أكبر عملية إطلاق للأسرى من إحدى عشر غارة.

يلجأ الإسبان لتسريح بعض الأسرى بعدما يُثبتُ هؤلاء أنّهم من عرب السلام؛ حيث كان أفراد هذه القبائل يُحرّرون؛ لأنّهم كانوا يدفعون ضريبة السيغورو للإسبان[3]. يُقَدِّم هؤلاء الأسرى المفرجْ عنهم وثيقة تُثبت أنّهم من عرب السلام أو أنّهم يحملون وشما أو علامة في أجسادهم يُعرفون بها بأنّهم من القبائل المتحالفة معهم، فيُطلق سراحهم، وتُقدّم لهم تعويضات مالية على المعاملات السيئة التي تعرّضوا لها[4].

كانت وهران مركز أسر الجزائريين، فالعبودية والجحيم ينتظر الكثير منهم. لم يُفرّق الإسبان بين الجزائريين سواء أكانوا أطفالا أم نساء أو شيوخا، كثير منهم قتلوا جراء التعذيب والأشغال الشاقة، والعنف الجسدي والجنسي إلى درجة أنّهم يموتون في العبودية، عكس الأسرى والعبيد المسيحيين الأوربيين والإسبان فهم يُعاملون بطريقة حسنة عند الأتراك العثمانيين أو القبائل الوهرانية ، وما ذكره الأسير تيدنا خير دليل: "...ما كل هذا؟ أين

---

[1]-(D). Suarez, Historia del Maestre…Op.Cit, p.183.
[2]-(M). Nordine, Op.Cit, p.188

[3]-عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص315
[4]-المرجع نفسه، ص316.

تلك البربرية واللانسانية التي تُنْسِبُها معظم أوربا لهذا الشعب الذي أنتمي إليه حاليا، ألا يمكن أن يكونوا إنسانيين اتجاهي فقط، فقلتُ لنفسي لا"[1]، وأردف قائلا تمنّيا أن يُعامَل الأسرى المسلمين بالحسنى كما يُعامل هو: "أملنا أن يعامل العبيد من الترك الموجودين بين أيدي الإسبان والنابوليتانين والجنويين والمالطيين مثل ما يُعامل المسيحيين"[2].

3-رد فعل القبائل على الغارات الاسبانية:

لم تبق القبائل الوهرانية مكتوفة الأيدي أمام قدرها؛ بل تحركوا على جناح السرعة لنصرة إخوانهم المنكوبين بعد عودة الإسبان بالغنائم في طريق عودتهم إلى وهران تتعقّب هذه القبائل الكتيبة الاسبانية، وتتعرّض مؤخرة الجيش للمناوشة وعن طريق الهجوم المفاجئ وخاصة في الظلام؛ لأنّ مقاتلي القبائل لا يملكون الرصاص والبارود، ويستعملون فقط السيوف والرّماح، ورمي الحجارة والنّشاب. وقد اعترف دييغو سوارييز بقوة المحاربين الجزائريين؛ حيث قال: "صحيح أنّ في المواجهة المباشرة كان المور ماهرين أكثرمن المسيحيين (الإسبان)، وهم محاربين بارعين"[3]. أحيانا تطاردهم القبائل حتى أسوار مدينة وهران، ويطلبون منهم الخروج للمواجهة، في سنة 1567م في صباح يوم الأربعاء المرادف للسادس عشر من سبتمبر توجّهت مجموعة من كبيرة من فرسان قبيلة بني راشد (Beni Arex) حوالي 2000 من أفرادها طالبين الثأر لإخوانهم الذين قُتلوا واسروا"[4]، يقول سوارييز منتانييس: "يأتي هؤلاء حتى أسوار المدينة فيصيحون بأسماء الضّبّاط والجنود للخروج لمواجهة فرسانهم للمبارزة وجها لوجه"[5]. ويصفونهم بكل أنواع الشتائم مثل الخيانة والغدر ويعتبرون ذلك من أعمال الجبناء.

أحيانا يقود المرابطين الهجمات ضد الجنود الإسبان بشحن الهمم، وتذكيرهم بواجب الجهاد ضد الكفّار المسيحيين، وذكر سوارييز عن احد المرابطين له احترام واسع في منطقة هبرة وسيرات على بعد 9 فراسخ، وقد زار مكّة المكرّمة وقد حدث هذا أثناء حكم فليب دي بورخا (Filipe de Borja) والذي جهّز خورنادا في هذه الجهة[6].

---

[1]-عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص336

[2]-المرجع نفسه، ص336

[3]-(D). Suarez, Op.Cit, p.163

[4] -Ibid, p.162.

[5] -Ibid, p.162.

[6]-Ibid, p.163

لتجنّب هجوم مفاجئ من الجنود الإسبان يقوم الأهالي بتنصيب أشخاص على الطريق بين وهران والمكان التي تخيّم فيه القبيلة أو الدوّار يعْلِمونهم بقدوم الإسبان، ويسمى[1](Guardas y escuchar).

بعد إعلام الدّوار بقدوم المهاجمين يحزم الأهالي أمتعتهم ويغادرون المكان بعيدا ويسميهم الإسبان "بالرَحَّالَة"، ويعتمد أصحاب الدواوير سياسة حرق الأحراش للتشويش على الإسبان ليتسنّى لهم الفرار بعيدا عنهم وحماية عائلاتهم من القتل والأسر[2].

4-الجيش الاسباني بوهران:

لم يختلف الجيش الإسباني عن باقي الجيوش الأوربية في العهد الحديث تسليحا، عدّة وعتادا، ويختلف من حيث التنظيم والقوة مقارنة بإمكانيات القبائل الجزائرية التي لا تعتمد على نظام الجيوش الأوربية في ذلك الوقت؛ بل تعتمد على أسلوب الهجوم المفاجئ في الغالب (حرب العصابات حسب المصطلح الحديث).

يتكوّن الجيش الإسباني بوهران منذ بداية الاحتلال من: سلاح المشاة وسلاح الفرسان (الخيّالة)، وسلاح المدفعية وسلاح البحرية.

عند بداية الاحتلال كان عدد الجنود الاسباني أكثر من ستة عشر ألف جندي من مختلف الوحدات

(فرسان، مشاة، وعمّال النّحت والفنّ، ومغامرين، وطلائعيين، وصانعي أسلحة، وقائدي وحدات، وصيادلة وجراحين...الخ)[3].

كان عدد الجيش يزداد أو تقلّص حسب مقتضيات الحرب في وهران وما جاورها، ففي القرن الثامن عشر وصل عدد الجنود الإسبان في وهران إلى 26616 جنديا من مختلف الوحدات[4] وهذه الأرقام قدّمها الماركيس دي

---

[1] -(M). Nordine, Op.Cit, p.151
[2]-Ibid, p.152.
[3] -(N).Blum, Op. Cit, p.17
[4]-marquis de Tabalosos, Histoire d’Oran, Tr : (J). Cazenave, B.S.G.A.O, T.51, 1930, p.129.

طابلوسوس[1](le marquis de Tabalosos)، وفي القرن السابع عشر انخفض عدد الجنود في المدينة الى ما يقرب ألف جندي[2].

تُبيّن هذه الاحصائيات أنّ عدد الجنود انخفض بشكل كبير، نتج عن انحسار قوتهم في المنطقة واكتفائهم فقد داخل أسوار المدينة والدفاع عنها فقط، واعتمادهم فقط على أسلوب (las Jornadas) لتموين المدينة، والتموين الذي يأتيهم من القبائل المتحالفة معهم.

حكم وهران منذ 1506م حاكم عام بمثابة قائد عسكري عام وهو دون دييغو فرنانديث دي قرطبة، وقد اقترح على القائد العسكري بيدرو نافارو أن يكون حاكما عاما؛ لكنّه اعتذر فقط لأنّ طموحاته كانت اكبر من أن يكون حاكما عاما على وهران والمرسى الكبير، ومنح دون دييغو فرنانديث دي قرطبة لقب " الحاكم العام لوهران والمرسى الكبير ومملكتي تلمسان وتنس"، ويُعيّن هؤلاء الحكّام الملك الاسباني، وعادة ما يكونون من العائلات النبيلة والكبيرة باسبانيا.

نعتمد الآن على التقسيم العسكري الذي ذكره الماركيس (de Tabalosos) في القرن الثامن عشر من أعلى رتبة إلى ادنى رتبة:

الحاكم العام: يساعده ستة مستشارين برتبة ملازم أول، وماريشالات المعسكرات وعددهم تسع ماريشالات

أ–ضُبّاط الصّف:

ضابط عام للفرسان: يساعده ضابط صف، ويوجد ضُبّاط برتبة عريف تابعين لسلاح الفرسان.

ضبّاط برتبة عريف لسلاح المشاة عددهم اثنا عشر عريفا.

قيادة أركان سلاح المدفعية وعددهم اثنان ويساعدهما أربعين ضابطا.

وزراء عامون للحرب عددهم خمس أشخاص وهم: الأمين العام، الكاهن العام لمدينة وهران، والمضيّف العام، ومُراجع الحسابات، والقابض، وأمين المالية[1].

---

[1]– حسب (ج). كازناف يعتبر الماركيس دي تابالوسوس هو الابن البكر للحاكم العام بوهران والمرسى الكبير اوجين دي البارادو (Eugène de alvarado)، (1770–1774) من العائلات الاسبانية الكبيرة، ودوق مدينة لَرْمَا (Larma) ومن فرسان القديس يوحنا، كان يحمل شهرة واسعة في أمريكا قبل مجيئه إلى وهران.

[2] -(L). Joseph de Sotomayor y Valenzuela, Op. Cit, p.15.

يتكون سلاح المشاة من ستة عشر فوجا، وكل فوج يتكوّن من عدة كتائب، والكتيبة بها 2924 جنديا. إذن عدد جيش المشاة هو 23100 جندي[2].

-سلاح الفرسان يتكوّن من ثلاث فرق هي: الملكة، والأمير، وسانتياغيو، وغرناطة، وكل فرقة تتكوّن من ثلاث سرايا من الخيّالة. عدد فرسانها 1676 فارس.

اضافة الى متطوعين من مختلف دول الحوض المتوسط واسبانيا.

-سلاح المدفعية يضم 108 مدفع منها 60 مدفع عيار21، و20 مدفع عيار16، و12مدفع عيار6.

20 مدفع هاون عيار18، و40 مدفع هاون عيار 12 [3].

-يتكوّن سلاح البحرية الاسباني بوهران من عدة قطع بحرية مختلفة المهام، وحسب ما ذكر (Tabalosos) عدد القطع البحرية هو 274، منها 46 سفينةوذكر أسماء بعض السفن وفيها من 50 إلى 80 مدفعا[4].

اعتمد الإسبان للدفاع عن المدينة من هجمات الأتراك العثمانيين والقبائل الجزائرية على الحصون كأسلوب عسكري كما كان سائدا في العصر الحديث وما قبله؛ لأن الجدار المحيط بالمدينة والحصون التابعة له يعتبر بمثابة الجندي الذي يدافع عن المدينة، وصد الهجمات من البرّ والبحر.

ذكر صاحب الثغر الجمّاني أسماء الحصون الإسبانية بأسمائها الأصلية، وهي كالآتي:

-سانتا كروز(santa cruz)، هو برج مرجاجو، وذكر أنّه يحمل ثلاثين مدفعا على ارتفاع 375م، يطل على مدينة وهران والمرسى الكبير، ويحميها من البرّ والبحر.

-سان قريقوري (san grigorio) وهو برج اليهود، يحمل هو الآخر ثلاثين مدفعا تحته لابونتا لامونا (la punta la mona)، تحمل أربع مدافع وهي على ضفة البحر[5].

-سانتي أقو (sante agu)؛

---

[1] -le marquis de Tabalosos, Op.Cit , p.127.
[2] -Ibid, p.188.
[3]- Ibid, p.129
[4] -Ibid, p.130.
[5]-ابن سحنون الراشدي، الثغر الجمّاني في ابتسام الثّغر الوهراني، تح، المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة، الجزائر، د.ت، ص208

-سان بيزرو فيها أربعةُ مدافع؛

-سانتا ايزابيل (santa Isabel) فيها ست مدافع؛

-لاورديا البونس؛

-كوندكت به أربع مدافع؛

-لا لينا بها أربع مدافع؛

-روسا كاسار(Rosalcazar) يحمل 300 مدفع، وهو أول القصور التي بنيت في وهران، ومعناه القصر الأحمر، ويُعَدُّ من الحصون المتقدّمة يطل على ميناء وهران[1]؛

-بال وارتي؛

-سان نيكولاس؛

-سان خوسيف؛

-سانتا بربارا(santa Barbara) يقع جنوب سان ميقيل (san Meguel)؛

-سان مقيل يقع في الشمال الشرقي للمدينة؛

سان أنديرسون به 100 مدفع؛

-برج العيون؛

-لا باتاريا نويفا (nueva)؛

- سان كاركو؛

-سان فرناندو(san Fernando)؛

-برج المرسى[2].

[1] -(J). Cazenave, Cervantes à Oran 1581, B.S.G.A.O, T.43, 1923, p.218.

[2] -ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص209،208.

حفر الإسبان أنفاق أرضية تربط الحصون الأبراج فيما بينها لمواجهة خطر الحصار وقصف المدافع، يقول ابن سحنون الراشدي:"وأمّا المواضع التي وُضعت لمجرد الرّمي بالرصاص فلا يمكن إحصاؤها، وما من موضع من هذه المواضع إلاّ وفيه نفق إلى غيره فمن كان فيها وأراد أن يذهب تحت الأرض إلى أيّ موضع فيها أو من المدينة ذهب، وبذلك ازدادت المدينة تحصينا"[1]، ووضع الإسبان حول المدينة الخنادق في كل صوب بينها وبين سور المدينة لمنع العدوّ من التقدّم.

لكل جيش عبر التاريخ لِوَاءَ الحرب، وللإسبان ألوية الحرب مثلهم مثل الجزائريين وقد ذكر فرانسيسكو دي لا كويبا أنّ الكونت أرسل غارسيا دي نافارات (de Navarette) إلى قرطبة في مهمة لجلب القماش الصوفي بمختلف الألوان لصنع أربعة وأربعين لواء حربيا[2]. يحمل اللواء الحربي الإسباني صليب بيت المقدس باللّون الأحمر مطرّز بالذّهب ومعطف القديس يوحنا دي كوموستيلا، وبه شعارا كُتب فيه:"مولاي؛ الانتصار بمباركتكم، وأنا بدوري سأهزم الأعداء بفضلكم"[3].

كان طعام الجنود البسكويت، والخمر، واللّحم المملّح، والزيت والخُضار الجافة[4]. ويرافق الجنود في حملتهم العسكرية ممثّل عن الكنيسة الكاثوليكية أو قِسٌّ لتذكيرهم بالحرب المقدّسة ضد أعدائهم، وتلاوة الترانيم وإقامة الصلاة، ويحمل الصليب الذي يُرفع في الحروب والمعارك ولواء أبيض، ومن هؤلاء القسيسين القس فرانسيسكو دي لا كويبا الذي رافق الكونت دالكوديت في ثلاث حملات عسكرية وصاحب كتاب " حرب تلمسان سنة 1543م".

لم يكن الجنود في نزهة سياحية بوهران؛ بل كانت المعاناة طيلة وجودهم بالمنطقة، وقد اعترف الضابط بلتثار دي موراليس[5](Baltazar de Morales)على أنّ الحربَ مؤلمة يقول:" في هذه النقطة يكاد الكلام أن

---

[1]–ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص209.

[2] -(F). de la Cueva, Op.Cit, p.365.

[3]-Ibid, p.365.

[4] -Ibid, p.367.

[5]–(ب). دي موراليس كان ضابطا في جيش الكونت دالكوديت، وذكر الأحداث التي عاصرت الكونت، وقدّم كتابه بأسلوب أدبي على شكل حوار ثلاث شخصيات وهم: مندوثا، ونافارات، وغوزمان، نُشرَ كتابهُ سنة 1593

يكون غير كافٍ للتعبير عن مآسيها، ويمكن للجندي أن يكون جيدا؛ لكن يجب أن يتطلب الأمر مجهوداتٍ للقيام بمهنة يمتهنها عامة الناس، يجب تحمّل الكثير من التّعب"[1].

بسبب هذه المعاناة كان الجنود الإسبان يفعلون أيّ شيء للهرب من الجندية بوهران، وأحيانا يهربون عند القبائل الوهرانية بعتنقون الإسلام، أو يهربون في قوارب صغيرة نحو المدن الساحلية الجنوبية الاسبانية.

5-مدينة وهران أثناء الاحتلال الإسباني:

معروف بين المصادر التاريخية والجغرافية أنّ مدينة وهران تأسّست في القرن العاشر ميلادي (902م)، والذي اختطّ المدينة هو المغراوي خزر بن حفص بن صولات بن وزمان بن صقلاب المغراوي عام 290هـ[2]، وهذا حسب ما ذكر محمد بن يوسف الزياني نقلا عن أبي راس الناصري الذي أكّد صحة التاريخ، وقد وُصِفتْ المدينة من أجمل مدن المغرب ووصفها أبو عُبيد البكري حين زارها: " مدينة وهران ذات مياه سابحة أرحاء ماء وبساتين ولها مسجد جامع، وبنى مدينة وهران ابن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الاندلسيين البحريين الذين ينتجعون مرسى وهران باتفاق منهم مع نفر من بني يسقن"[3].

كانت مَدِينَةً تِجَارِيةً تستقطب التُجّارَ من كل حَدْبٍ وصَوْبٍ، ومركزا تجارياً للبنادقة والجنويين، وحلقة وصلٍ بين أوربا وإفريقيا جنوب الصحراء، وأُعْجِبَ الحسن الوزان بالمدينة ووصفها بالمتحضِّرة فقال عنها حين زراها في القرن السادس عشر: "بها من البنايات والمؤسّسات ما تتميّز به كل مدينة متحضّرة، من مساجد ومدارس وملاجئ وحمامات وفنادق مُحاطة بأسوار عالية"[4].

أحصى جوزيف بايبخو عدد المنازل في مدينة وهران بعد سنة 1732م بأربعمائة منزل وأنّ معظم هذه المنازل صغيرة؛ لأنّ معظمها بناها المور (الاهالي) من مواد بناء سيئة، وبلى وتهدّم معظمها؛ لتعرّضها للقصف بالمدفعية مما أصابها التخريب"[5]. أمّا ليون الافريقي(الحسن الوزان) فذكر أنّ المدينة يوجد بها 6000 كانون (

[1] -(B). de Morales, Dialogue sur les Guerres d'Oran, Tr : (R) .Francisque Michel, p.106.

[2] -محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص31.

[3] -أبي عُبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية، دار الكتاب، القاهرة، د.ت، ص74.

[4] -الحسن الوزان، المصدر السابق، ص30.

[5] -(J). Vallejo, Op.Cit, p.333

منزل)، وهذا رقم كبير مقارنة مع ما ذكره جوزيف بايخو؛ لأنّ المدينة تعرّضت لحالة من عدم اللاأمن جراء الحصار الذي تعرّضت له المدينة والقصف والجوع والأوبئة.

أطلق الإسبان على المدينة القديمة (العريقة) اسم Alcazaba مشتقة من الكلمة العربية القَصَبَة، وهي أصل مدينة وهران ومنها توسّعت، وقد زاد الإسبان في بناء المباني وأثناء دخول الباي بوشلاغم حوّل المحكمة العسكرية بيتا لحريمه، وبنى مقرّا لإقامته وانشأ ثكنات عسكرية وقصرا للحكومة، وحيّا خاصا بالجنود فقط. تعرّضت معظم هذه المباني للتخريب أثناء الزلزال الذي ضرب المدينة سنة 1790م[1]، وذكر أونطابا (Hontabat) أنّ المدينة كانت تضمّ اثنين وأربعين مبنى عمومياً اختفت جراء الزلزال[2].

كان في المدينة عدّة شوارع وأحياء معروفة، وقد نجد شارع أودينو(Audinot) وشارع كليبر (Kléber) الذي يقع بين شارعي مدريد وساحة الجمهورية (République) وفي الأسفل تقع حديقة مستشفى بوديف مرور بشارع أرسنال (Arsenal)، ثم شارع رونيون (Rognon) الذي يؤدّي الى ميناء سانتوس (Santos). كان بوسط مدينة وهران ساحة عمومية تدعى "ساحة اللؤلؤ" أو (la plaza de armas) ساحة السلاح وبها دكاكين لبيع اللحوم وبيع التبغ ويجاورها مباني مخصّصة للسجناء، ويحيط بالمدينة بابان واحد؛ الباب الأول يدعى باب تلمسان ويقع في الجنوب، أمّا الباب الثاني فيسمى باب كنستال، وهو الباب الرئيسي لدخول السلع والتجّار عن طريق محاذي للبحر، ويؤدي هذا الباب إلى ساحة كليبر وشارع مدريد[3].

انشأ الإسبان مستشفيين تابعين للمؤسسة الدينية الكاثوليكية، الأول أمر الكردينال خمينيث بإنشائه بعد دخوله المدينة سنة 1509م، وقد حُوِّل سنة 1772 لثكنة عسكرية، والثاني كان معبد كنسي (la chapelle) كان في الأصل كَنِيسْ يهودي بعد طر الجماعي لليهود سنة 1669م من وهران.[4] في المقابل لم يكن بإمكان المسلمين الموجودين بالمدينة إظهار شعائرهم الدينية بما فيه الكفاية في وهران الإسبانية، ففي سنة 1772م كان يوجد بالمدينة على الأقل مسجدا واحدا مهترئ ومهجور وذكر اونتابا أنّه كان مسجدا يصلي فيه المسلمين المتواجدين بالمدينة وقد كان مخزنا للحبوب في نفس الوقت ويسمى مسجد سيدي الهواري[5]، وهناك

[1] -(A). Pestemaldjoglou, ce qui subsiste d'Oran espagnol, R.A, N°79, 1936, p.666
[2]- Ibid, p.672
[3]- Ibid, p.668
[4] -Ibid, p.673
[5]- Ibid, p.674

مسجدا آخرا يدعى " مسجد خنق النطاح" (Karguentah) وهو موجود منذ 1509م، وقد أطلقت عليه الوثائق الاسبانية (mesquita blanca de los moros) أو(la casa blanca)الدار البيضاء.

حافظ الإسبان على ضريح الوليّ الصوفي سيدي محمد الهواري[1] الذي يقع وسط مدينة وهران، ولم يتعرّض للتّخريب، ويُعدّ أكبر المتصوّفة الذين استقرّوا بوهران حتى وفاته بها وكان ضريحه محجًّا من كل حدب وصوب، وَتُقَامُ الاحتفالات والطقوس الدينية في كلِّ شهر سبتمبر، وفي كلِّ يوم سبتٍ، يأتي المريدين من كل أنحاء الغرب الجزائري لزيارة ضريحه وأحيانا من المغرب الأقصى[2]، وحسب (ج). كازناف ضريحه يقع في شارع القصر العتيق (vieux château) بالقرب من مسجد صغير حوّله الفرنسيون بعد احتلالهم المدينة إلى مكاتب عسكرية، ويأخذ الضريح شكل المربّع له قبّة وباب ضيّق، وفي داخل الضريح يوجد قبر سيدي محمد الهواري مُغَطًّى بلوحٍ خشبي، وبِضْع رايات، وقد دُهن جدار الضريح بجير أبيض كلسي[3]. توفي الوليّ الصوفي سيدي محمد الهواري عام 1439م.

يوجد بالمدينة بابان أحدهما للخروج والآخر للدخول؛ الباب الأول وهو باب تلمسان ويقع جنوب مدينة وهران وهو مخصّص للخروج، أمّا الباب الثاني فيدعى باب كانستال وهو الباب الرئيسي لدخول السلع والتجّار، يقابل البحر، ويؤدي هذا الباب إلساحة كْليبر (Kléber) وشارع مدريد.[4] فوق ميناء وهران يوجد شارع به حديقة تدعى حديقة والسفورد نسبة إلى القنصل الانجليزي الذي أقام بوهران حتى سنة 1830م[5].

تميّزت البيوت الوهرانية بالإتقان، وأنّ واجهة البيوت متشابهة على نمط العمران في ذلك الوقت، فالنمط الأول يتميز بفنائه الداخلي وهو منفتح على الشارع قليلا لدخول الهواء وأشّعة الشمس على نمط الهندسة الاسبانية القشتالية، ونجد ذلك في شارع القصر العتيق، أمّا النمط الثاني يتميز بهندسته المعمارية الموريسكية، بيوتاته بها فناء داخلي مزخرف يوجد به ممرّ مَسْقُوفْ يستند إلى أعمدة وأقواس. وقد أعطى باتماالجوغلو

[1]–ولد الشيخ محمد الهواري بقلعة هوارة عام 1351م وتوفي عام 1439م بمدينة وهران، رحل إلى فاس وبجاية وأسّس زاوية ومن مصنّفاته كتاب "السهو والتنبيه"، وهو عبارة عن شعر ملحون باللغة الدارجة، من تلاميذه الشيخ ابراهيم التازي (توفي بوهران عام 1462م)، انظر يحي بوعزيز: =موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ص126. ترجم له محمد بن يوسف الزياني في كتابه "دليل الحيران" وصاحب " طلوع سعد السعود" الأغا بن عودة المزاري.

[2] -(J). Cazenave**, un Grand Saint Musulman Sidi Mohamed El-Houari d'Oran**, A.N.I, N°253, 6 Mars 1926, Alger, p.8.

[3]- Ibid, p

[4]- Pestmaljoglou, Op.Cit, p.668.

[5]-Ibid, p.671.

(Pestemaljoglou) مثالا عن هذه الأبنية الموجودة بالمدينة وهو بيت المال أو الخزينة؛ والذي يقع في شارع مدريد به سراديب بأعمدة وله طابقين[1]، وقد ذكر المهندس المعماري أونتابا (Hontabat) في مذكراته المؤرخة في سنة 1772 قائلا:" كان قصر الحاكم العام في المدينة مقسّما إلى 37 غرفة، يقيم به مع عائلته، ومكاتب لموظفي القيادة العامة، وحراسه الشخصيين، وبه اصطبلات جميلة مخصّصة للخيول وحديقة ومسابح"[2].

عرفت وهران عدّة مهندسين معماريين شاركوا في بناء مدينة وهران وتحصينها ضد هجمات أعدائهم سواء من البرّ والبحر، ومنهم المهندس دون أرلاندو أونتابا(Don Harlando Hontabat) الذي ساهم في تحصين مدينة وهران، والمهندس جون باليستير (J. Ballester)، والمهندس مونتغو (Montagut) الذي وضع مخطّطا لإعادة بناء وترميم قصر سان فليب[3].

زار مدينة وهران مشاهير في القرن السادس عشر منهم دون خوان النمسا (Do Juan d'Autriche) سنة 1568م، يقول (ج). كازناف: " في فجر يوم الأربعاء 14 جويلية 1568م استيقظ الوهرانيون على خبر فرقاطتين متقدّمتين ببطء على رأس أرمادة ضخمة إلى الساحل الوهراني، يتكوّن من اثنين وثلاثين سفينة من نوع غليوطة (Galère) تحت إمرة الأميرال سانشي (Don Sanche) ودي ليبيا (Leiva)، ويركب هذا الأسطول أمير كبير هو دون خوان النمسا الابن الغير الشرعي للملك شارلكان أخ الملك فليب الثاني"[4]. ارتبط اسمه بمعركة ليبانتو التي سُحِقَ فيها أسطول الدولة العثمانية، وقَمَعَ ثورة المورسكيين المسلمين في اسبانيا ضد الكاثوليك الإسبان.

إنّ زيارة الأمير إلى المدينة كان الهدف منها التعرّف على الساحل الجنوبي لحوض الغربي للمتوسط ومستقبل المدينة في ظل التهديدات التي يواجهها الاحتلال الاسباني، سواء من القرصنة البحرية الجزائرية أو هجمات القبائل الوهرانية المعادية لهم المدعومة من الأتراك العثمانيين [5]

أمّا الشخصية الثانية التي زارت المدينة هو الروائي الإسباني ميغال سرفانتس[1] سنة 1581م، وقد وفد إلى المدينة في مهمة رسمية من الملك الاسباني فليب الثاني، واطّلع على أحوال الجُند وأُستقبله دون مارتين دي قرطبة؛

---

[1]-Pestemaljoglou, Op.Cit, p.676.
[2] -(J). Cazenave, contribution à l'Histoire… Op.Cit, p.332
[3]-Ibid, p.339
[4] -(J). Cazenave**, visite de Don Juan d'Autriche**, A.N.I, N°146, Février 1924, p.3.
[5]-Ibid, p.3.

الذي أُسر في معركة مزغران سنة 1558م. وأثناء إقامته بالمدينة لاحظ الحياة الصعبة التي يعيشها الجنود فهم لا يحصلون على رغيف الخبز بصورة منتظمة؛ لكنّهم يتظاهرون عكس ذلك، وقد وصف هذا الموقف بالبطولة والشجاعة[2].

دخل ميغال سرفانتس في محادثات مع شخصيات في المدينة منهم الحاكم العام للمدينة والمهندس الايطالي جاكوم بالياثو (Jacome Pleazo) واستمع إلى مشاكلهم وانشغالاتهم، وبعد مكوثه قرابة شهر عاد سرفانتس إلى اسبانيا، وقد وصل إلى ميناء قرطاجنة في 25 جوان 1518م، حاملا رسالة من الحاكم العام لوهران إلى الملك الاسباني، ومزوّدا بمعلومات هامة قدّمها له قائد مستغانم حول الحالة العامة للغرب الجزائري والقبائل الجزائرية، وحالة ايالة الجزائر[3].

توصّل سرفانتس إلى تصور عام ومفصّل حول حالة وهران والغرب الجزائري، وحالة ايالة الجزائر؛ لأنّه أمضى بضع سنوات في الأسر في مدينة الجزائر (1575-1580)، وكتب سرفانتس مسرحية درامية بعنوان (Gallardo Español) أو " الشجاع الاسباني" تدور أحداثها في وهران والمرسى الكبير وضواحيهما أثناء الحصار الذي ضُرب على المدينة سنة 1565م من قبل حسن ياشا، وقد أبدى الجنود الإسبان شجاعة في الدفاع عن مدينتهم التي احتلوها، وذكر (ج). كازناف أنّ كاتب المسرحية نوّه أنّه مزج بين الحقائق التاريخية مع الخيال المسرحي ممزوج بالرومانسية[4].

كانت حملة كبيرة؛ ذكر هايدو أنّ حسن باشا جنّد آلاف المقاتلين منهم خمسة عشر ألف من رماة السّهام، وألف صبايحي (فرسان)، وأرسل ملك امارة كوكو ألف فارس وعشرة آلاف من المقاتلين تحت قيادة شيوخ القبائل، وتكوّن الأسطول البحري من اثنين وثلاثين قطعة بحرية، تحمل المؤونة والسلاح والمدفعية بمساعدة قطع بحرية فرنسية تحمل البسكويت، ورغيف الخبز والزبدة والتين...الخ[5]. وصل هذا الجيش لقصف المرسى الكبير؛ لكن المدافعين بقيادة دون مارتين دي قرطبة ابن الكونت دالكوديت استطاعوا أن يفكّوا الحصار وأفشلوا الحملة.

---

[1] –ميغال سرفانتس كاتب وروائي اسباني عاش في القرن السادس عشر ميلادي أسره بحارة جزائريون في 25 سبتمبر 1575م، وبقي في الأسر حتى سنة 1580، يُعدّ من أعظم الروائيين عبر التاريخ، صاحب رواية Don quichote de la mancha، شارك في معركة ليبانتو، وتوفي سنة 1616م.

[2] -(J). Cazenave, Cerventes à Oran…Op.Cit, p.220.

[3] -Ibid, p.223.

[4]-Ibid, p. 224.

[5]-(D). Haedo, Op.Cit, p.128.

ظهرت على ركح المسرح الفرنسي قطعة مسرحية من إنتاج الكاتب والمسرحي فولتير (Voltaire) بعنوان زوليم (Zulime)[1] في 9 جوان 1740، وتدور أحداث المسرحية في ضواحي مدينة وهران بالضبط قرب أرزيو بين فتاة من الأهالي المور ابنة شيخ قبيلة وجندي اسباني يدعى رامير(Ramir) وقع في الأسر، فتقع بينهما علاقة حب؛ لكن في نهاية المطاف تُكتشف علاقتهما ويقتل أمام عشيقته وهي تذرف الدموع ويتخلص الأب من ابنته. اقتبس فولتير مسرحيته الدرامية من كِتَابْ المؤرخ الأسباني مارمول كربخال " إفريقيا"، وقد كان الكتاب معروف جدا بفرنسا بعد أن ترجمه إلى الفرنسية بيرو أبلنكور (p. Ablancourt) سنة 1667م[2].

6-يهود وهران والاسبان: تَعَاوُنْ ظَرْفِيْ وَرَيْبَة مُتَبَادَلَة.

أ-أهم العائلات اليهودية بوهران:

منذ احتلال الإسبان وهران سنة 1509 ويهود وهران دور في الأحداث التي شهدتها وهران والمنطقة؛ حيث ذكرت المصادر الأسبانية والمحلية[3] أنّ أحد اليهود البارزين كان مسؤولا عن فتح أبواب المدينة أمام جيش خمنيث بمساعدة اثنين من أعيان المدينة (المور) وبذلك بدأت بعض الامتيازات التي تحصّل عليها اليهود، يقول محمد بن يوسف الزياني: " ولما مكّن اليهود النّصارى من وهران شرطوا عليهم برج المرسى فأنزلوهم به وفاء بالعهد، واليهم يُنسبُ برج اليهود الذين بهيدور"[4] .

إنّ حضور اليهود في وهران كان قبل الغزو الإسباني للمدينة، فقد استقرّوا بوهران منذ 1391م بعد تعرّضهم للاضطهاد الكبير في مملكة قشتالة (الكاستيل)، وكتالونيا وجزر البليار[5] ؛ لكن بعد سقوط غرناطة سنة 1492م بدأ الإنزال اليهودي المكثّف بوهران قادمين برفقة المسلمين الأندلسيين الفارين من شبه الجزيرة الأيبيرية .

طلب الحاكم العام الإسباني الماركيس غوماريس سنة 1591م من دافيد ماكي (Maque) أن يجري تحقيق عن العائلات اليهودية التي استقرّت بوهران قبل مجيء الإسبان، وجاء في التقرير أنّ سبعة عشر عائلة يهودية كانت تسكن وهران قبل الإسبان وأبرزها:

---

[1] -(J). Cazenave, **un Drame Africain de voltaire**, A.N.I, N°180, 11 Octobre 1922, p.2.

[2] -Ibid, p.2.

[3]-من المصادر الاسبانية التي ذكرت اليهود كتاب "افريقيا لصاحبه مرمول كربخال، والجندي الأسباني دييغو سواريز منتانيس، أما المصادر المحلية فنذكر منها عجائب الأسفار لأبي راس الناصري، وكتاب دليل الحيران لمحمد بن يوسف الزياني.

[4]-محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص142.

[5] -(R). Ayoun**, les juifs d'Oran avant la conquête Française**, R.H, Paris, 1928, p.376.

1-عائلة إسحاق كانسينو يبلغ من العمر ستين سنة، ولديه اثنين من الأولاد هما: يعقوب وحيّان، لديهما ستة أبناء كلهم متزوجين ووُلدوا في مدينة وهران.

2- عائلة أرملة أرون بن زمورة، هي أخت إسحاق كانسينو، تتكوّن عائلتها من ابنتها وزوجها وابن خالها حيّان كانسينو.

3-عائلة أرملة سافيكو، لديها ابن متزوج واثنان أعزبان.

4-عائلة أرملة يعقوب باليسترو، لديها ابن وبنتين كلّهم عُزّب، وابنة متزوجة من ياغو، ويعيشون تحت سقف واحد[1].

قدّمنا بعض العائلات التي جاءت أسماؤها في التقرير الإسباني في نهاية القرن السادس عشر، وربّما كان عدد أفراد الجالية اليهودية بوهران قُبيل وصول الإسبان كان أكثر من مائة فرد.

رغم الامتيازات التي قدّمها الإسبان لهم، فقد كانوا ينظرون إليهم بعين الريبة؛ لعلاقتهم واتصالاتهم مع إخوانهم في تلمسان ومعسكر ومدينة الجزائر، وعلاقاتهم التجارية الوثيقة مع أتراك الجزائر.

بلغ عدد اليهود في مدينة وهران سنة 1668م حسب ما جاء في التقارير الإسبانية نحو ألف وثمانمائة يهودي، يرأسهم شيخ الأمة (الحاخام الأكبر)[2] ؛ لكن قبل الترحيل الجماعي لليهود من المدينة على أيدي الإسبان سنة 1669م، ووصل عددهم أربعمائة وخمسين يهودياً عندما كانت وهران يبلغ عدد سكانها ستة آلاف شخص[3]، بنسبة 8% من عدد سكان وهران في مقابل ألف وسبعمائة جندي اسباني يؤدون الخدمة العسكرية في المدينة، وستّة آلاف من المدنيين المسيحيين وألف وخمسمائة من المسلمين الذين ينحدرون من المدينة وفي صلح دائم وتعاون مع الإسبان.

نجد داخل أسوار المدينة الحيّ اليهودي من أجمل وأفضل الأحياء في وهران، ويوجد به كنس يهودي لممارسة الشعائر الدينية اليهودية ومدرسة لتعليم الآداب والتقاليد اليهودية محافظين عليها منذ عهد النبي موسى[4]، وجاء في التقرير السابق للضابط ستومايور أنّ منازل اليهود في أفضل حالها من نظيراتها عند المسيحيين والمسلمين[5].

---

1 -(L). Joseph de Stomayor y Valenzuela, Op.Cit, p.13.
2- Ibid, p.15.
3-Ibid, p.15.
4-Ibid, p.16.
5-Ibid, p.16.

لم يكن يهود وهران كلّهم ميسوري الحال وتجّار؛ بل امتهنوا الحرف بمختلف أنواعها من دباغة، وشحذ السيوف والسكاكين، بالإضافة إلى التّرجمة من اللغة العربية إلى الاسبانية والعكس صحيح.

يُفتح الحيّ اليهودي صباحا بواسطة مفاتيح وتغلق أبوابه مساء، ويمنع توسيع الكنس اليهودي أو تجديده، ونادرا ما تُرى المرأة اليهودية تخرج سافرة في زيارة جاراتها المسيحيات إلاّ بصحبة إحداهن. ويوم السبت تتزّين المرأة اليهودية بأجمل ما لديها من حليّ وتخرجن جماعات لزيارة أهاليهنّ الأموات في المقبرة[1]، ويعتبر يوم السبت يوم عطلة بالنسبة لليهود.

أمّا لباس اليهود يرتدي الرّجل لباسا طويلا وبرنوس يغطّي به هذا اللّباس، ويعتمرُ قبعة عبارة عن قلنسوّة وتشدّ هذه القبّعة بقطعة من القماش[2].

ب–علاقة اليهود بالأسبان:

اكتسب اليهود الخبرة التجارية ورأس المال ما عزّز نفوذهم ليكوّنوا رابطة تجارية بين الأضداد في الجزائر، إضافة إلى الحنكة الدبلوماسية ومعرفتهم تفكير الإسبان والقبائل الوهرانية، وتحكّمهم في اللغتين العربية والأسبانية.

ذكر عبد القادر المشرفي أنّ الأسبان كلّفوا اليهود بجمع الضرائب من قبائل بني عامر (أولاد عبد الله)، وذكر أنّ اليهودي يخرج بمحلّته ويضرب خباءه وسط دواوير بني عامر، ويتصرّف تصرّف الملك في رعيّته دون رقيب ولا حسيب، ويجلد هذا ويخلي سبيل ذلك[3].

إنّ أبرز شخصية يهودية في النصف الأول من القرن السادس عشر هو إسحاق كانسينو الذي ولد بوهران، يقول أيون: " إنّ عائلة كانسينو تنتمي إلى يهود اشبيلية (اسبانيا)، تركت المدينة بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، واستقرّت بمدينة تلمسان، وتحصّلت هذه العائلة على تصريح من الملك الإسباني فرديناند الكاثوليكي بالإقامة في وهران"[4]. بعد طرد الإسبان اليهود من وهران سنة 1669م غادرت العائلة إلى ليفورن بايطاليا مثلها

---

[1] -(R). Ayoun, Op.Cit, p.381.
[2]-Ibid, p.381.

[3]–عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص34

[4]–(R). Ayoun, Op.Cit, p.379.

مثل العائلات اليهودية المطرودة من وهران، ويؤكّد أيون أنّ عائلة كانسينو استقرّت بلندن في نهاية القرن التاسع عشر[1].

زوّد اليهود إسبان وهران بالمعلومات المهمّة عن المنطقة؛ وعن الوضع في مدينة تلمسان، ومواقع وتحركات القبائل الوهرانية واتصالهم بيهود مدينة الجزائر التي كانت مركز الحكم العثماني بالجزائر عن طريق المبادلات التجارية، وفي سنة 1550م زوّد جاكوب كانسينو (وهو ابن إسحاق كانسينو)الإسبان معلومات مهمة عن الوضع السياسي بالمغرب الأقصى[2]. وزّود سابورتاس الإسبان معلومات عن منطقة تازة.

احتكرت أسرة كانسينو الترجمة لدى الإسبان في وهران أبا عن جد بعد قرار الملك فليب الثاني، ويقول أيون: " أنّ هذه الأسرة احتكرت الترجمة أكثر من قرن"[3]. وهذا لاحتكاكهم بالجزائريين عرب وبربر، سواء بالتجارة أو بالمجاورة. أحيانا كان اليهود يُترجمون لإسبان وهران وكذلك يفعلون نفس الشيء مع الملك الزياني مقابل المال حين تجري المفاوضات بين الطرفين، وكثيرا ما يتردّد يهود وهران على تلمسان ويمدّونهم بمعلومات مهمّة حول الوضع في تلمسان. وهذا ما أكّدته الوثائق الأسبانية؛ حيث ذكرت رسالة أرسلها الكونت دالكوديت حاكم وهران إلى الملك الاسباني فليب الثاني مؤرخة في 17 جوان 1556م أحد الأهالي وصل إلى وهران حاملا رسالة من اليهودي جاكوب كانسينو يؤكّد فيها معلومات تفيد أنّ الشريف العلوي عازم على غزو مدينة تلمسان[4]. ونجد نفس الشخص في وثيقة أخرى تتحدث عن دوره في مفاوضات جرت سنة 1555 بين الإسبان والشريف السعدي لخوض الحرب ضد باشا الجزائر بالإضافة إلى القبائل الوهرانية التي يقودها قائد بني راشد المنصور بن بوغانم[5].

في المقابل نجدهم يقومون بدور دبلوماسي عند سلاطين بني زيان، وعُيّنوا صفة مفاوض رسمي باسم السلطان الزياني؛ حيث ذكرت شانتال دي لفيرون أنّ الملك الزياني بعث سِفارة دبلوماسية إلى وهران على رأسها اليهوديين إسحاق كانسينو وأبرهام زاميرو وبصحبتهم ثلاثة ممثلي الملك من الأهالي المسلمين[6]. شخصية أخرى من اليهود كان سفير الملك الزياني محمد المنصور وهو سلمون تيرنيرو (Salamon Ternero)، الذي قاد مفاوضات

[1] -(R). Ayoun, Op.Cit, p.379.
[2]-Ibid, p. 379.
[3] -Ibid, p.379.
[4] -(R). Ricard et (Ch). De la veronnre, Op.Cit, p.336.
[5]-Ibid, p.366
[6]-(Ch). de la veronne, Oran et Tlemcen… Op.Cit, p.18.

السلام مع الإسبان بوهران ابتداء من 1520م، كان في تلمسان جالية يهودية تسكن بها مثلها مثل وهران وبقية المدن الغرب الجزائري (معسكر، مستغانم)، وقد سيطر اليهود على مقاليد السلطة في عهد بني زيان ومختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية حسب تعبير عبد الرحمن الجيلالي[1]. وذكر فوزي سعد الله شخصية يهودية ذاع صيتها في كامل بلاد المغرب وهو إسحاق افرايم النقاوة بن المعلّم إسحاق هاكادوش، لجأ إلى تلمسان فارا من القمع المسيحي في مدينة طُليطِلة (1359-1442م)[2] ، ووصل نفوذهم حتى الصحراء في منطقة تِمَنْطِيْطْ وتْوَاتْ، وربما ينتمي هؤلاء إلى اليهود الأهالي الذين سكنوا المغرب الإسلامي منذ قرون خلت، ونقل جاكوب أوليل (OLEIL) عن (ب). مونصو (P). MONCEAUX) أنّ بعض اليهود لجؤوا عند البربر في شمال إفريقيا منذ أن طرد الرومان اليهود من فلسطين في القرن 12 ق.م، واستقروا في الجبال والصحراء[3]، وفرض اليهود سيطرتهم في إقليم توات وتمنطيط من الصحراء على تجارة القوافل الرابطة بين تلمسان ووهران نحو السودان الغربي، وأصبحوا حلقة وصل بين هذه المدن. واحتكروا تجارة الذهب والعبيد، والجلود والملح[4] ، وربطوا تجارتهم مع عائلات تلمسانية ثرية جدّا ومقرّبة من الأسرة الحاكمة ومن بين هذه العائلات، عائلة المقرّي التي كوّنت ثروة هائلة من التجارة، واستقرّ بعض أفرادها في مدن تلمسان، وهُنين، وسِجِلماسة الواقعة في الصحراء، وتحكّموا في التجارة الرابطة بين موانئ المغرب والصحراء[5].

اعتُبرت تلمسان الزيانية مركز التجارة الرابطة بين الشّمال والجنوب لذا استقرّ اليهود بالمدينة في حارة خاصّة بهم، وقد ذكر الرّحالة الحسن الوزان ذلك، قال: " تضُمُّ المدينة خمسمائة دار لليهود، كلّهم تقريبا أغنياء، يضعون على رؤوسهم عمامات صفراء؛ لكنّهم لم يبقوا أغنياء إلاّ فترة من الزمان، إذ نُهِبتْ أموالهم بعد موت الملك أبو عبد الله عام 923هـ، فأصبحوا اليوم يكادون يتكفّفون النّاس"[6].

[1]-فوزي سعد الله، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، ط2، دار الأمة،، الجزائر، 2004، ص68.

[2]-المرجع نفسه، ص94.

[3] -(J). Oleil, les Juifs au Sahara, Ed. CNRS, Paris, 1994, p.13.

[4] -Ibid, p.49

[5] -Ibid, p.49.

[6]-الحسن الوزان، المصدر السابق، ص20

ج-طرد اليهود من وهران سنة 1669م:

لم يَدُم شهر العسل بين الإسبان ويهود وهران طويلا حتى توتّرت العلاقة بينهم، وتعدّدت الأسباب عن هذا التوتر؛ غير أنّه يمكن القول: ليس كل اليهود مفضّلين عند الإسبان، فقد تعرّض يهود مدينة تلمسان بعد الحملة الاسبانية على المدينة سنة 1543م إلى التنكيل والقتل والأسر، وهذه واحدة من عشرات الأحداث التي تعرّض لها اليهود في خِضمْ الصراع بين الخصوم في الغرب الجزائري.

ما يهمنا هنا الأسباب الكامنة وراء الطرد الذي تعرّض له اليهود من مدينة وهران؛ لكن تبدوا الأسباب الحقيقية غير معروفة، فالمصادر المحلية الجزائرية ذكرت أنّ النصارى (الإسبان) تخيّلوا منهم ما يكرهونه فطردوهم مخافة أن يفعلوا بهم ما فعلوا بالمسلمين[1]. أمّا جون فريديريك فقد ذكر أنّ المؤرخين قد بَدَوْا في تناقضات عند هذه النقطة، وذكر أنّ عامل الدين هو الذي حرّك الإسبان في أخذ هذا الموقف، وقبل موت الدبلوماسي والمترجم جاكوب كانسينو سنة 1666م فكّروا في عدم إعطاء لليهود هذا المنصب[2].

هناك عامل آخر حرّك الإسبان هو العامل الجيوسياسي؛ حيث دار النّقاش في بلاط المجلس الحربي الملكي حول فرضية الخيانة التي يقوم بها اليهود وربط شبكات اتصال سرية بين يهود وهران واليهود المنتشرين في المدن المجاورة، وتشكيل خلايا يهودية مسلّحة تهدّد الوجود الاسباني بوهران[3]. وقد كانت مراسلات في هذا الشأن بين ملكة اسبانيا خوانا والحاكم العام لوهران والمرسى الكبير الماركيس دي لويس باليث.

طُرد اليهود سنة 1669م؛ بعد رسالة بعثها الحاكم العام للمدينة ذكر فيها أنّه أعطى فيها اليهود مُهلة ثمانية أيام لمغادرة المدينة[4]، وحُمل اليهود في ثلاث سفن تابعة لبحارة جنويين، وأبحرت تلك السفن اتجاه الضفة الأخرى للبحر المتوسط واستقروا بمدينتي نيس الفرنسية وليفورن الايطالية[5].

بعد هذا التاريخ بدأت صفحةٌ جديدةٌ من تاريخ اليهود في المنطقة؛ لكن رغم الطّرد إلاّأنّ اليهود حافظوا على تجارتهم في الجزائر وحتى وهران، وتحكّموا في تجارة الرقيق.

---

[1]-محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص142.

[2]-(L). de Stomayor y Valenzuela, Op.Cit, p.20.

[3]-Ibid, p.24.

[4]-Ibid, p.20.

[5]-Ibid, p.26.

7-الكنيسة الكاثوليكية ومحاكم التفتيش بوهران:

اقترنت الحملة الإسبانية على وهران بالصليب، كانت حملة صليبية بكل المعايير وقادها راهب متعصّب يحمل الحقد الدفين في قلبه على المسلمين بمباركة بابوية، كان شخصا متعطّشا للدّماء؛ بحيث أمر بقتل الآلاف من سكان المدينة بدم بارد، وحوّل مسجد المدينة إلى كنيسة، وأخذ على عاتقه تنفيذ وصية الملكة الكاثوليكية إيزابيلا التي تمنّت أن تغزو بلاد المغرب. كان هدف الحملة على وهران وكامل مدن الساحل الجزائري والمغاربي نشر المسيحية والقضاء على الوجود الإسلامي في هذه المنطقة.

أنشأ الإسبان بمدينة وهران محاكم التفتيش، وكانت أول محكمة تفتيش في وهران سنة 1516م يرأسها دون مارتين دي بيدثار (BEYDACER) وهو أول مفتش ديني في المدينة[1]، وقد أُنشأت محاكم التفتيش لأول مرة في اسبانيا على يد الملكين الكاثوليكِيَيْنْ فرديناند وإيزابيلا في الربع الأخير من القرن الخامس عشر، واتّسمت بالعنف والقسوة والوحشية، ومن أسباب تأسيس محاكم التفتيش هو معاقبة كل من يدعو إلى الرجوع لأصول الأولى لتعاليم المسيحية ببساطتها ووضوحها، وإقامة حكم مطلق على المورسيكيين المسلمين واليهود تمهيدا لطردهم[2]. أمّا في وهران كان الهدف من إنشائها محاكمة الجنود الفارين من الخدمة العسكرية والذين يعتنقون الإسلام من المسيحيين الذين يفرّون من وهران كُرْها أو طوعا وكذلك محاكمة الأهالي الذين يثبت ازدرائهم المسيحية والذين يعتنقونها ويرْتَدُّون مرّة أخرى.

ترأَّسَ المحكمة كاهن مُمَثّل عن أسقفية طُليطلة، ومسؤول كبير في كنيسة وهران، ويحضر الجلسة الحاكم العام للمدينة. إنّ حياة الجحيم التي عاشها الجنود داخل المدينة كانت تؤدي بعشرات الجنود إلى الفرار من المدينة إلى السواحل الإسبانية عبر البحر في قوارب صغيرة، أو يختبؤون داخل السفن العائدة إلى اسبانيا بعد تفريغها حمولتها في المرسى الكبير ووهران[3].

حاول جندي اسباني يدعى فرانسيسكو مونتيرو (F.MONTERO) العودة لإسبانيا بقارب خشبي؛ لكنّه خاف من اكتشاف أمره أو أُكتُشِف أصلا، وخوفا من العقاب الشديد قرّر اللّجوء عند إحدى القبائل القريبة من

---

[1] -(B). Alonso Acero, **l'Inquisition Espagnole à la Frontière Berbèrie, Oran-Mazaquivir, XVI ème- et XVIII Siècle**, R.L.C.R, N°5, 2004, p.67.

[2] -بشرى محمود الزوبعي، محاكم التفتيش الأسبانية (1480-1516م)، دار زهران، عمان- الأردن، د.ت، ص18.

[3] -(B). Alonso, Acero, Op.Cit, p.70.

وهران فاعتنق الدين الإسلامي وبدأ حياة جديدة بعيدا عن وهران[1]. جماعة أخرى من الجنود الإسبان فرّوا من وهران ووصلوا إلى مدينة الجزائر، يقودهم لويس مارتين أصله من مُورسِيكِي غرناطة واعتنق الإسلام ، وأصبح قرصانا في البحرية الجزائرية، لكن استولت على سفينته في عرض البحر غليوطتين اسبانيتين. كانت المدن المفضّلة للجنود الإسبان الفارين من وهران مدينة الجزائر ومستغانم، وتلمسان[2].

شهدت محاكم التفتيش محاكمة أشخاص تمّ إلقاء القبض عليهم، أو اتّهامهم باعتناق الإسلام، من بين هؤلاء المهندس الحربي سيباستيان برمونديث (S. BERMUNDEZ)، فقد اتّهمته محكمة التفتيش بوهران بمحاولة الفرار مع جنود آخرين إلى أراضي المسلمين والعيش على طريقتهم، وقد جرت وقائع المحاكمة سنة 1572م، وعاني معاناة شديدة جراء التعذيب، وعلى وقع ذلك اعترف بأنّه اعتنق الإسلام، وحكمت عليه المحكمة بمائة جلدة، والتجديف في السفن لمدة 5 سنوات كعقوبة[3].

لم يسلم المدنيون المسيحيون الإسبان والأهالي المرتدون عن الإسلام من تهم اعتناق الإسلام، فقد عالجت حكمة التفتيش (SAINT OFFICE) بوهران عدة قضايا مرتبطة بالتهمة السابقة، في سنة 1572 مثل أمام المحكمة حسب ألنسو أثيرو كل من المزارع فرناندو دي كاسترو، وخوان رودريغيث الساكنين بمدينة وهران، وميغال خمنيث الساكن بالمرسى الكبير، وأُدينوا بتهمة الكفر والهرطقة ومحاولة الفرار عند القبائل الوهرانية للعيش بين ظهرانيهم، وحكم عليهم بالسوط والتجديف في السفن[4].

كانت تهمة اعتناق الإسلام رائجة أثناء الاحتلال الإسباني للمنطقة، فكان إلصاق التهمة بمجرد الشكّ في تصرفات الشخص المتّهم، وخاصة الأهالي المرتدين عن الإسلام والذين عادوا إلى دواويرهم وقبائلهم، فبمجرد العودة إلى وهران أو أسرهم يتّهمونهم بالرّدة بعد تعميدهم.

لم يكن كل الأهالي المرتدين عن الإسلام يعيشون في مدينة وهران والمرسى الكبير، فبعضهم كانوا يعيشون بين أهاليهم المسلمين ويكتمون المسيحية، فالشاب ألنسو وهو شاب من عرب السلام أُسِرَ طفلا وبقي لمدة اثنا عشر

[1]-(B). Alonso, Acero, Op.Cit, p.71
[2]-Ibid, p.71.
[3]-Ibid, p.73
[4] -Ibid , p.74.

سنة، فكانا عبدا لخوان غونزالو، وعُمِّدَ في كنيسة المرسى الكبير، وبعد ثلاث سنوات قضاها مسيحيا دخل عمّه إلى وهران ودفع ديّته وأرجعه إلى قبيلته[1].

إنّ اعتناق المسيحية لم يكن مُنحصر على البسطاء من الناس الفارين من قبائلهم أو الذين أُسروا في الحملات الاسبانية على الدواوير (LAS JORNADAS)؛ بل امتدّ اعتناق المسيحية حتى بين الأمراء الزيانيين وشيوخ القبائل، فآخر ملوك بني زيان مولى الحسن اعتنق المسيحية بعد لجوئه إلى مدينة وهران بعد دخول قوات االشريف السعدي لتلمسان، واعتنق المسيحية كذلك غونزالو ايرنانديث كما سبق ذكره أنّه أحد أبناء أمراء بني زيان وجدّه الحاكم العام لوهران والمرسى الكبير دون دييغو فرنانديث دي قرطبة[2]، واختار ديانة أمه المسيحية.

اتّهم عبد القادر المشرفي القبائل الحليفة للإسبان بالرّدة والكفر فأطلق عليهم اسم " العرب المتنصّرة"[3]، ومن هؤلاء قبيلة حيميان؛ لكن المصادر الأجنبية ذكرت أنّ قبيلة الونازرة التي تنتمي إلى بني عامر الوحيدة التي تنصّرت بأكملها[4]، وهذا من مجموع القبائل التي تحالفت مع الإسبان، وإنْ تَنَصَّرَ بعض أفرادها فهذا لا يدل على أنّ القبائل كلها تنصّرت. أكد ابن سحنون الراشدي الذي عاصر فتح وهران عام 1792م على يد محمد بالكبير باي معسكر أنّ الونازرة تنصّروا وذلك في سياق كلامه، حيث ذكر أنّ الإسبان حملوهم معهم إلى ضواحي سبتة المغربية[5].

ركّز الإسبان على غسل عقول الأطفال الذين يأسروهم في الحملات العسكرية على القبائل والدواوير، أو الذين يختطفهم المغاطيس من المدن والدواوير ويبعونهم في أسواق وهران، ويعمّدونهم ليصبحوا مسيحيين، فهم أكثر الأسرى الذين يثبتون على مسيحيتهم بعد تعميدهم عكس الكبار من النساء والرجال الذين غالبا ما يعودون إلى أحضان الإسلام.

كان رد المؤسسة الدينية شديدا سواء أكان المذهب الحنفي أم المالكي ضد من يعتبرونهم مرتدّين عن الإسلام، الذين اعتنقوا المسيحية حتى ولو كانوا أطفالا، سنعطي أمثلة على رد فعل المؤسسة الدينية المتمثّلة في الأتراك العثمانيين أو الأهالي الجزائريين:

---

[1] -(B). Alonso, Acero, Op.Cit, p.75.
[2] - (R). Ricard et (Ch) .de la veronne, Op. Cit, p.364.
[3] –عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص13.
[4]-(J). Mesnage, le Christianisme en Afrique, Adolphe Jordan, Alger, 1945, p.156.
[5] –ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص.146

ذكر دييغو دي هايدو قصة شاب من أهالي مدينة تلمسان ارتدّ عن الإسلام واعتنق المسيحية، وقد أُسر في معركة مزغران عام 1558م ، وقد أُقتيد إلى مدينة الجزائر مع الأسرى الإسبان، يقول عنه هايدو: "إنّه من الأهالي (المور)، ولد بمدينة تلمسان التي تقع غرب مدينة وهران والتي تبعد عنها بواحد وعشرين فرسخا، وقد دفعته العناية الإلهية أن يأتي إلى وهران، ويعتنق المسيحية، واستقبله الحاكم العام لوهران الكونت دون مارتين، وأحسن استقباله وطلب تعميده، وأُعطي له اسم مارتين"[1]، وذكر هايدو كذلك أنّه كان مقاتلا شجاعا وشرسا بشهادة الذي لازموه في المعارك، وغالبا ما كان يدعوه الكونت دالكوديت إلى مأدبة غذائه، فقد كان دائما بجانبه[2]. بعد اقتياده إلى مدينة الجزائر سرعان ما تعرف عليه الأتراك العثمانيين والأهالي المسلمين على انّه مسيحٌ مرتدٌّ، وأنّ أبويه من الأهالي، وقد عاش في خضم الإسلام.

ضُغط عليه لأنْ يعود لتعاليم الإسلام؛ لكنّه كان صلبا حسب شهادة دييغو دي هايدو، وأرسل إليه فقهاء المدينة رسائل فيها ترهيب وترغيب ولم ينجحوا في إقناعه، ووصل بهم الأمر أن أحضروا أمه من مدينة تلمسان التي تبعدُ عن مدينة الجزائر بواحد وثمانيين فرسخا وكانت تتضرّع إليه أن يعود للإسلام لكنّه رفض[3].

حُكِمَ على مارتين فورنيال (FORNIEL) بالإعدام أمام مرأى سكان المدينة، وقد روى دييغو دي هايدو تفاصيل الإعدام التي كانت بشعة جدا.

قضية أخرى شغلت الرأي العام المسيحي وأخذت حيّزا مهمّا من اهتمامات المؤرخين الفرنسيين بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر بعد سنة 1830م منهم أدريان بربرييجر، وتمثّلت هذه القضية في إعدام الشاب من إحدى القبائل الوهرانية اعتنق المسيحية وهو طفل صغير اسمه جيرونيمو (GERONIMO). ذكر قضية الشاب جيرونيمو دييغو دي هايدو في كتابه السالف الذكر.

بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م بدأ الفرنسيون بالبحث في القضية بعد قرابة ثلاثة قرون مضت من موت الشاب جيرونيمو في البرج الذي يسمى "برج أربع وعشرين ساعة"[4]، وقد نشر بربريجر قصته في جريدة الأخبار(L'AKHBAR) في 05 أكتوبر 1847م، وكان بربيريجر مؤرخا وعالم أثار، تتبّع قصته بكل تفاصيلها،

[1] -(D). de Haedo, de la Captivité à Alger, Tr : Moline-Violle, Alger, 1911, p.228.
[2] -Ibid, p.228.
[3]- Ibid, p.229.
[4] -(A). Berbrugger, Géronimo, le Martyr du Fort des vingt- quatre Heures à Alger,1859, p.6

وأُكتشف الهيكل العظمي للشاب جيرونيمو في27 ديسمبر 1853م[1] وقد اشرف على عملية هدم برج أربعة وعشرين ساعة[2]م. سوزون(M. SUZZONI)، وذكر بربيرجر أنّ جيرونيمو عند اكتشافه كانت رجلاه ويداه ما تزال مُكَبَّلَتَينِ بِحَبْلٍ[3] .

تعود أحداث القصة إلى منتصف القرن السادس عشر حين نفّذ اسبان وهران في حدود 1540م حملة عسكرية (خورنادا) ضد ما يسمونهم "العرب الأعداء"؛ حيث غنموا الأسرى من الرجال والنساء وحتى الأطفال، وكان من بين هؤلاء طفل صغير ذو ملامح جميلة ويبدو ذكيا حسب تعبير هايدو، اشتراه أحد المسرّحين من الخدمة العسكرية اسمه خوان كارو (JUAN CARO)، الذي أصبح فيما بعد الكاهن العام لكنيسة وهران علّمه تعاليم المسيحية حتى أصبح الطفل المسلم مسيحيا بعد تعميده في الكنيسة، وأُطلق عليه اسم جيرونيمو.(GERINIMO)

بلغ الطفل جيرونيمو السنة الثامنة من عمره، وتزامن ذلك معع انتشار الطاعون في مدينة وهران فقرّر الإسبان إخلاء المدينة والتخييم في السهل المقابل لمدينة وهران شرقا. استغل الأسرى الوضع فقرّروا الهروب واصطّحبوا معهم الطفل جيرونيمو، وصل الطفل إلى والديه في القبيلة؛ لكنّه بقي مسيحيا ، وبعد بلوغه سن الخامسة والعشرين من عمره قرّر الرجوع إلى مدينة وهران بمحض إرادته سنة 1559م[4]. بقي في وهران مدة 10 سنوات يقاتلُ إلى جانب الإسبان في صفوف المغاطيس وتزوج من فتاةٍ من الأهالي اعتنقت المسيحية بعد ما كانت أمةً له[5]، وفي عام 1569م كان في مهمة بحرية قرب سواحل المغرب الأقصى بقيادة أنتو دي بالما فهاجم مركبهم فرقاطتين تابعتين لبحارة من مدينة الجزائر[6]، وأُسِرَ جيرونيمو بعد إصابته بسهم في ذراعه.

تعرض إلى كل الضغوط لكي يعود إلى الإسلام؛ لكنه رفض وأصرّ على مسيحيته، وفي نهاية المطاف حكم عليه بالإعدام في قلعة أربع وعشرين ساعة قرب باب الواد في 18 سبتمبر 1569م[7].

---

[1]-(A). Berbrugger, Op.Cit, p.6

[2]-بُني برج اربعة وعشرين ساعة عام 975ه الموافق 7 جويلية عام 1568م على يد محمد باشا الذي حكم مدة عام واحد في نفس السنة التي بني فيها البرج، ويعود الفضل لمحمد باشا في تحصين مدينة الجزائر، ويسمى هذا البرج كذلك برج "ستي تكليلت".

[3]-Ibid, p.6.

[4]-(D). de Haedo, de la captivité…Op.Cit, p.290.

[5]-Ibid, p.291.

[6]-(J). Mesnager, Op. Cit, p.155.

[7]-Ibid, p.155.

رغم القتل البشع الذي تعرّض له النموذجين المذكوران جيرونيمو ومارتين فونيال المرتدان عن الإسلام على يد الجزائريين إلاّ أنّهما مُنِحَا فرصة للعودة لتعاليم الإسلام بعد التّرغيب والتّرهيب. في المقابل أنّ محاكم التفتيش كانت تقسو بشدةٍ على الجميع سواء على الإسبان المعتنقين الإسلام أ/ الأهالي الذين عادوا إلى الإسلام، وكانت وتجبر الأهالي على اعتناق المسيحية، فقد كان القتل باسم الكنيسة أشدّ وحشية .

8-العلاقات الاقتصادية بين الإسبان والقبائل الوهرانية:

تمحورت العلاقات الاقتصادية والتجارية بين وهران والقبائل المتحالفة معها بتموين المدينة بالحاجيات الأساسية التي تحتاج إليها المدينة من مختلف السلع، وتدفع هده القبائل ضرائب سنوية مقابل الأمان أو حسن نية تجاههم.

أ-دفع الضريبة: كانت هذه الضريبة يؤديها عرب السلام (LOS MOROS DE PAZ)، يقول كيل (KHEL): " في خضم الحملات العسكرية التي ينظّمها الإسبان ضد القبائل يدفع الأهالي ضريبة تدعى "الرومية" خوفا من القتل والسلب والنهب، وتقدّم هذه الضرائب على شكل عيّنات من الحبوب[1]، وهم مُجبرون على تقديم الضريبة بأية حال من الأحوال.

تقدّم هذه الضريبة كل شهر أوت؛ قبل ذلك يبدأ شيوخ القبائل بجرد وعدّ أفراد القبيلة وممتلكاتهم، وتُقدّم هذه المعلومات للأسبان. يشرع الأسبان في تحديد قيمة الضريبة وتتفاوت قيمة الضريبة وقد فصّل جوزيف باييخو هذا في تقريره؛ حيث قال:" كلُّ قبيلة وكل دوّار يجب عليهم التصريح بعدد الخيّام، ويتطلّب منهم تقديم الضريبة سنويا"[2]. وقد حدّد الأسبان قيمة الدفع ب 2 دوبلا ما يعادل 12 REAUX تُدفع قيمتها عيّنات من الحبوب[3].

يقوم شيوخ القبائل بتسليم أبنائهم للإسبان رهائن ضمانا لتنفيذ ضريبة " الرومية"، يبقون في وهران حتى تُدفع الضريبة، يشرح باييخو كيفية الاتّفاق، يقول: "يأتي شيوخ القبائل إلى وهران يستقبلهم الحاكم العام للمدينة، وهو الذي يستدعيهم للوفود إليه في المدينة بعد موسم الحصاد، ويجتمعون لتحديد قيمة الحبوب التي تباع في الأسواق (الشعير والقمح)، ويجتمعون في قصر القصبة في مأدبة غذاء يحضرها شيوخ القبائل، يُقدّم لهم طبق من السمك ومختلف الفواكه الموسمية، ويهدي لهم الحاكم العام هدايا تتمثل في التبغ البرازيلي المرغوب بشدة عند المور"[4].

---

[1]-(C). Kehl, Op.Cit, p.36.
[2]-(J). Vallejo, Op.Cit, p.358.
[3]-Ibid, p.358.
[4] -Ibid, p.359.

في حالة ما إذا كان محصول السنة سيئا يقدم شيوخ القبائل ضريبة الرومية بدل عيّنات من القمح والشعير تقدم نقودا بالتفاوض مع الإسبان. وفي حالة ما إذا كان المحصول جيّدا فان كمية الحبوب الفائض تصّدر إلى شبه الجزيرة الايبيرية ففي عام 1589 صدّرت وهران إلى مالقة ما يعادل 4000 ARROBE و1000 أخرى من الشعير[1].

ب-**ضريبة السيقورو (SEGURO)**: هي كلمة اسبانية تعني " الأمان"؛ حيث كانت القبائل التي قبلت الحلف مع الإسبان تدفع ضريبة سنوية وكان يطلق عليها أيضا اسم الثمن[2]، تدلّ على الخضوع والولاء. يقول مالكي نورالدين: "يقوم الإ سبان بتحديد الشروط التي تُطبّق، فترسل إلى شيوخ القبائل والدواوير، وأيّ اختلال شرط من الشروط تعتبر تلقائيا "قبائل معادية"[3]، وأهم هذه الشروط التي لخّصها مالكي نورالدين من خلال كتاب دييغو سواريز أهمها:

1-يجب على كل شيخ قبيلة أو دوّار أن يُصرّحُ بعدد المحاريث التي يمتلكها أفراد القبيلة، وتقويم كمية القمح والشعير الموجّهة لضريبة السيغورو، وهذه هي الطريقة الدقيقة لتحديد عدد أفراد القبيلة؛

2-يمنع على القبائل المتحالفة مع الإسبان استضافة القبائل المعادية لهم، وإذا خالفت القبيلةُ هذا أُعتُبِرتْ عدوة لهم؛

3-يمنع منعا باتا إقامة أيّ علاقة وديّة أو اتّصال مع القبائل المعادية؛

4-يمنع تزويد معلومات حول وضعية الأسبان أو تحرّكهم للأعداء؛

5-تسلك هذه القبائل في دروب معلومة، وتجنّب المرور وسط الحقول والأحراش؛

6-تجنّب الصراخ من شأنه تخويف الجنود الذي تطلقه القبائل المعادية.

هذه الضريبة تشبه إلى حد كبير ضريبة الرومية، ولا اختلاف كبير بينهما ؛ لكن في كل حال من الأحوال هي ضريبة ثقيلة تثقل كاهل هذه القبائل وتصبح فقيرة، يقول مالكي نورالدين عن هذا الوضع: " إنّ القبائل الوهرانية

---

[1] -(B). Vincent, **Phillipe II et l'Afrique du Nord**, M.A.N, p.968.

[2] -عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص244.

[3] -(M).Nordinne, Op.Cit, p.158.

معرّضة أحيانا لهجمات الإسبان وأحيانا لهجمات الأتراك، فَوَضْعَهُمْ بين المطرقة والسنداد فالأحداث تتوازن بين هذا وذاك (الإسبان والأتراك)، وفي كلتا الحالتين فهي إن لم تدفع لهم فهي ملزمة للدفع للأتراك (ضريبة الغرامة)"[1].

ج–التجارةُ:

تأتي القبائل الوهرانية لتفرغ حمولتها مقابل دراهم معدودات تُمنَحُ لشيوخ القبائل النبيلة حسب جوزيف باييخو من 6 إلى 10(REAUX)، لأقل شيوخ القبائل شأناً وقوة 3 (REAUX)، أمّا القبائل الأخرى فتمنح لها من 1 إلى 2 (REAUX)[2]، يقدّم مستشار الحاكم العام وصل ضمان التسليم.

أنشأ الإسبان مخازن كبيرة لتخزين الحبوب المتحصّل عليها من الضرائب من شراء الحبوب التي تأتي بها القوافل التجارية بوهران وتخزّن الكمية الكبيرة من هذه الحبوب في الفترة الممتدّة من أواخر شهر أوت وشهر سبتمبر من كل سنة

في القرن السادس عشر كان فائض الحبوب يُوضع في أكياس ويوجّه عبر البحر إلى اسبانيا، فقد كانت مخازن الحبوب في وهران في نفس الفترة أكثر من 20000 فناق[3].

كانت القوافل التجارية الآتية من إفريقيا جنوب الصحراء وسجلماسة وتلمسان وإقليم تْوَاتْ محمّلة بجميع السلع التي تحتاج إليها المدينة وأوربا، فالفائض من السّلع يتمُّ تصديره إلى اسبانيا ودول أوربا عبر وُسطاء تجاريين، ذكر دييغو سواريز أنّ قافلة تجارية من الإبل والأحصنة والبغال دخلت مدينة وهران يوم 04 ديسمبر 1569م يحميها فرسان مسلمون، ويقودها تاجر يهودي، وعلى متنها خمسة آلاف أروب (ARROBE)[4]من مادة السكر آتية من إقليم السوس بجنوب المغرب الأقصى[5].

---

[1] -(M). Norddine, Op. Cit, p.p.158. 159.
[2] -(J). Vallejo, Op. Cit, p.360.
[3]-(M). Noredine, Op. Cit, p.166.
[4]– هي وحدة قياس قديمة، كانت تُستعمل في اسبانيا والبرتغال، تبلغ قيمة وزنها من 11 الى 15 كلغ، وحجم قياسها في السوائل من 10 الى16 لتر. المصدر: غوغل (Centre National de ressource Texuelle)
[5]-(B). Vincent, Op. Cit, p.967.

كانت هذه القوافل التجارية تدخل وهران محمّلة بمختلف السلع إضافة إلى الغنائم التي يجنيها الأسبان من تنظيم خورنادا ضد القبائل الوهرانية، ففي فترة حكم الحاكم العام لوهران والمرسى الكبير بيدرو لويس دي بورخا استطاعت وهران ان تبيع 1272 عبدا وآلاف من رؤوس الماشية (الإبل، الخيول، الماعز، الأبقار، الضأن)[1].

استقبلت وهران السلع التجارية التي تدخلها القوافل التجارية، والتي تحميها وتنظّمها أحيانا القبائل الحليفة من هذه السلع كما ذكرها يحي بوعزيز: العاج وجلود الأغنام والأبقار والأنعام المدبوغة، وتبر الذهب، والعبيد السود، والحبوب والخضر، وغزل نسيج الصوف، وصناعة السيوف والسكاكين[2]. كانت القوافل التجارية تحميها القبائل الحليفة للإسبان؛ لأنّها تمرّ بأراضيها وتقتسم الإرباح مع التّجار ، ففي سنة 1570 عادت قبيلة أولاد عبد الله إلى الشمال في الربيع بعدما قضت فصل الشتاء في الصحراء مصطحبة معها قافلة تجارية محمّلة بمختلف السلع، وعلى متنها 1500 ألف من العبيد (نساءً ورجالاً) وكمية كبيرة من التمور وريش النعام[3].

كتب القنصلُ العامُ الفرنسيُّ في مدينة الجزائر في مذكرات أوت 1731 عن التجارة بوهران في عهد الباي بوشلاغم أن وهران كانت تُصدّر نحو 400 قنطار من الصوف و300 قنطار من مادة الشعير وما بين 12 و15 قنطار من جلود البقر نحو 10 شحنات من الشعير والقمح والحّمصْ في السفن التجارية، وبعد إعادة الإسبان احتلال وهران سنة 1732م موّل التُجّار الفرنسيون مدينة وهران والمرسى الكبير بالمواد والسلع التموينية[4]، وذكر بتماجوغلو أنّه في ظرف سنتين (1752-1754م) كانت الرحلات التجارية من اسبانيا وفرنسا اتجاه وهران نحو سبعة وسبعين رحلة تجارية، وقد شحنت هذه السفن التجارية 16300(FANEGUE)من الحبوب و600 قنطار من اسبانيا 7000 اخرى من مرسيليا من الشعير و300 قنطار من رغيف الخبز[5]

أمّا الخضر والفواكه والأنعام جاءت كالآتي حسب التقرير السابق:

---

[1]-(B). Vincent, Op.Cit, p.967.

[2]-يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص95.

[3] -(M). Nordine, Op.Cit, pp.171.172.

[4] -(A). Pestemaljoglou, le Consulat Français d'Oran de 1732-1754, R.A, N°86, 1942, p.240.

[5]-Ibid, p.p.245.246

300خروف، و2100 قنطار من الفاصولياء الجافة، و500 قنطار من الأرز، و1600 قنطار من الخضر الطازجة، و1870 طناً من الخمور، و50 طن من الزيت ، و34 حزمة من تبغ البرازيل، و16300 قنطار من الفحم[1]. هذا بعض ما جاء في التقرير الفرنسي.

لم يكن إسبان وهران وحدهم يسطرون ويحتكرون التجارة في وهران وميناء المرسى الكبير، فقد كانت القبائل الوهرانية تقوم بعمليات الاستيراد والتصدير للسلع عبر ميناء أرزيو شرقا وهران وميناء هُنين غرب وهران بواسطة وُسطاء تجاريين فرنسيين. وحسب التقرير الفرنسي فإنّ التبادل التجاري كان بين التجّار الفرنسيين وبعض القبائل الوهرانية النشطة بالتجارة، فكان الفرنسيون يشترون منهم القمح ويبعون لهم المنتجات الأوربية[2].

يبدو أنّ الفرنسيين احتكروا التجارة مع قدماء المحاربين الإسبان في وهران وعلى مستوى التعامل التجاري مع القبائل الوهرانية، وبعد معاينتهم وملاحظتهم لرواج التّجارة قرّروا الاستقرار بالساحل الوهراني واستيطانهم بمدينة وهران[3]، يقول بلبوري سيد أحمد عن العلاقة بين الفرنسيين والقبائل الوهرانية: "كانوا يتاجرون مباشرة مع الأهالي بابتياعهم المواد الغذائية والجلود والكتان والفحم فكان تمركزهم هذا عاملاً ايجابياً ، يسّر لهم أولا التعرّف عن قرب باحتياجات السكان ومدى رغبتهم في اقتناء مختلف السلع ونوعيتها، وثانيا جنيهم الربح أوفر دون وسطاء وثالثا التحكم في زمام التجارة"[4].

د-العملة الاسبانية:

تعتبر العملة أساس التبادل التجاري بين الدول والأشخاص، وتختلف العملة وقيمتها من دول لأخرى ومن عهد لآخر حسب الظروف الاقتصادية والسياسية، فهي تتأثر بشكل مفرط بسبب الأوضاع الاقتصادية، يقول ناصر الدين سعيدوني: " العملة حجر الزاوية لكل تعامل مالي على المستوى المحلي أو الخارجي، كما أنّ لها مدلولا حضارياً لا يمكن إهماله، فهي تعطي صورة صادقة للتطوّر الحرّ في للبلاد، وتعكس الذوق الجمالي للحكّام بما يوحي شكلها وطريقة صنعها"[5]، وقد سيطرت العملات الاسبانية على التعامل المالي والتجاري بالجزائر، ويرى ناصر الدين سعيدوني

[1] -Pestemaljoglou, le consulat..., Op.Cit, p.246.
[2] -Ibid, p.248.
[3] -بلبوري سيد احمد، **أهمية ميناءالمرسى الكبير والنشاط التجاري الفرنسي الانجليزي إبان الاحتلال الاسباني(1732-1754)**، دفاتر التاريخ المغربية، العدد:1، جامعة وهران، 1 ديسمبر 1987، ص57.
[4] -المصدر نفسه، ص57.
[5] -ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي الجزائر أواخر العهد العثماني (1790-1830)، ط3، دار البصائر، الجزائر، د.ت، ص179.

أنّ أهم أسباب شيوع العملات الاسبانية بالجزائر تلك العلاقات التاريخية القديمة التي كانت تربط الجزائر باسبانيا منذ مطلع العصور الحديثة، خاصة وأنّ اسبانيا استولت على اغلب الموانئ الجزائرية وبسطت سيطرتها لمدة طويلة على وهران والمرسى الكبير (1505م-1792م)[1]. لم تكن العملة الاسبانية مطلوبة في أسواق الجزائر بل العا لم أبجمعه امتد مجال تداولها من المحيط الأطلسي إلى بحر البلطيق ومنه إلى الصين لا سيما (1570-1630م)[2]. وذلك بفضل الذهب الآتي من أمريكا الجنوبية وإفريقيا الذي عزّز قيمة العملة الاسبانية.

لخص ناصر الدين سعيدوني أهم العملات الاسبانية التي كانت متداولة في الجزائر فيما يلي:

1-الدبلون (EL DABLON) يُعرف عند الجزائريين بالضبلون والدبلون، وهو دينار ذهبي مصنوع من الذهب؛

2-الدوكة (DUCA) تعادل قيمتها1 ديناراً ذهبياً؛

3-الكرونة (LA CORONA) مصنوعة من الفضّة؛

4-الدورو الاسباني (DURO) الذي اصبحت قيمته مع مرور الوقت أقل من المحبوب الذهبي (عملة عثمانية متداولة في الجزائر)؛

5- الريال الاسباني (REAL) الذي انتشر وسيطر على الأسواق منذ العهد العثماني[3].

إضافة إلى هذه العملات هناك عملات اسبانية كانت متداولة بكثرة بين الإسبان والقبائل والوهرانية في القرن السادس عشر ومن بين هذه العملات "مرابيطس" (MERAVIDES) وهي عملة ذهبية كانت سائدة في اسبانيا منذ عهد المرابطين الذين حكموا الأندلس وتُنسب لهم العملة، وحسب بيير فيلار أنّ هذه العملة كانت أساس المعاملات المالية في كامل المملكة القشتالية[4]، وذكرت شانتال دي لفيرون أنّ قيمة (ميرابيطس) في النصف الأول من القرن السادس عشر تعادل (1 دوبلا تعادل 350 مرابيطس)[5].

---

[1]- ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق ص184.

[2]-المرجع نفسه، ص184.

[3]-المرجع نفسه، ص185.

[4]-(P). Vilar, Op.Cit, p.39.

[5]-(Ch). de la Veronne,Oran et Tlemcen … Op.Cit, p.31.

تعرّض الإسبان لأزمة مالية واقتصادية خانقة في النصف الثاني من القرن السادس عشر، ولم تستطع اسبانيا أن تزود وهران بالسلع الاستهلاكية وعجزت عن تزويد رواتب الجنود في وهران والمرسى الكبير، وهذا تزامن مع ثورة المورسكيين ضد الإسبان سنة 1568م، وأمام هذا الوضع الحرج والمتأزّم امر الحاكم العام للمدينة بصك عملة رديئة (مزيّفة) من معدن رديء[1]. وقد فرض الحاكم العام على الجنود وسكان المدينة من المدنيين والتجار التعامل بها عاقب كل من لا يتعامل بها.

لقد تجسّد التحالف مع الإسبان في تجنيد قبائل بأكملها للتجسّس وجمع المعلومات عن أعدائهم، وزرع الخوف والرُعب في صفوف القبائل التي صنّفها الإسبان في خانة الأعداء من خلال اختطاف الناس وبيعهم في أسواق وهران، وتموين المدينة بالمواد التي تحتاجها المدينة وهذا يتمثل في العلاقات الاقتصادية بين القبائل الإسبان، والغارات عليهم حين تُتيح الفرصة، وجنّدهم الاسبان في صفوفه للمشاركة في الحملات العسكرية (مليشيات حسب التعبير المعاصر).

ولمواجهة النقص الفادح في تموين المدينة لجأ الإسبان إلى أسلوب الغارات المفاجئة ضد الدواوير المعادية لهم، وإتباعهم إجراءات مدروسة بدءا من الخروج وانتهاء بتقسيم الغنائم. وهذا وكانت مدينة وهران ذات طابع مُميّز من حيث التحصينات والمباني ووجود طائفة يهودية حصلت على امتيازات منذ حملة خيمنيث على وهران سنة 1509م انتهاء بطردهم جماعيا سنة 1669م، وأحدث الإسبان جهازا قضائياً خاصاً متعلق بالمحاكمات ذات الطابع الديني " محاكم التفتيش" فقد كانت أشدّ قسوة وهمجية.

[1] -(M). Nordine, Op.Cit, p.224.

الفصل الرابع

الاحتلال الإسباني وتراجع دور التحالف: الانحسار والضّعف

(1708-1792م)

نعالج في هذا الفصل تتويج المقاومة الجزائرية بالنّصر على الاحتلال الإسباني، الذي تعرّض للطرد عام 1708م على يد الباي مصطفى بوشلاغم؛ لكن سرعان ما عاود الاحتلال العودة الى وهران والمرسى الكبير سنة 1732م بعد استقرار الاوضاع السياسية في اسبانيا وسيطرة أسرة آل بوربون الفرنسية على العرش الاسباني، لم تُثن هذه العودة عزيمة الجزائريين واصرارهم على طر الإسبان من الجزائر نهائيا على يد الباي محمد الكبير عام 1792م.

1-مصطلح بايك الغرب وإشكالية الاحتلال الجزئي:

في هذا الفصل سنطلق مصطلح بايلك الغرب بدلا من "الغرب الجزائري"؛ لأسباب أهمها:

اكتمال السيطرة العثمانية على كل مناطق الغرب الجزائري باستثناء مدينتي وهران والمرسى الكبير اللذين بقيتا تحت السيطرة الاسبانية. رغم السيطرة على المدينتين فإنّ الإسبان لم يستطيعوا مغادرة المدينتين إلاّ للضرورة القصوى، فقد كانت أسوار مدينة وهران وحصونها الحامي الرئيسي للجنود الإسبان بالمدينة.

يُحمّل روبيير ريكار(Ricard) أسباب انكسار وفشل الاحتلال الاسباني في الجزائر والبلدان المغاربية في سياسة " الاحتلال الجزئي"، الذي تمثّل في احتلال بعض المدن والموانئ على الساحل، وقد رأى روبيير ريكار في سياسة الاحتلال الجزئي بأنّه الخطأ القاتل[1]. ويرى أنّ سياسة الاحتلال الكلّي هو الحل الأمثل في بقاء الأوربيين مدة أطول في البلدان المغاربية، وقد دار نقاش في القرن السادس عشر عن جدوى احتفاظ الإسبان بوهران والمرسى الكبير، خاصة بعد نكسة الإسبان في معركة مزغران عام 1558م ومقتل الكونت دالكوديت وآلاف الجنود والأسرى، وطالب أعضاء من المجلس الملكي ترك وهران نهائيا والاحتفاظ بالمرسى الكبير[2]، وهذا بعد التقرير النهائي حول الوضع في وهران والمرسى الكبير الذي قدِّم سنة 1574م؛ لكن في الأخير تقرّر الاحتفاظ بهما في عهد الملك فليب الثاني.

إنّ فكرة الاحتفاظ بالمرسى الكبير والانسحاب من المدينة لم تمُتْ، ففي القرن الثامن عشر تجدّدت الفكرة مع الحاكم العام لمدينة وهران والمرسى الكبير جوزييف باييخو (1733-1738) بعد سنة 1732؛ حيث أرسل تقرير الى الملك الاسباني فليب الخامس يقترحُ عليه الاحتفاظ بالمرسى الكبير والانسحاب من مدينة وهران،

[1] -(R). Ricard, les Etablissements Européen en Afrique du Nord su XV au XVIII Siècle et la politique d'Occupation restreinte, R.A, N°79, 1936, p.688.

[2] -(I).Terki Hassine, Oran au XVIII Siècle du désarroi à la clairvoyance politique d'Espagne, Insaniyat, N°23-24, 2004, p.209.

وقد اعتبر احتفاظ اسبانيا بالمدينة بالنقطة السوداء في سياسية المملكة الاسبانية[1]، يقول جوزيف كازناف حول سياسة الاحتلال الجزئي: " إنّ هذه السياسة لم تُؤخّر كثيرا انسحاب الإسبان من وهران والمرسى الكبير"[2].

لا ننسى أنّ الاسبان اندفعوا دفعا بتوسعهم جنوب وهران في القرن السادس عشر وسيطروا على أهم المدن في بايلك الغرب بقوة السلاح أو بالمعاهدات تحت طائلة التهديد (تلمسان، معسكر، القلعة، مستغانم، تنس، هُنين...)؛ لكنّهم اصطدموا بقوة الأتراك العثمانيين تساعدهم قبائل جزائرية قوية، كانت سبباً في سيطرة الأتراك العثمانيين على بايلك الغرب الجزائري.

امتدّ بايلك الغرب الجزائري في مساحة جغرافية كبيرة من غرب الجزائر، ويمتد من واد ملوية غربا الى حدود واد الشلف شرقا[3]، ومنهم من أعطاه حدود ما يعادل القطاع الوهراني حاليا؛ حيث يمتد من المملكة المغربية غربا وبايلك التيطري ودار السلطان شرقا والبحر الأبيض المتوسط شمالا والصحراء جنوبا[4].

يعود تأسيس بايلك الغرب الى القرن السادس عشر على يد حسن بن خير الدين باشا عام 1563م، وأصبحت مدينة مازونة عاصمة البايلك، وقد اختار الباي ابن خديجة المدينة لموقعها المهم فهي تتوسط القبائل مابين مستغانم وتنس[5]. وذكر والسن استرهازي أنّه بعد الدفاع المستميت الذي أبداه الجنود الاسبان في الدفاع عن مدينة وهران والمرسى الكبير أثناء حصار المدينة سنة 1563م وفشل حسن باشا في الدخول الى المدينة خاف هذا الأخير من تأثير هذا الفشل في سلطة العثمانيين، ففكّر في إنشاء قوة عسكرية دائمة في الغرب الجزائري لتكون نقطة مقاومة ضد أيّ تحرك اسباني[6]، وحسب استرهازي فانّ باي مازونة طلب من حسن باشا إمداده بأربعة وعشرين خيمة تركية (تتكوّن الخيمة العسكرية من أربعة وعشرين جنديا تركيا)[7].

---

[1]- (I). Tarki Hassine, Op.Cit, p.210.

[2]-(J). Cazenave, les Présides espagnoles d'Afrique (leur Organisation au XVIII Siècle) , R.A, N°63, 1922, p.227.

[3]-كمال بن صحراوي، **أوضاع الريف في بايلك الغرب في أواخر العهد العثماني** ، اطروحة الدكتوراه، جامعة وهران، 2012-2013، ص21

[4]-الواليش فتيحة، **الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 1993-1994، ص16.

[5]-المرجع نفسه، ص16.

[6]-(W). Esterhazy, Op. Cit ,p.11.

[7]- Ibid, p.163.

إنّ أول محاولة جادة لفتح وهران بعد حصار وهران والمرسى الكبير سنة 1563م قام بها باي مازونة شعبان محاولا فتح وهران في عام 1689م/1098هـ، وقد قُتل كما أشرنا سابقا أمام أسوار المدينة في معركة سميت (كدية الأخيار) حي مارفال حاليا، وقد قتله أحد المغاطيس.

بعد مقتل الباي شعبان أرسل الداي محمد بكداش شابا يدعى مصطفى ليحُلّ محل الباي شعبان. كان هذا الباي مفضّلا لدى الداي، وسُمي لاحقا بالباي بوشلاغم، وتلقى كافة الدعم من الداي بكداش. كان هذا الباي جد طموح حسب تعبير استرهازي[1].

نقل هذا الباي عاصمة البايلك من مازونة الى مدينة معسكر، ومن أسباب نقل النُظم الإدارية للبايلك هو رغبة الباي مصطفى في التموقع جيدا، ووجد في مدينة ومعسكر موقع مهمّا، فهي تتوسط القبائل المخزنية الحليفة للأتراك العثمانيين، كما انّها قريبة من مدينة وهران وهي رغبة طموحة للباي لتحرير وهران.

2-التحرير الأول لوهران والمرسى الكبير عام 1708م:

بدأ التحضير للمعركة من جانب الباي مصطفى بوشلاغم منذ عام 1704م، وفي 1705م بدأ حصاره للمدينة وازداد التضييق عليها، وبعد سنتين من المناوشات والحصار أرسل داي مدينة الجزائر محمد بكداش نسيبه القائد العسكري أوزن حسن، وتزامن هذا الوصول وصول الحاكم العام الجديد بوهران والمرسى الكبير دون كارلس دي كاريفا (Carrefa) ومعه أحد فرسان القديس يوحنا[2]. ووقبل مغادرة الحاكم العام اتّهم ثمانية من يهود وهران بإجراء اتصالات سرية مع أعدائهم[3].

من المصادر المحلية التي أرخت لفتح وهران الأول على عام 1708م هو كتاب " التحفة المرضية في الدولة البكداشية" لمؤلِفِه محمد بن ميمون الجزائري، وهو كتاب يؤرخ لفتح وهران على يد الداي محمد بكداش الذي حكم الجزائر ما بين (1707-1710م)، وذكر صاحب الكتاب أنّ أول حصن احتلّه الباي مصطفى بوشلاغم هو حصن العيون (حصن سان فرنسيسكو)[4]، وبعد سقوط هذا الحصن هاجم رجال القبائل المتعاونين مع الباي

---

[1]-(W). Esterhazy, Op.Cit, p.170.
[2]-(C.X). de Sandoval, Op.Cit, R.A, N°16, 1872, p.65.
[3] -Ibid, p.66

[4]-محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح: محمد بن عبد الكريم، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص212.

حصن سانتا كروز، ساعدهم مهندسيون مسيحيون يشرفون على سلاح المدفعية[1]، ودخل المهاجمون بسهولة إلى الحصن.

إنّ سقوط حصن سانتا كروز كان في غاية الأهمية عنذ النسبة للمهاجمين فهو يشرف على المدينة وتنصيب سلاح المدفعية عليه يعني حتمية سقوط المدينة، وأمام هذا الوضع طلب الحاكم العام للمدينة دون كارلس كاربيفا النجدة من اسبانيا؛ لكن دون جدوى لعدة أسباب منها: يقول جون وولف عن أسباب عدم تقديم يد المساعدة لوهران المحاصرة: " في السنوات الأخيرة من حكم شارل الثاني (كارلس الثاني) كانت سلطة العرش الاسباني قد تدهورت لدرجة أنّه لا يمكن القيام إلاّ بعمل ضئيل لحماية رعايا الملك، وعندما توفي شارل الثاني سنة 1700م اندلعت حروب أوربية لتقرير حق الخلافة على العرش الاسباني، أصبحت الحرب الأوربية حربا أهلية في اسبانيا مع أنصار شارل الثالث الهامبسبورغي وأنصار فليب الخامس البوربوني"[2]. أمام هذا الوضع استغل الأتراك العثمانيون الفرصة للانقضاض على وهران، ولهذا السبب لم تستطع اسبانيا تقديم يد المساعدة للأسبان في وهران والمرسى الكبير، فأقل ما قامت به اسبانيا استدعت الحاكم العام دون كارلس كاربيفا واستبدلته بالدون مليتشيور دي أبيانيدا (D.Meletchior de Avellaneda)، غادر هذا الحاكم وهران مصطحبا معه الكثير من النسوة الاسبانيات، والكؤوس المقدّسة، والصوّر، وكل ما يمكن حمله[3].

كانت وهران تتعرض مدّة الحصار إلى القصف ومحاولة الدخول إليها، فضعُفت معنويات الجنود الأسبان ، وأمام هذا الوضع قرّر الجنود الأسبان للانسحاب من المدينة عبر السفن والقوارب البحرية، ودخل الباي مصطفى بوشلاغم مع القبائل المتعاونيين معه يوم 20 جانفي 1708م؛ رغم بعض جيوب المقاومة التي أبداها الجنود المتحصّنون في بعض الحصون حتى نفاذ ذخيرتهم حسب ما ذكر دي ساندوفال[4].

أمّا في المرسى الكبير فانّ الأعداد الكبيرة من الجنود الأسبان الفاريين من وهران تجمّعوا فيها في انتظار فرصة الهروب إلى الضفة الأخرى من البحر المتوسط؛ لكن القائد حسن أوزن حاصر المرسى الكبير من جهة البحر في المقابل حاصر الجيش البري المدينة من البرّ[5].

---

[1]-(C.X). de Sandoval, Op.Cit, p.66

[2]-جون وولف، الجزائر واوربا (1500-1830)، تر: أبو قاسم سعد الله ، ط خاصة، عالم المعرفة، الجزائر، 2011، ص399.

[3]- (C.X). de Sandoval, Op.Cit, p.135.

[4]-Ibid, p.66.

[5]-(H.L). Fey, Op.Cit, p.135

استطاع الجزائريون أن يحدثوا فتحة في جدار المدينة واستطاعوا أن يدخلوا ويقتلوا ثلاثة آلاف شخص حسب ما ذكر ليون فاي[1].

كانت حصيلة الأسرى في مدينة وهران نحو 545 أسير دون احتساب الأطفال والنساء إضافة إلى أسر 106 رجل و6 نسوة في حصن سانتا كروز[2].

3-عودة الإسبان إلى وهران (1732-1792م): اعادة الاحتلال ومحاولة استرجاع الأمجاد

بعد أربعة وعشرين عاما على عودة وهران إلى أحضان الدولة الجزائرية وتحت حكم الباي مصطفى بوشلاغم، ورغم ذلك فانّ الأخبار التي وصلتنا عن هذه الفترة قليلة جدا، وما قدّمه لنا الدكتور شاو (Chaw) عند زيارته لوهران لا يعدو أن يكون وصفا جغرافيا لوهران والمناطق المحيطة بها، فقد وصف معالم وهران الدفاعية التي خلّفها الإسبان، وللعلم أنّه زار مدينة وهران في عهد الباي مصطفى بوشلاغم (1708- 1732م)، والراجح أنّ الدكتور شاو كان يتتبّع المعالم التاريخية التي خلّفها الرومان في المدينة وكامل الجزائر للعلم أنّ مارمول كربخال في كتابه " إفريقيا" في القرن السادس عشر ذكر اسم "قيزة Guiza"؛ حيث قال: "لم أجد أي مستعمرة رومانية قديمة في وهران تدعى قيزة غير قرية صغيرة تسكنها قبيلة عربية تحمل الاسم نفسه "[3].

بعد تمكن العائلة الحاكمة في الجديدة في اسبانيا من ترتيب أمور الحكم وانتهاء الحروب الأوربية، قرّرت اسبانيا استعادة وهران والمرسى الكبير؛ حيث أرسلت مدريد حملة عسكرية ضخمة يوم 15 جوان من مرفأ أليكانتي بقيادة منتيمور (Montemor) بتعداد 23 ألف جندي منهم 24 سرية من الفرسان مجموعهم 3400 فارس وعدد من الفرسان الجبليين وسلاح المدفعية[4]، إضافةإلى قطع بحرية حربية، وقد أعطى أدريان بربريجر وصفا دقيقا بالأرقام عن الأرمادة الاسبانية المشاركة في الحرب على مدينة وهران باعتماده على مصدر اسباني هو الجنرال دي لوبيردي[5](le général de Loverde).

وصل الأسطول الإسباني الى مشارف وهران يوم 25 جوان من السنة نفسها؛ لكن رياح عكسية عاتية لم تسمح للأسطول الإسباني بالنزول على الساحل الوهراني وبالضبط عند رأس فالكون (Cap Falcon)

---

[1]-(H.L) Fey, Op.Cit, p.136.
[2] -Ibid, p.130
[3] -(D.r).Chaw, Voyage dans la Régence d'Alger, Tr. De l'anglais par J. Mac carthy, Paris, 1830, p.230.
[4] -(S). le Bon Edouard, Victoire et Conquête de l'Espagne depuis l'Occupation des Maures jusqu' à nos jour, Paris, 1862, p. 117.
[5]-(A). Berbrugger, Reprise d'Oran par les Espagnols en 1732, R.A, N°8, p.22.

(رأس الحرشفة) وهي النقطة التي أمر الحاكم العام منتيمور النزول بها، وتبعد هذه النقطة نحو ميل واحد غرب المرسى الكبير، بعد التأكد من خلو المنطقة من ايّ عناصر معادية[1].

في المقابل كان عدد الجيش تحت قيادة الباي بوشلاغم يتراوح ما بين 10 إلى 12 ألف جندي من المشاة والفرسان[2]، من بينهم مقاتلين من القبائل المخزنية والمتحالفة مع الأتراك العثمانيين.

بعد المناوشات التي دارت بين الجيشين قرب المرسى الكبير تراجع جيش الباي مصطفى بوشلاغم المكوّن من فرسان ومشاة إلى الخلف بالجبل الذي يعلوا المرسى الكبير؛ بسبب قوة نيران المدفعية الأسبانية، والتنظيم الجيّد في صفوف الجيش الاسباني بقيادة مونتيمور؛ لكن حامية المرسى لم تستسلم إلاّ بإستسلام مدينة وهران.

في 30 جوان أمر الكونت مونتيمار الجيش الاستعداد للزحف على مدينة وهران؛ لكنّه تلقّى رسالة من قنصل فرنسا بمدينة وهران عبر وسيط يوناني فحواها أنّ الباي مصطفى بوشلاغم انسحب من وهران ليلة البارحة، وفي صباح اليوم الموالي 1 جويلية دخل الأسبان المدينة ووجدوها خاوية غير ثلاثة شيوخ وامرأتين طاعنتين في السّن لم يستطيعوا الفرار، وبعض المخزون من الطّحين والزيت والصوف[3]، أمّا الحامية بالمرسى الكبير والتي تتكوّن من 97 تركيا استسلمت هي الأخرى بقيادة الأغا بن دابيزا (Bendabiza)[4]، وحسب المصادر الاسبانية فإنّ أهداف استرداد وهران تمّت كلّها، وعدّ الأسبان خسائرهم البشرية ب 58 قتيلا و85 مصابا بجروح، وغنِموا من أسلحة الباي 73 مدفعا من البرونز و58 مدفعا آخرا من الحديد، ووجدوا في مقر إقامة الباي بعض مقتنياته من الأسلحة ومسحوق الكُحْل وبعض الكتب وهي موجودة حاليا بالمتحف الملكي بمدريد[5].

لجأ الباي مصطفى بوشلاغم الى مدينة مستغانم، وهناك بدأ يُنظّم مقاومة بائسة ضد الإسبان، وبدون جدوى؛ لأنّه لم يحصل على المدَدْ الكافي من مدينة الجزائر وهي أحد الأسباب الرئيسية التي جعلته ينسحب من وهران دون مقاومة حقيقية تُذكر، وبهذا انتهى عهد الباي مصطفى بوشلاغم (1708–1732م)، وبدأ الاحتلال الاسباني من جديد. وبعد اتّزان الأمور في وهران لصالح الإسبان غادر الحاكم العام الكونت مونتمار إلى اسبانيا وخلّف في منصبه الماركيز دي سانتا كروز دال مرثنادو (M. de Santa Crus del Mercenado) حاكما عام لوهران والمرسى الكبير مع 10 كتائب من الجيش بوهران، وانطلق الى اسبانيا من

1-(A).Berbrugger, Op.Cit, p.23.

2-دغموش كاملية، المرجع السابق، ص143.

3-(C). X. de Sandoval, Op.Cit, R.A, N°16, 1872, p.96.

4-Ibid, p.96.

5-Ibid, p.96.

المرسى الكبير، وفي 14 من شهر أوت أُستُقبله في مدينة اشبيلية من طرف الملك الاسباني فليب الخامس استقبال الأبطال[1].

4-رد فعل القبائل الوهرانية على الاحتلال الثاني:

لم يهدأْ بال الجزائريين المقيمين قرب وهران وضواحيها بعد احتلالها، وحسب الجنرال الاسباني ساندوفال الذي بحث في الوثائق الاسبانية، وهو الذي عاش في القرن التاسع عشر أنّ الباي مصطفى بوشلاغم خيّم بجيشه يوم 13 سبتمبر من نفس السنة التي سقطت فيها وهران، وكان مُخيّم الباي يُشاهَدُ من حصني سان أندري وسان فليب، وقد هدّدت ثلاثة بطاريات تابعة للباي حصن سانتا كروز[2]، وقد ردّ الأسبان بنيران مدفعيتهم مع الأفضلية لهم.

كان جيش الباي مُشكّل في الغالب من أبناء القبائل المتحالفة مع العثمانيين، فلم تهدأ مقاومة الجزائريين للاسبان فقد وضعوا خنادق قرب وهران للتحصّن فيها وحصار المدينة، ففي 21 نوفمبر خرج الجيش الاسباني عدده عشرة ألاف جندي لتخريب هذه الخنادق التي وضعها رجال القبائل حول المدينة، وضرب بطاريات المدافع التي تقصف المدينة ؛ لكن وقعوا في خطأ قاتل؛ حيث وقعوا في فخ وُضع لهذا الغرض، وكانت حصيلة الخسائر التي تعرّض لها الأسبان بين أسير وقتيل حوالي 1500 شخص[3].

ولرفع معنويات الجنود الأسبان قرّر الحاكم الاسباني بالنيابة دون دي جيفارا (Guevara)[4] أن يمحو آثار هزيمة 23 نوفمبر، ورفع معنويات الجنود، فقرّر الخروج (las jornadas) على رأس عدة كتائب و500 من حاملي الرماح؛ لكن المهمة باءت بالفشل، وحسب الجنرال ساندوفال أنّ وهران تعرّضت ثمانية مرات للحصار[5]، لمدة لم يحدّدها والراجح أنّه في ظرف سنة واحدة وذلك حسب الأحداث التي جرت بعد احتلال المدينة.

نجح الأسبان في فك الحصار عن وهران، وأمام هذا الوضع بدأ التّململ يدخل في صفوف المحاصِرين، وأضحت المناوشات بين القبائل المتحالفة مع الأتراك العثمانيين فيما بينهم، وأحيانا بينهم وبين الجنود الأتراك،

---

[1]-(C). X. de Sandoval, Op.Cit, p.97.
[2]-Ibid, p.98.
[3]-Ibid, p.98.
[4]-أقيل الماركيز دي بياداریاس من منصبه بعد هذه الهزيمة، وأُحيل الى المحاكمة بتهمة عدم الكفاءة، وخلفه نيابة عنه دون دي جيفارا.
[5]-Ibid, p.99.

ورُفع الحصار وعاد الباي مصطفى بوشلاغم إلى مقر إقامته السابقة بمدينة معسكر، وعاد أبناء القبائل إلى مواطنهم[1].

جاءت بعض القبائل التي كانت متحالفة مع الأسبان سابقا سنة 1755 إلى وهران لتقديم ولائها لهم ويطلبون الحماية، نحو 10 آلاف شخص، رغم تهديدات الباي لهم.

كما ذكرنا سابقا وبموجب قرار ملكي سنة 1734م أنشأ الأسبان كتائب من المقاتلين يؤدون الخدمة العسكرية لصالح الأسبان[2]، وهم المغاطيس، وقد كان نظام المغاطيس سائدا منذ الاحتلال الاسباني الأول لوهران والمرسى الكبير؛ لكن هذه المرة حسب ج. كازناف:" هم كتائب من الأهالي يأتون من الداخل لاداء الخدمة لصالح اسبانيا"[3]، وقد كانوا هذه المرة أكثر تنظيما يخضعون مباشرة للحاكم العام لوهران والمرسى الكبير، وفي 5 ديسمبر عُدّل القرار الملكي بإضافة ثلاث شيوخ قبائل حليفة للأسبان لمساندتهم في حملاتهم وحروبهم دون أن ينضّمُّوا إلى هذه الكتائب، وهم من كتائب القبائل الفرسان[4]، وتقول بعض التقديرات أنّ الذين خضعوا للأسبان في هذه الفترة نحو 140 دوارا[5].

5-الأحوال الاجتماعية والاقتصادية لقبائل وهران أثناء الاحتلال الثاني:

شهدت الحالة الاجتماعية والاقتصادية للقبائل الجزائرية تدهورا لافتا للنّظر بعد عودة الأسبان لوهران والمرسى الكبير منذ سنة 1732م، فقد تعرّضت القبائل التي تخلّت عن الأسبان لحملات انتقام رهيبة نظّمها ضدهم الأسبان، وفي حدود 1787 و1788م ضرب الطاعون كامل ايالة الجزائر ، وحسب فونتير دي بارادي (Venture de Paradi) أنّ الطاعون دمّر ايالة الجزائر[6]، وقد أحصى دي برادي عدد الأسرى الأوربيين الذين راحوا ضحية الوباء في الجزائر بين سبعة آلاف وثمانية آلاف ضحية [7]، وقد أطلق الجزائريون على هذه السنة "بعام الشَّرْ"، ومات خلق كثير من الجزائريين سواء في المدن أو الأرياف[8].

[1]-(C).X. de Sandoval,Op.Cit, p.99.
[2]-(J). Cazenave, les Présides Espagnols….Op.Cit, p.264.
[3]-Ibid, p.264.
[4]-Ibid, p.264.
[5]-(E). Mercier, Op.Cit, p.360.
[6]-Venture de Paradis, Alger au XVIII Siècle, Alger, 1898, p.51.
[7]-Ibid, p.52.
[8]-(W). Esterhazey, Op.Cit, p.190

نتج عن هذا الوضع السيء مجاعة كبيرة أصابت البلد كلّه، وتضرر بايلك الغرب بشدة في عهد الباي محمد الكبير، ولمواجهة الآثار السلبية الناتجة عن الطاعون والمجاعة، تحرك الباي محمد الكبير مستعملا سلطته بصفته بايا على بايلك الغرب، وقد اشترى القمح من الموانئ الأوربية وباعها بأسعار زهيدة في أسواق البايلك ووزّع الحبوب مجانا على القبائل.

لم تكبح مجهودات الباي محمد الكبير من آثار الطاعون والمجاعة، فاضطرّ بعض الأهالي بالاستنجاد بالأسبان في وهران، واضطرّ بعضهم باختطاف إخوانهم في القبيلة أو القبائل الأخرى وبيعهم عبيدا في وهران[1]. للعلم فقد تعرّض بايلك الغرب لجفاف كبير ضرب الموسم الزراعي (1750-1751م)، ونفَقَتْ الكثير من الماشية، وضعف المحصول الزراعي من القمح والشعير.

إنّ أزمة الغذاء التي تعرّض لها بايلك الغرب اضطرّت القبائل الوهرانية أن تلجأ للأسبان لطلب الغذاء أو اختطاف النّاس وبيعهم عبيدا في وهران، ووصل الأمر ببعض الأفراد أن أباعوا فلذّات أكبادهم للأسبان. إذن إنّها أزمة حادّة لم تشهد المنطقة مثيلا لها طيلة الاحتلال الاسباني للمنطقة منذ 1509، وقدّم الباحث لويس فرناندو في كانتو ثلاث أسباب رئيسية في اختلال البنية الاجتماعية والاقتصادية لبايلك الغرب فيما يلي:

1-الجفاف الذي تعرّضت له المنطقة سنة 1750م، واعتبره كارثة بيئية؛

2-الحروب التي اندلعت بالمنطقة سواء بين القبائل الوهرانية المتحالفة مع الإسبان والأخرى المتحالفة مع الأتراك العثمانيين، والثورات التي قامت بها القبائل الوهرانية ضد العثمانيين (ثورة قبيلة لمحَالْ أنموذجا في القرن الثامن عشر)، والخرجات الاسبانية ضد القبائل، وثورة الكراغلة ضد الأتراك بمدينة تلمسان؛

3-الطاعون الذي ضرب الجزائر ابتداء من مدينة الجزائر مرورا بمعسكر إلى تلمسان[2].

حسب التقرير الذي قدّمه الحاكم العام لوهران دون بيدرو أرغين (D.Pedro de Argain) ابتداء من نوفمبر سنة 1750 أنّ "عرب السلام"أدخلوا إلى وهران 605 عبيد من الأطفال والرجال والنساء، وبقي منهم 270 شخصا، أمّا الباقي وعددهم 330 أرسلهم الأسبان إلى ميناء قرطاجنة[3] . وقد مدّ عرب السلام أو المغاطيس الإسبان بالمعلومات والأخبار حول الوضع الذي آلت إليه القبائل المعادية لهم، فقد أخبر مختار بن سالم

---

[1] -(L). Fernando Fé Canto, la grande Famine de 1750 dans l'Oranie :d'autre voies vers la Captivité et l'esclavage, C.M, N°87, 2013, p.3.

[2]– Ibid, p.p.3.4.

[3]-Ibid, p.4.

وعبد القادر بن خليفة –وهم من قبيلة حميان– الإسبان أنّ كل بايلك الغرب أصابه الوباء والمجاعة، وغامر لكحل بن الفْغُولْ إلى مناطق سيطرت القبائل العدوّة للإسبان حوالي سبع فراسخ ليؤكّد أنّ المجاعة ضربت عدد كبير من المناطق ومات خلق كثير جراءها[1].

كما ذكرنا أنّ الوضعيةَ الحرجةَ والتي لاتُطاق جعلت الناس يلجؤون إلى وهران لبيع أولادهم وأنفسهم، في 4 جانفي في موسم (1750–1751م) وصلت سيدة تُدعى مريم تالمة برفقة ثلاثٍ من بناتها إلى بوابة وهران وهي تقول لايمكن لها أن تموت جوعا مثلما حدث لزوجها وأبوه، وعرضن أنفسهن للبيع مقابل الغذاء[2]، وفي 28 جانفي وصل بغداد بن قدور إلى وهران مع زوجته من المنطقة الجبلية تْرارَة الواقعة شمال مدينة تلمسان يطلب العون من الإسبان، لأنّ منطقته أصابها قحط شديد، وفي اليوم الموالي 29 جانفي وصل شخص من مدينة ومعسكر يُدعى أحمد بن محمد إلى وهران يَعْرِضُ بيع ابنته؛ لأنّ مجاعة كبيرة أصابت مدينته، ووصل رجل آخر من القبائل العدوّة للأسبان يُدعى عبد القادر بن عيسى يَعْرِضُ بيع رجل آخر من المنطقة التي يسكن فيها[3].

إنّ هذه الوضعية الحرجة التي تعرّض لها بايلك الغرب من شرقه إلى غربه جعلت النّاس يموتون بكثرة، ولا توجد إحصائيات تبيّن كم عدد الضحايا الذين ماتوا جرّاء هذه الكوارث البيئية والأوبئة؛ حيث أصبح النّاس يبيعون أبناءهم، وتعرّضوا للخطف واضطروا إلى وبيعهم في أسواق وهران، وهناك سبب آخر حسب فرناندو في كانتو أنّ المسلمين باعوا إخوانهم المسلمين عبيدا للنصارى؛ لأنّ الدين الإسلامي يحرّم شراء المسلم لأخيه المسلم فوجدوا في الإسبان المسحيين فرصة لهم[4].

التحرير النهائي لوهران عام 1792م:

أ–لمحة عن حياة الباي محمد الكبير:

قاد هذا التحرير لوهران من المحتلين الأسبان باي معسكر محمد الكبير المدعو "الباي لَكْحَلْ" ذلك لسمرته، وقد وصف ملامحه وصفاته الأسير الفرنسي تيدنا (Thedenat) عند وصوله إلى قصره؛ حيث قال: "كان رجلا في الأربعين أو الخامسة والأربعين من عمره (حين أُدخل عليه أول مرة)، ذو وجه جميل، ولحية سوداء تظهر شديدة البياض، وهي تنزل إلى منتصف صدره، وله شاربان من الشعر تنزل على كتفيه على الطريقة التركية، وكان

[1]-(L).Fernando Fé Canto, Op.Cit, p.5.
[2]-Ibid, p.5
[3]-Ibid, p.5.
[4]-Ibid, p.5.

شديد الإنسانية، وثقافة واسعة"[1]، وقد كان ابوه عثمان حاكما على مدينة مليانة، ثمّ أصبح بايا على بايلك التيطري، وأمّا أمه فقد أهداها سلطان المغرب تدعى "زايدة"، ولعل ذلك راجع لسمرة الباي[2]، ويقول عنه غورغيوس (A.Gorguos): " في الأعوام الأخيرة من القرن العاشر الهجري كان بايلك الغرب عاصمته مدينة معسكر يحكمها باي ترك مآثر من حياة مهنية مرموقة اتّسمت بالشجاعة والكرم، ومازال العرب بعد ستين سنة من وفاته يتوارثون الحديث عنه"[3].

إنّ قوة شخصيته وإحاطته بقبائل المخزن قوة ضاربة لأي تمرّد قبلي على مملكته، جعلته الباي الأكثر نفوذا في بايلك الغرب واستطاع أن يوسّع حدود البايلك إلى مساحات كبيرة، وقد وفّر الأمن لدرجة لا بأس بها، وقد ذكر صاحب الثغر الجُماني أنّ بعض القبائل القوية الخارجة عن طاعته أخضعهم ومن هؤلاء: المهَايَة، وأولاد علي بن طلحة، والحشم[4]، ويصف قبيلة فْلِيْتَة التي أخضعها الباي بقوله: "القبيلة المشهورة التي لا تحومها النسور، ولا يمرُ بها غيرَ المِحَلَةِ إلاّ أو مأمور، يقطعون السبيل ويجرعون من عزاهم الزُّعاف الوبيل"[5].

وصلت حملاته العسكرية حتى الجنوب إلى الصحراء لتأديب قبائل الأحرار ووصل حتى مدينة عين ماضي وحاصرها، وقدر ذكر هذه الحملة العسكرية كاتبه ومستشاره أحمد بن هطّال سنة 1785م (1199هـ)، وذكر ابن هطّال أنّ قبائل الأحرار الشراقة قدِموا إليه إلى مخيّمه مُذْعِنين له الطاعة، وقدّموا له مجموعة من الأحصنة؛ لكنّه طلب منهم أن يمدّوه بخمسمائة من الإبل المسوّمة للنقل مقابل الأمان[6].

ب–حالة وهران بعد الزلزال:

في الأيام الثلاثة التي سبقت الكارثة كان الجوّ في وهران مغبرّا، والهواء عليلًا؛ حيث هبّت السيريكو الجنوبية المحمّلة بالغبار، وفي الليلة من الثامن إلى التاسع من شهر أكتوبر سنة 1790م اهتزّت الأرضُ بوهران، وشعر بالهزّة الأرضية على بعد 60 إلى 100 كلم من مدينة وهران، من كل الجهات المحيطة بها، ووصف هول الهزة الأرضية ابن سحنون الراشدي الذي كان يقطن في مدينة معسكر قائلا:" ارتجّت الأرضُ ارتجاجا عظيما، واضطربت

---

[1]–عميرواوي أحميدة، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا)، دار الهدى، عينمليلة (الجزائر)، د.ت، ص54.

[2]–كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص61.

[3]-(A).Gorguos, Notice sur le Bey d'Oran, Mohamed El Kebir, R.A, N° 1, 1856, p.403.

[4]–ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص145.

[5]–المصدر نفسه، ص146.

[6]-(A). Gorguos, Histoire d'un Bey de Mascara et de l'Oranie, ed grande Alger- livres, Alger, 2006, p.122.

السّقوفَ اضطرابا قويا، فانزعج النّاس من مضاجعهم داهشين، ودام ذلك عدة دقائق"[1]. لقد أصاب الرُعبُ الجميع.

وفي تقرير أُرسل إلى الملك الاسباني يذكر أنّ الأرض اهتزّت لمدة 3 دقائق، أدّت إلى تهدّم الجزء الأكبر من المباني الموجودة في المدينة، وبقيت منها إلاّ المباني الموجودة في أعالي المدينة[2]، من بين المباني المهمّة التي تهدّمت حسب التقرير المُرْسَل من مدينة وهران: دار المالية، وإقامة الاستقبالات الرسمية، وحي الجنود المنحدرين من مقاطعة أستوريا الاسبانية، والكنائس[3].

إنّ معظم المباني تهدّمت بسبب الهزّة الأولى والهزّات الارتدادية التي تلتها، أمّا القتلى فمعظمهم دُفنوا تحت أنقاض المباني، وأكّد هذاالتقرير كذلك أنّ الضحايا دُفِنُوا تحت الأنقاض، وسُمِعَ أنين الجرحى تحت حُطَامِ المنازل وهم يطلبون النجدة لآبائهم وأزواجهم وأطفالهم[4].

كانت حصيلة القتلى ثقيلة؛ حيث قُتل معظم جنود فرقة أستوريا، ومجموعهم سبعمائة وخمسة وستين جنديا ماعدا عشرين جنديا كانوا يحرصون أبواب الدخول إلى المدينة، وقتل في هذا الزلزال نيكولاس غارسيا (Garcia) وهو حاكم عام بالنيابة وأفراد أسرته ومُقربيه وبعض كبار الضُباط دُفنوا تحت أنقاض الحي المذكور[5]، وقُتل 1100 شخص قرب القصر العتيق (le Vieux Château)[6]، وحسب ليون فاي وصل عدد القتلى في مدة ثلاثة دقائق من اهتزاز الأرض ثلاثة آلاف قتيل وبقي ثُلثي سكان المدينة أحياء[7].

لجأ الناجون من الزلزال إلى السهل المقابل لوهران من الجهة الشرقية (Rambla Onda)، وبنى الإسبان مساكن مؤقتة من الخشب شاهدها أحمد بن سحنون الراشدي بعد انسحاب الاسبان من المدينة وأُعجب بها: "أمّا دُور السُكنى فقد تهدّمت بالزلزلة؛ بحيث لم يبق إلاّ أطلالها، غير أنّهم جعلوا خارجها بين الابراج بيوتا من الألواح رائقة الشّكل، بديعة الوضع، أكثرها وتحتوي عليه الدار الرائعة من المنافع والمساكن"[8].

---

[1]-ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص221.

[2]-(Dr). de Bourilhon, Notice sur le tremblement de Terre d'Oran en 1790, B.S.A.S.A.P, N° 6 , 1865, p.1.

[3]-Ibid, p.1.

[4]-Ibid , p.2.

[5]-(H.L). Fey, Op.Cit, p.235.

[6]-Ibid, p.235.

[7]-Ibid, p.236.

[8]-ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص478.

كانت كارثة تعرّضت لها وهران، وأصبحت منكوبة، كل شيء دُفن تحت الأنقاض حتى المواد التموينية، وأصبحت وهران متربصة من الجنوب، وهي مسألة وقت لاقتحامها من قبل جيش محمد الكبير.

في مدينة معسكر مقر إقامة الباي كانت فرصة من ذهب ولا تُعوض، فقد شُغل الجميع بالتحضير للمعركة الحاسمة، فبعث الباي محمد الجواسيس يستفسرون الإخبار عن الوضع الكارثي بوهران، وبعث الباي إلى كل الجهات يستنفِر النّاس على الجهاد، فجاءوا من كل حدب وصوب حسب قول أحمد بن سحنون الراشدي[1]، وبدأ النّاس في حصار المدينة، وتداولوا كثيرا مصطلح "الرباط".

ج- تعريف الرّباط ودور الدين في المقاومة ضد الإسبان:

هو مصطلح فقهيٌّ دينيٌّ ارتبط بالفتوحات الإسلامية، وجاء تعريفه لغويا في الموسوعة الإسلامية بملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خَيْلَهُ ثم صار لزوم الثغر رباطا، وسُميت الخيلُ أنفسها رباطا، أمّا الرباط في الإسلام هو حماية الدعوة والأمّة، وليس العدوان أو الاستيلاء على مقدّرات الآخرين المسالمين لنا[2]. أمّا المهدي البوعبدلي يقول عنه: "ويُطلق في اصطلاح علماء الدين خصوصا الفقهاء المتصوفين على الأمكنة التي تنشأ في المواقع الحربية، لحماية البلاد من هجمات الأعداء وكذلك تُطلقُ على البقاع التي تؤسس الاجتماع المنقطعين لله والمتعبدين الذاكرين، وكذلك على المعتكفين لتعلم الدين وتعليمه"[3]، ونقلا عن الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في تفسيره المسَمّى "جواهرَ الحِسانُ" أنّ الرباط يومٌ وليلةٌ خيرٌ من صيام شهر وقيامه"[4].

إنّ هدف الرّباط الذي تأسس حول مدينة وهران هو تحريرها من الاحتلال الاسباني الذي دام ثلاثة قرون، وهذه فرصة سانحة لا تُعوّض لإنهائه، وتَزَعَّمَ رباط وهران عدة فقهاء من بينهم محمد بن عبد الله الجيلالي، والسيد الطاهر بن حوا وكاتب الباي السيد محمد مصطفى بن زرفة مؤلف الرحلة القمرية[5].

عرفت وهران عدة رباطات، احد هذه الرباطات كان قبل الاحتلال الاسباني، كان يقع في السفح الشمالي اللشرقي لجبل مرجاجو غير بعيد عن البحر، وأُطلق عليه عبد المؤمن بن علي سنة 1145م " رباط صلب

---

[1]- ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص220

[2]-عبد السلام عبده، الرّباط، الموسوعة الإسلامية العامة، منشورات وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة، 2003، ص274.

[3]-المهدي البوعبدلي، **الرباط والفدا في وهران والقبائل الكبرى**، الثقافة الاسلامية، العدد:6، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 2010، ص11.

[4]-المرجع نفسه، ص12.

[5]-المرجع نفسه، ص19.

الفتح"[1]، أمّا الرباطات الأخرى أهمها رباط جبل المائدة، وذكر المهدي البوعبدلي أنّ رباط وهران كان يقع في واد افري غربي ساحل وهران، وبقيت ذكراه حسبه يحتفل بها الطُلبة تُقام سنويا الى أوائل الحرب العالمية الثانية، وكان يرأسه الشيخ الطيب المهاجي[2]، وهناك رباط آخر ذكره الحلفاوي في أرجوزته وهو رباط مسرغين[3]، ويقع غرب مدينة وهران ويبعد كيلومترات قليلة عن وهران.

قدّرت بعض المصادر أنّ عدد "الطُلبة" الذين لبوّا نداء الجهاد الذي أعلنه الباي محمد الكبير بألف ومائة طالب وهم: طُلبة المدرسة المحمدية التي أسسها الباي محمد الكبير في معسكر وعددهم أربعمائة طالب، وطُلبة غريس مائة طالب، وطُلبة الشيخ سيدي محمد بن أبي طالب المازوني وعددهم يزيد عن مائتين، وطلبة تْرارَة وندرومة وما وراءهما وعددهم أربعمائة طالب[4].

شكّل عامل الدين سبب مهم في رباط وهران وتحريرها من الأسبان، فهؤلاء الطُلبة (بضمّ الطاء) تخرجوا من المعاهد الدينية التي تدعى " الزوايا"، فالزاوية عُرفت في القرن الثامن هجري، وهي ملتقى الطُلاّب، مكان العبادة، وإيواء عابري السبيل، وهي في المغرب العربي تخص الطرق الصوفية، ويجتمع فيها الطُلاّب من اجل الذكر والابتهال، وهي تخضع لشيخ الطريقة، أو مقدميه[5].

اللاّفت للأمر أنّ المقاومة الشعبية التي نظّمها الأتراك العثمانيون بمساعدة القبائل الوهرانية الحليفة لهم ضد الأسبان، وفيما بعد مقاومة الأمير عبد القادر ضد الفرنسيين (1832–1847م) انطلقت كلّها من إقليم بني راشد وعاصمته معسكر، والسؤال المطروح لماذا انطلقت المقاومة من هذه المنطقة وتحرّرت وهران عام 1708م، وتحررت عام 1792م؟

إذن هناك عدة عوامل جعلت هذا الإقليم وعاصمته مدينة معسكر يتولى المقاومة، وتعدّدت العوامل ليحمل هذا الإقليم على عاتقه تحرير وهران والمرسى الكبير:

1–العامل الاجتماعي: إنّ الأهمية الجغرافية لهذا الإقليم (أنظر الفصل الثاني) كان عاملا جاذبا للعائلات الشريفة التي استقرت بسهل غريس، لها وزن ديني على مستوى الجماهير، فهم من آل البيت وتوارثوا العلم أبا عن

[1]–ا المهدي البوعبدلي لمرجع السابق، ص19.

[2]–المرجع نفسه، ص21.

[3]–المرجع نفسه، ص21.

[4]– المرجع نفسه ، ص209.

[5]–موصدق خديجة، **الرباط وبعده الثقافي والعلمي لمدينة وهران**، مجلة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد: 9، الجزائر، 2001، ص44.

جد، فهؤلاء الشرفاء اكتسبوا محبة النّاس لهم أينما حلوا وارتحلوا عبر التاريخ الإسلامي، فحسن المعاملة والاحترام والتقديس التي كان يكنّها لهم سكان غريس من العوامل المساعدة على جذبهم[1].

احتكر الأشراف العلوم الفقهية والعلوم الأخرى، فقرّبهم بايات الغرب إليهم، فكان من السهل جدا أن يُعبّئوا الجماهير بكثافة، ومن بين الأشراف الذين شاركوا في فتح وهران عائلة المشارفة، منهم الشيخ عبد القادر المشرفي صاحب كتاب " بهجة الناظر"، وذكر أبي راس الناصري أنّه تتلمذ على يد الشيخ عبد القادر المشرفي، أنّ شيخه شارك في المعركة التي انتهت بانسحاب الباي مصطفى بوشلاغم من وهران ودخول الأسبان إليها سنة 1732م[2]، ومن بين هؤلاء الأشراف الذين شاركوا في معركة التحرير أحمد بن محمد بن علي بن سحنون صاحب "كتاب الثغر الجماني"، وذكر غورغيوس (Gorguos) أنّ هذا الأخير ينتمي إلى عائلة الباي محمد الكبير[3]. إنّ مشاركة هؤلاء الإشراف في معركة تحرير وهران ساعد على تأسيس الزوايا لتحفيظ القرآن وعلوم الدين واللغة، ما ولّد الشعور بالنزعة الدينية في مجابهة الأسبان المسيحيين وتحرير وهران منهم.

2-وجود قبائل حربية قوة (مخزنية) مجنّدة لأقل طلب للحرب، فقد كانت هذه القبائل تمتلك امتيازات كبيرة مثل استغلال الأراضي الزراعية الشاسعة المنتجة للأشجار المثمرة والخضر وانتاج الحبوب، وأفضلية جمع الضرائب من القبائل الرعية، يقول استرهازي: "كانت قبائل الدواير والزمالة تتناوب الرئاسة، لكن قبائل قليلة كانت تحصل على امتيازات سياسية يمنحها الباي"[4]، ولهذه القبائل دور كبير في هزيمة الاسبان بعد هجوم الباي بوشلاغم على وهران؛ حيث ذكر استرهازي أنّ الدواير والزمالة عرضت خدماتها على الباي بعد أن استقر في مدينة معسكر وهاجموا الأسبان وحلفاءهم من قبائل بني عامر[5].

قبل الزلزال الذي ضرب وهران كان الباي محمد الكبير يشنُّ الهجمات على وهران ويضيّق الحصار عليها أكثر فأكثر، فقد ذكر مراسل جريدة لاغزيت الفرنسية (Gazette de France) من مالقا الاسبانية في 29 سبتمبر 1780م نقلا عن إرسالية من الحاكم العام بوهران أنّ الباي محمد الكبير وحلفائه شتّوا هجوما علينا، يغذيه التعصّب الديني ضدنا، وذكر كذلك أنّهم بعد الظهر اكتشفوا أنّ الباي خيّم بجيشه على بعد ميل ونصف

---

[1]-سمية مصدق، **استقطاب منطقة غريس للأشراف**، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، العدد: 5و6، جوان، 2015/2014، ص277.

[2]-(M). Bodin, Notice historique sur les Arabes soumis aux Espagnols pendant leur Occupation d'Oran par Sidi Abdekader El Macherfi, R.A, N° 65, 1924, p.196.

[3]-(M). Gorguos, Notice sur …Op.Cit, p.404.

[4] -(W). Esterhazy, Notice sur le Makhzen d'Oran, 1849, p.11.

[5]-Ibid, p.11.

الميل من المدينة[1]، واستعمل الباي في الهجوم المدفعية وبنادق من نوع موسكي (mousquietrie)،وكانت حصيلة الهجوم حسب تقرير الحاكم العام لوهران والمرسى الكبير مقتل عنصرين من المغاطيس واصابة جندي اسباني بجروح خطيرة، وأربع آخرين بجروح خفيفة، من بينهم قائد كتيبة المغاطيس والدون فرانسيسكو دي كاثاس (D.Francisco de Cazas)[2].

كانت المناوشات بين جيش الطُلبة والحامية الاسبانية بوهران شبه يومية في المقابل كان محمد الكبير يحضّر جيّدا للحرب، فأرسل طلبيات إلى انجلترا لشراء مختلف معدات الحرب من السلاح والمدفعية، والقذائف (البومبة)، والألغام، واستأجر سفناً تعود ملكيتها لأوربيين لنقل السلاح[3]. ونقل غورغيوس عن أحمد بن سحنون الراشدي أنّ الباي محمد الكبير بعث قائد محلته وكاتبه الخاص (مستشار) أحمد بن هطال إلى السلطان المغربي يطلب منه التصريح له لشراء كميات السلاح من المغرب الأقصى، وذكر كذلك أنّ كاتبه الخاص أحمد بن هطال انتقل إلى جبل طارق وعاد إلى بلاده محملا ب 250 قنطار من المتفجرات، وأرسلت كميات اخرى من منطقة زواوة[4].

إنّ تعرّض وهران للزلزال لم يكن السبب في هجوم الباي على وهران، وإنّما كانت فرصة لاتعوّض للهجوم، فالتحضير للحرب على وهران كان قبل الزلزال بسنوات، فقد جمع الباي جيشا لا بأس به من الطُلبة ورجال القبائل واشترى السلاح من كل الجهات، فالطريق الرابط بين مدينتي وهران ومعسكر كان وعرا، ولا يمكن أن تمرّ عليه المدفعية الثقيلة، فأمر الباي إصلاح الطريق وتوسعته للسماح لهذه الأسلحة الثقيلة المرور عليه، وكذا عربة الحصان للوصول حتى جبل المائدة، ولسّماح للجيش أن يطل على مشارف المرسى الكبير[5].

ومن ضروريات إحراز تقدّم في الحروب جعل طرق المواصلات ملائمة لمرور الجيش بسهولة؛ بتوسيع الطرقات وتشييد الجسور، يقول غورغيوس: " أنّ الجيش وجد صعوبة شديدة في السير نحو مدينة وهران فتأخّر لمدة يومين ببوصول إلى سهل هَبْرَة بالضبط بمنطقة سيق لصعوبة الطريق"[6].

أرسل الأسبان مفاوضاً الى الداي محمد بن عثمان بمدينة الجزائر لفتح مفاوضات بعد تشديد الباي الحصار عليهم، واقترح الداي محمد بن عثمان على الاسبان الانسحاب من وهران، والبقاء على المرسى الكبير نقطة

---

[1]-Charlotte- Joachine, ……………..,Gazette de France, N° 90, Imprimerie Royal, Paris, 1780, p.4.
[2]-Ibid, p.4.
[3]-(M). Gorguos, Notice sur le …Op.Cit, R.N, N° 2, p.225.
[4]-Ibid, p.225.
[5]-Ibid, p.226.
[6]-Ibid, p.226.

مبادلات تجارية مع الأسبان[1]؛ لكن الباي محمد الكبير من معسكره في سيق استقبل هذا العرض بالرفض، وطلب انسحابهم من كل الساحل الجزائري الذي احتلوه، وفي هذا الظرف طلب الأسبان من الجزائريين أن ينقلوا هذه الشروط الى مدريد وانتظار الرّد على هذه المطالب.

أرسل الداي محمد بن عثمان إلى الباي محمد الكبير بسيق برقية على عجل للتريّث قبل الهجوم، وبدوره أرسل الباي إلى جيش الطُلبة المرابط قرب وهران بعدم شن الهجوم المرتقب على المدينة حتى يوم 22 شعبان[2].

كانت البرقيات المتبادلة بين مدريد ومدينة الجزائر جدّ سريعة؛ لكن المفاوضات باءت بالفشل.

استأنف الباي هجومه في ظل فشل المفاوضات مع الأسبان، وقُصِفَتْ وهران بكثافة بالمدفعية، وخاصة من الجهة الغربية للمدينة، وأصبحت وهران في حصار خانق وقد أحصى ضابط اسباني عدد الضحايا في تقريره ب 43 ضابطا رفيعا و15 ضابطا، و30 عنصرا من سلاح المدفعية و4 عناصر من كتائب لشبونة و755 من كتائب مقاطعة استوريا الاسبانية، و60 من كتائب الجنود المولودون بوهران و22 يعملون في مجال الصحة، وعدد لا يُحصى من جنود كتائب مقاطعة نفارا و6 من عرب المغاطيس ...[3].

اندحر الأسبان بعد مقاومة عنيدة وبائسة، وتمخّض عن ذلك انسحابهم من وهران والمرسى الكبير، بعد مفاوضات استمرّت أعوام، وسرّع الاتّفاق هجوم الباي محمد الكبير وأهم ما جاء في بنود هذا الاتفاق بين حكومة الباي[4] وحكومة مدريد، وطبعا بالتنسيق والتشاور مع المتحاربين في المدينة (أسبان وهران والباي) مايلي:

1-يوافق الداي على السماح للأسبان بإنشاء مركز تجاري في المرسى الكبير مشابه للمركز التجاري الذي تحصّلت عليه فرنسا بمدينة القالة، ويدفع الأسبان ضريبة سنوية لحكومة الداي مقدارها سبعمائة ألف ريال ؛

2-السماح للأسبان صيد المرجان على طول السواحل الغربية للجزائر؛

3-لإسبان الحق في شراء ألف حمولة من القمح سنويا في الحالات العادية بدون زيادة في أسعار هذه المادة؛

4-عند رُسوْ البواخر الأسبانية في ميناء المرسى الكبير او مبيناء وهران، وتدفع خمسة وخمسين ريال تعود أغلبها الى خزينة الداي، وماتبقى لقايد وهران؛

---

[1]-(M). Gorguos, Notice sur le…Op.Cit, p.227.
[2]-Ibid, p.227.
[3]-(Dr). de Bourilhon,Op.Cit, p.35.
[4]-قبل الإمضاء النهائي على اتفاقية الجلاء من وهران توفي الداي محمد بن عثمان وخلفه الداي علي أبو الحسن.

5-عند دخول السفن التجارية الاسبانية لميناء المرسى الكبير تعود الأفضلية لهم على حساب السفن التجارية الأوربية الأخرى؛

6-لا يحقُ للمسلمين أن يرعبوا الأسبان؛

7-يحق للإسبان أن يسحبوا المدافع من المدينة، ويهدموا الأبراج التي شيّدوها بعد سنة 1732م؛ أيّ بعد استرداد الأسبان وهران والمرسى الكبير من الباي مصطفى بوشلاغم؛

8-يحق للإسبان تحطيم المنشآت الدفاعية التي شيّدوها منذ استرداد وهران سنة 1732م؛

9-في الفاتح من شهر جانفي من السنة المقبلة يكون الإسبان قد انسحبوا من وهران كلّيا.

كانت هذه نقاط من اتفاقية بين الجزائر واسبانيا حول الانسحاب النهائي من وهران والمرسى الكبير كما وردت في تقرير الضابط الإسباني الكونت دي كومبري ارموسا[1] (Comte de Cumbre Hermosa)، وقد وضعت حّدا للتحرّشات الاسبانية على كل السواحل الجزائرية، ونهاية الاحتلال، فكل التضحيات التي قدّمها الجزائريون منذ 1505 و1509م لم تذهب سُدا ، وتُعدّ حملة الباي محمد الكبير على وهران حلقة واحدة من النضال المستمر ضدّ الاسبان منذ القرن السادس عشر.

د-مصير القبائل المتعاونة مع الأسبان وموقف الباي منها:

بعد هزيمة الإسبان في معركة تحرير وهران والمرسى الكبير انتاب الخوف والذّعرُ القبائل المتعاونة مع الأسبان، وخاصة التي قاتلت مع الإسبان حتى الرمق الأخير من وجود الإسبان في المنطقة، والذين أطلق عليهم الإسبان اسم المغاطيس، كان الانتقام ينتظرهم؛ لكن الباي محمد الكبير وكان لديه رأي آخر رغم الاتفاقية المبرمة مع الإسبان التي جاء بند من بنودها: على جيش الطُلبة أن يكفّ عن الأعمال الانتقامية، ونعتقد أنّ هذا البند يدخل في إطار التفاهمات بين الإسبان والباي محمد الكبير في عدم التعرّض للقبائل المتعاونة مع الإسبان والتي فضّلت البقاء في وهران وعدم الجلاء مع الإسبان كما فعل الونازرة، فقد ذكر صاحب الثغر الجماني، وهو أحد المقربين من الباي وأحد الذين تزعموا الجهاد على رأس كتيبة الطُلبة أنّ الباي اجتمع ببعض الفقهاء في معسكر واستشارهم في أمر المغاطيس الذين بوهران، وموقفهم منهم، فأشاروا إليه أن يعطيهم ضمانات كافية بتأمينهم، وبعث اليهم بعض المرابطين، فبعث إليهم قاضي المدينة السيد عبد الله بن حوا والسيد محمد بن فريحة[2]؛ لكن

[1]-(Dr). De bourilhon, Op.Cit, p.66.

[2]- ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص446.

بعض من هذه القبائل ارتابت وخافت من تسليم أمرها للباي؛ لأنّ بعض الأعمال التي ارتكبتها في حق سكان المنطقة قرابة ثلاثة قرون لا تغتفر، واختاروا الجلاء والهجرة من الجزائر، وحملهم الأسبان إلى مدينة سبتة المغربية[1].

كان الباي وفيّا لمبادئه وتعهداته بإعطاءالأمان لكل من وعدهم بذلك حتى الذين كانوا جندا وفيا للإسبان، ذكر الأغا المزاري موقف الباي من تصرفات بعض الطُلبة ضد سكان وهران واغلبهم من كانوا في تعاون مع الإسبان؛ حيث قال: " يُحكى أن لما رُفعت له الشِّكَايَة من أهل وهران بالطُلبة وتكرّرت عليه أمر بإخراجهم من وهران، فخرج الطُلبة منها، وانصرفوا كلهم عنها، وهو ينظر فيهم من محلّه وقلبه متحيّرٌ في الأمر كلّه"[2]. وقد عدل عن قراره بعد تدخّل الأغا قدور الكبير بن إسماعيل البحثاوي[3] وطلب منه أن يعاقب فقط من أساء لسكان المدينة لا جميع الطُلبة[4].

دخل الباي محمد الكبير مدينة وهران منتشيا بنصره الذي تحقّق أخير بعد طول انتظار النصر، دخل الباي في قائمة أقوى وأشهر حكام البايلك بمساعدة قبائل لا تعرف الخوف.

تمكّن الجزائريون لأول مرّة أن يطردوا الأسبان عام 1708م في إطار التعاون القبلي العثماني بقيادة الباي مصطفى بوشلاغم، كان هذا العمل نتيجة مجهودات كبيرة وتضحيات جسام طيلة قرنين من الزمن قدّمها سكان المنطقة. ما أعطى أملا للجزائريين مرّة أخرى عام 1792م أن يطردوا المحتلين الإسبان من وهران والمرسى الكبير نهائيا بقيادة الباي محمد الكبير، الذي ساعده الظرف الطبيعي المتمثّل في الزلزال الذي تعرّضت له وهران سنة 1791م، وقد خُرّبت وهران جراءه؛ لكن الباي كان قد جهز نفسه بشراء السلاح من الموانئ الأوربية والمغربية، والتنظيم الجيّد للقبائل المتحالفة معه ومرتادي الزوايا الدينية "جيش الطُلبة" كان هذا الجيش سابقة في تاريخ الجزائر طيلة الوجود العثماني بالجزائر، فقد خاض الباي محمد الكبير طيلة سنوات حصار المدينة؛ حيث تعرّضت وهران لهجمات عديدة ومنتظمة، وأنشأ الرباط حول المدينة. وتعرض بايلك الغرب في فترة الاحتلال الاسباني الثاني لوهران للأوبئة والمجاعة التي ضربت المنطقة سنة 1750م واستمرت عدة سنوات.

---

[1] -ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص446.

[2] -الاغا بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص296.297.

[3] -حسب الاغا بن عودة المزاري الأغا قدور الكبير ينتمي إلى أسرة البحايثية من قبائل السويد العربية، وهو من ذرية إسماعيل وخلفه أخوه مصطفي بعد وفاته. ومصطفى كان أغا الدواير زمن الأمير عبد القادر . أكثر تفاصيل انظر طلوع سعد السعود، ج2

[4] -المصدر نفسه، ص297.

خــاتمة

شكّلتِ القبيلةُ العمودَ الفقريَّ للمجتمع الجزائريّ عشية الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية، وهي القوة الضاربة الوحيدة التي يمكن ان تقف في وجه التغلغل الإسباني في الداخل، امام عجز الدولة الزيانية، لم تستطع حتى الدفاع عن أسوار عاصمتها تلمسان؛ بسبب المؤامرات داخل القصر الملكي، ولا يمكن ان نحمّل قدرا كبيرا من المسؤولية لضعف الدولة بسبب تمرّد القبائل؛ لأنّ الطبيعة القبلية تنقاد للدولة إذا كانت قوية، وتخرج عن طاعتها حين تجد الفرصة السانحة في ذلك، وهذا ما بيّنه ابن خلدون.

أمام هذا الوضع كان على سلاطين تلمسان أن يتحالفوا مع اكبر قوتين في الجزائر، الأتراك العثمانيين والأسبان، فخضع سلاطين بني عبد الواد للأسبان يؤدّون ضريبة سنوية لهم، وحين تتسنّى الفرصة لبعض السلاطين يطلبون الحماية من الأتراك العثمانيين، وقد لا حظنا انّ غالبية السلاطين الزيانيين قد خضعوا للإسبان بمعاهدات مذلّة، انتهى أمر الدولة الزيانية سنة 1554م على أيدي الاتراك العثمانيين بعد استيلاء المغاربة السعديين على مدينة تلمسان وطردهم منها.

أثّر خضوع الدولة الزيانية للإسبان على القبائل الوهرانية المخيّمة غرب وهران والتي لها ارتباطات تاريخية مع الزيانيين، فانحازت هذه القبائل للإسبان، وأبرزها بني عامر العربية وبني راشد البربرية، وكذلك قربها من تأثير دائرة الإسبان التي يتحركون فيها، أمّا القبائل الواقعة شرقا فخضعت للأتراك العثمانيين، وقد أثّر العامل الجغرافي في تحالفات القبائل وولائها.

بعد احتلال الإسبان وهران والمرسى الكبير واستتباب الأمور لهم توطّدت العلاقة بينهم وبين القبائل المحيطة بوهران، ففتحوا لهم سوقاً جوارياً للتبادلات التجارية ولفك الحصار الاقتصادي المفروض عليهم من القبائل الوهرانية الأخرى، ودفعت هذه القبائل ضرائب سنوية تعدّدت تسمياتها مقابل الأمان والحماية يحدّد فيها الإسبان قيمتها بعد الاجتماع بشيوخ القبائل الوافدين إلى المدينة قصد الدفع وتجديد الضريبة ما عزّز مكانة العملات الإسبانية بالجزائر.

ولتثبيت التحالف مع القبائل وطّد الإسبان علاقات ودية مع شيوخ أقوى القبائل الوهرانية أبرزهم الشيخ الحميدة العبد أمير مدينة تنس، وعبد الرحمن بن رضوان شيخ قبائل بني عامر، والمنصور بن بوغانم قائد بني راشد، وهذا في القرن السادس عشر.

تجسّدت العلاقات الوثيقة بين القبائل الوهرانية والاسبان بالمشاركة في الحملات العسكرية خارج وهران أبرزها الهجوم على مدن تلمسان ومعسكر ومستغانم، وبمساعدة هذه القبائل فرض الإسبان على هذه المدن اتفاقيات الخضوع والاستسلام.

كان لهذه القبائل الوهرانية التي تحالفت وخضعت للإسبان دور مهم في تعزيز الاحتلال الإسباني في المنطقة وتوسعه خارج أسوار مدينة وهران، فظلّت بعض هذه القبائل وفية لهم، ومن مظاهر تجسيد مكانة الإسبان وتقوية نفوذهم التجسّس لصالحهم ونقل المعلومات المهمّة عن القبائل التي وصفوها بالعدوّة لهم وتحركات السلطة العثمانية، والمشاركة في الحملات على الدواوير والتي أطلقوا عليها (las Jornadas) التي تعدّ المورد الأساسي لهم أثناء الحصار البحري الذي يتعرضون له، وتقسّم الغنائم المتحصَّل عليها حسب مكانة الجندي وأقدميته في الخدمة بوهران، وساهمت هذه الغنائم على تشييد الحصون وتقوية الدفاعات بالمدينة ضد الهجمات التي تستهدفهم.

وتبيّن كيف كانت ردود القبائل على هجمات الإسبان على دواويرها، وكانت تطاردهم حتى أبواب المدينة وتعتبر هذه الإعمال من تصرفات الجبناء.

عاشت في المدينةِ جاليةٌ يهوديةٌ ميسورة الحال قبل وبعد مجيئ الأسبان، وساهم اليهود في استيلاء الإسبان على المدينة بفعل الخيانة، وهذا حسب ما ذكرت المصادر المحلية والاسبانية، وذلك للحفاظ على مصالحهم الاقتصادية في المدينة. ساهم اليهود في ازدهار تجارة مدينة وهران لعلاقاتهم الواسعة مع الإسبان وسكان المنطقة والأتراك العثمانيين والمغاربة، وسيطروا على تجارة واسعة في المنطقة، وكوّنوا ثروة ضخمة على حساب الكل، واحتكروا منصب المترجم الرسمي لدى الحاكم العام لوهران لمدة تزيد عن قرن وقادوا المفاوضات التي جرت بين الإسبان والزيانيين والإسبان والمغاربة، ونتج عن جشعهم أن طردهم الإسبان نهائيا من وهران إلى ليفورن بأوربا سنة 1669م.

ضرب الجزائريون مثالا عن الكفاح المستمر الذي لا ينكَفِئ ضد الاحتلال الأجنبي المسيحي طيلة قرنين من الزمن، كان الكفاح جهيدا وقدّموا تضحيات جِسَام،وتُوِّجَ بطرد الأسبان من وهران والمرسى الكبير عام 1708 بقيادة الباي مصطفى بوشلاغم، تساعده قبائل المخزن، واستغلاله للظرف الذي كانت تعيشه المملكة الإسبانية بالحروب الأوربية والصراع على الكرسي وتتويج أسرة أل بوربون الفرنسية الحكم في اسبانيا. أعطى أملا للجزائريين أن يعاودوا الكرّة بعدة استرداد الإسبان وهران والمرسى الكبير سنة 1732م، ونجحوا في طرد الأسبان نهائيا بقيادة

الباي محمد الكبير الذي حضّر جيدا لهذا العمل مع استغلاله فرصة زلزال وهران الذي خرّب المدينة سنة 1791م. وبهذا الفتح انتهى الاحتلال الإسباني لوهران والمرسى الكبير لمدة تقارب ثلاثة قرون.

انتهى عهد الإسبان في المنطقة ورجعت وهران إلى حضن الجزائر، وتعزّز دور قبائل المخزن المتعاونة مع العثمانيين، وسيطرت على كل مناطق نفوذ القبائل المتحالفة مع الاسبانيين، وفقدت القبائل الأخرى دورها السياسي الفعّال في المنطقة، ولّد الشعور بالتهميش، ولاحقا ثارت هذه القبائل ضد الحكم العثماني بالمنطقة باسم الدين؛ حيث قاد هذه الثورات رجال الطرق الدينية والمرابطين تغذيها العصبية القبلية.

لعبت القبائل الوهرانية دورا مهما في تعزيز الوجود الأجنبي في المنطقة، وسنرى بعد احتلال الفرنسيين الجزائر سنة 1830م الجزائر أهمية الدور الذي قامت به قبائل المخزن المتعاونة في تعزيز قوة الفرنسيين وإفشال مقاومة الأمير عبد القادر.

الملاحق

الملحق رقم01 : رسالة الملك الزياني إلى الإسبان

الملحق رقم 02 : رسالة أحد شيوخ القبائل إلى الإسبان

الملحق رقم 03: القبيلة في حالة الأمن

ملحق رقم 04: القبيلة في حالة الحرب

.

.

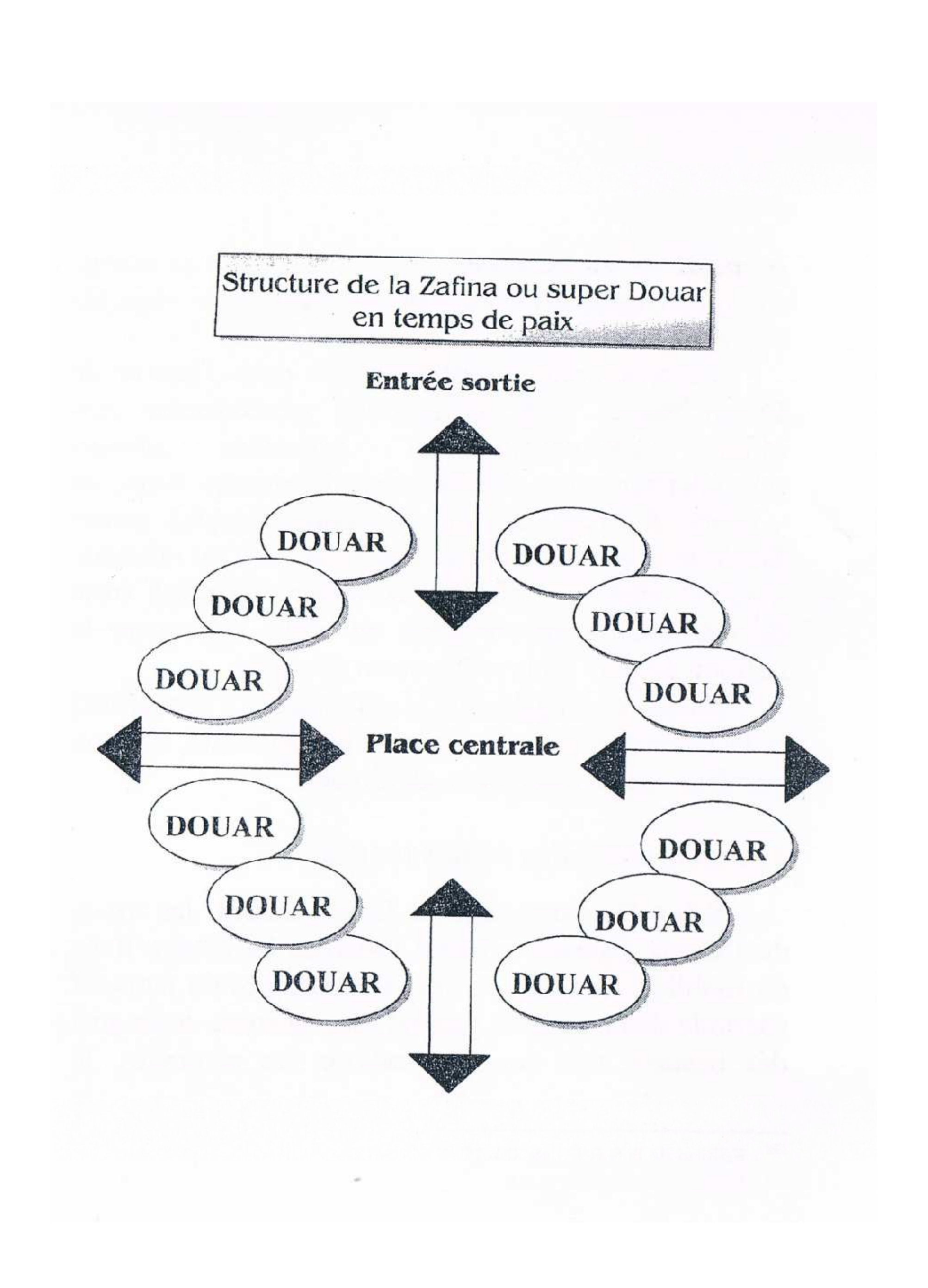
الملحق رقم 01[1]: رسالة الملك الزياني إلى الإسبان.

[1] -(Ch).de la Veronne, Op.cit, p314.

الملحق رقم 02:[1] : رسالة أحد شيوخ القبائل إلى الإسبان.

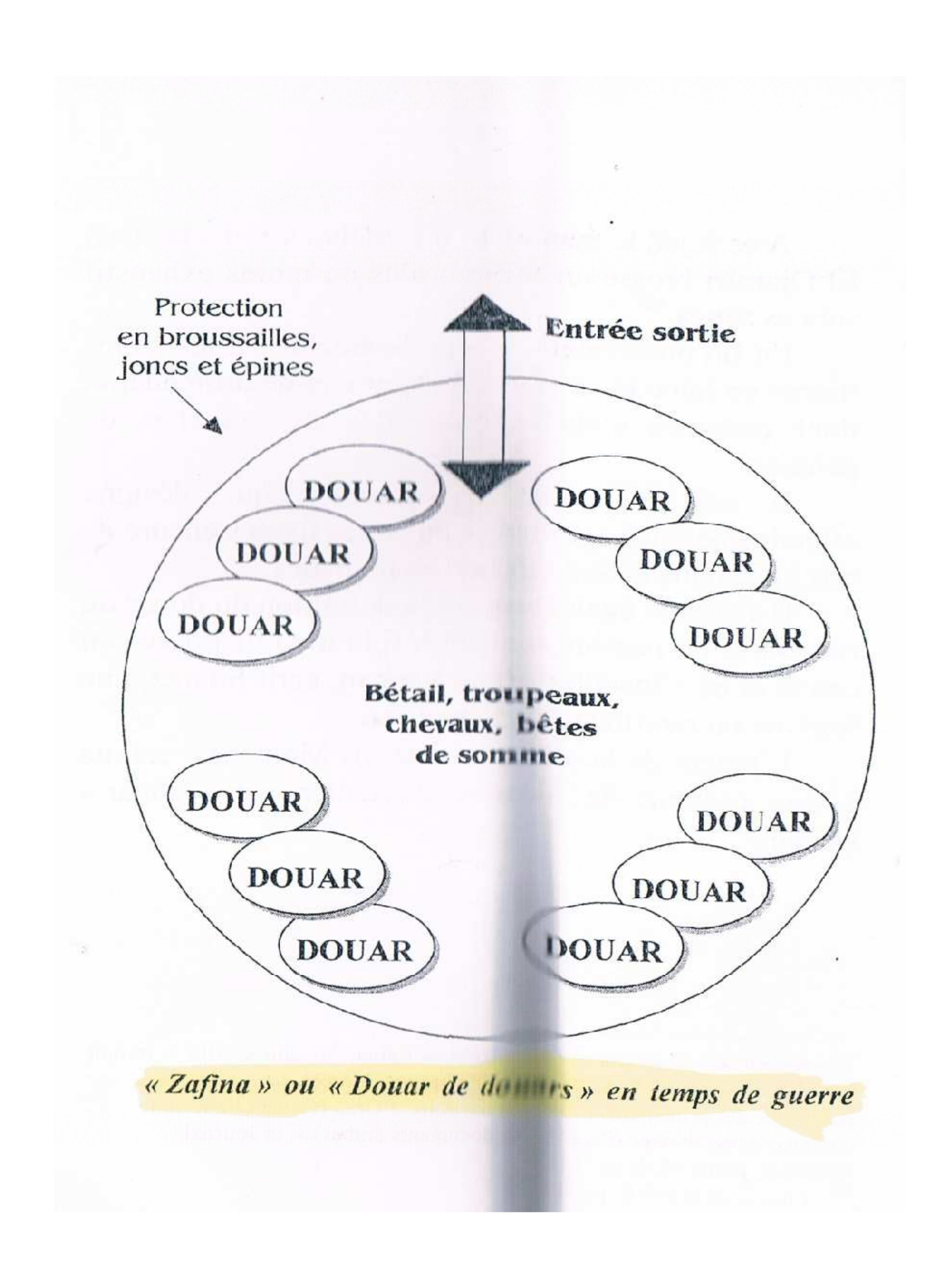
-[1] (Ch).de la Veronne, Op.cit, p310

الملحق رقم 03:[1]: القبيلة في حالة الأمن



1 - (M). Nourdine, Op.cit, p.213

ملحق رقم 04[1]:القبيلة في حالة الحرب



« Zafina » ou « Douar de douars » en temps de guerre

- [1] (M). Nourdine, Op.cit, p. 208

قائمة المصادر والمراجع

1-المصادر والمراجع باللغة العربية:

أ- المصادر:

-ابن خلدون عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تح: خليل شحاذة وسهيل زكار، ج6، دار الفكر، لبنان، 2006م.

-ابن خلدون عبد الرحمن، رحلة ابن خلدون، تح: محمد بن تاويت الطنجي، بيروت، 2004.

-ابن خلدون عبد الرحمن، مقدّمة ابن خلدون، ج2، تح: علي عبد الواحد وافي، دار النهضة، مصر، 2014.

-ابن منظور، لسان العرب، مطبعة بولاق، مصر، 1301هـ.

-لخضر بن خلوف، ديوان سيدي لخضر بن خلوف، تح: الغوثي بخوشة، تلمسان، د.ت.

-البكري عُبيد الله، المغرب في ذكر بلاد افريقية، الدار الكتاب، القاهرة، د.ت.

-بن عثمان خوجة حمدان، المرآة، تقديم وتعريب: العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2009م.

-بن ميمون الجزائري محمد، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

-الراشدي ابن سحنون، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة، الجزائر، د.ت.

-الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح: المهدي البوعبدلي، المؤسسة االوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2007.

-كربخال مرمول، إفريقيا، ج2، تر: محمد حجي وآخرون، دار المعرفة، الرباط، 1989.

-المزاري الأغا بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار الجزائر ووهران واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج1، تح: يحيى بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009م.

-المشرفي عبد القادر، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تح: محمد بن عبد الكريم، ط1، دار الوعي، الجزائر، 2017.

- الناصري أبو راس، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، تح: محمد غانم، منشورات CRASC، وهران، د.ت.

- الناصري أبو راس، الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية، مطبعة بيير فونطانا، الجزائر، 1903م.

- الناصري أحمد بن خالد، كتاب الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى-الدولة العلوية- تح: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997.

- الوزان الحسن بن محمد، وصف افريقيا، ج2، ط2،دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1983.

- الوفراني محمدالصغير، نزهة الحادي في أخبار القرن الحادي، مطبعة بردين، باريس، 1888م.

ب- المراجع:

-بروديل فرنان، المتوسط والعالم المتوسطي، تعريب وإيجاز: مروان أبي سمرا، ط1، دار المنتخب، بيروت، 1993.

-بن أشنهو عبد الحميد، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، الطباعة الشعبية للجيش، د.ت.

-بوشرب أحمد، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، ط1، دار الأمان، الرباط، 1997.

-بوعزيز يحي، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار الهدى، الجزائر، 2009م.

-بياض الطيب، المخزن والضريبة والاستعمار، افريقيا الشرق، المغرب، 2011م.

-الجابري محمد عابد، العقل السياسي وتجلياته، ط4، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، د.ت.

-الجابري محمد عابد، فكر ابن خلدون العصبية والدولة: معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، ط10، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، 2014م.

-حسان مختاري، تاريخ الدولة الزيانية، ج1.ج3، ط1، دار الحضارة، الجزائر، 2007.

-سعد الله فوزي، يهود الجزائر هؤلاء المجهولين، ط1، دار الأمة، الجزائر، 2004.

-سعيدوني ناصر الدين، النظام المالي في الجزائر أواخر العهد العثماني (1790-1830م)، ط3، دار البصائر، د.ت.

-صادق محمد حاج، مليانة ووليّها سيدي احمد بن يوسف ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1964.

-عميراوي أحميدة، الجزائر في أدبيات والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا)، دار الهدى، عين مليلة (الجزائر)، د.ت.

-فيلالي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، ج2، موفم للنشر، الجزائر، 2002م.

-فكاير عبد القادر، الغزو الاسباني للسواحل الجزائرية وآثاره، دار هومة، الجزائر، د.ت.

م-حمود الزوبعي بشرى، محاكم التفتيش الاسبانية (1480- 1515م)، دار زهران، عمان (الأردن)، د.ت.

-المدني أحمد التوفيق، حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492-1792م)، المؤسسة الوطنية، الجزائر، د.ت.

-المدني أحمد توفيق، جغرافية القطر الجزائري، مطبعة ...، د.ت.

-مروش منور، القرصنة، الأساطير والواقع، ج2، دار القصبة، الجزائر، 2009.

-مغربي عبد الغني، الفكر السوسيولوجي عند ابن خلدون، تعريب: محمد بن شريف بن والي، دار القصبة، الجزائر، 2006م.

-مفلاح محمد، أعلام من منطقة غليزان، دار المعرفة، الجزائر، 2008م.

-الميلي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة، الجزائر، د.ت.

-الميلي محمد مبارك، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مطبعة بدران وشركائه، بيروت، 1946.

-وافي عبد الواحد علي، منطق ابن خلدون، ط2، دار كوفتن، بيروت، 1994م.

-وولف جون، الجزائر وأوربا، (1500-1830م)، تر: أبو قاسم سعد الله، طبعة خاصة، عالم المعرفة، الجزائر، 2011.

ج-الرسائل الجامعية:

-بن صحراوي كمال، أوضاع الريف في بايلك الغرب في اواخر العهد العثماني، أطروحة الدكتوراه، جامعة وهران، 2012-2013.

-دغموش كاميلية، قبائل الغرب بين الاحتلال الاسباني والسلطة العثمانية، (1509-1792م)، مخطوط رسالة الماجستير، جامعة وهران، 2013-2014م.

-دكاني نجيب، الاحتلال الاسباني للسواحل الجزائرية وردود الفعل الجزائرية خلال القرن العاشر الهجري والقرن السادس عشر ميلادي، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر (2001-2002م).

-سلطانة عابد، التراتبية الاجتماعية في بايلك الغرب وأثرها على مقاومة الأمير عبد القادر (1832-1847م)، أطروحة الدكتوراه، جامعة وهران، 2010-2011م.

-غطاس عائشة، الحرف والحرفيون في مدينة الجزائر (1700-1830م)، أطروحة الدكتوراه، جامعة الجزائر، 2000-2001م.

-الواليش فتيحة، الحياة الحضرية في بايلك الغرب خلال القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1993-1994.

د-الأبحاث والدراسات:

-بلبراوات بن عتو، **سلاطين مملكة تلمسان الزيانية في مواجهة بربروس (1517-1546م)**، عصور جديدة، العدد: 2، جامعة وهران، 2011، ص ص. 215-230.

- بلبوري سيد أحمد، **أهمية ميناء المرسى الكبير والنشاط التجاري الفرنسي الإنجليزي إبان الاحتلال الاسباني (1732- 1754م)**، دفاتر التاريخ المغربية، العدد: 1، جامعة وهران، 1 ديسمبر 1987م، ص ص.54-61

-بلحميسي مولاي، **نهاية الدولة الزيانية**، مجلة الأصالة، العدد: 26، الجزائر،1975، ص.ص.30-36.

-البوعبدلي المهدي، **الرباط والفدا في وهران والقبائل الكبرى**، الثقافة الاسلامية، العدد: 6، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 2010، ص ص. 11-29.

-حماش خليفة، **دور الطلبة الجزائريين في تحرير وهران من الاحتلال عامي 1118هـ/1707 و1205هـ/1791م: مقاربة تاريخية في تأصيل الحركة الطلابية الجزائرية**، مجلة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد: 9، الجزائر 2009، ص ص.204-222

-دادة محمد، **تلمسان في دوامة الصراع الثلاثي بين الأسبان والعثمانيين والمغاربة فيالقرن 16م**، عصور الجديدة، العدد:2، جامعة وهران، 2011، ص ص.193-202.

-فكاير عبد القادر، **دور العلماء في مواجهة العدوان الاسباني على الجزائر**، مجلة المواقف، عدد خاص، جامعة معسكر، ص ص.280-290.

-المدني احمد توفيق، **تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين (1530-1550م)**، الأصالة، العدد: 26، الجزائر،1975، ص ص. 37-45.

-مصدق سمية، **استقطاب غريس للأشراف**، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، العدد: 5 و6 جوان 2014/2015م، ص ص.273-294.

-موصدق خديجة، **الرباط وبعده الثقافي والعلمي لمدينة وهران**، مجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد:12، الجزائر، جانفي 2015، ص ص. 315-329.

-بوعزيز يحيى، **المراحل التاريخية لدولة بني عبد الواد الزناتية**، مجلة الأصالة، العدد: 26، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1975، ص ص. 3-29.

الموسوعات:

-عبده عبد السلام، الرباط، الموسوعة الإسلامية العامة، منشورات وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة، 2003.

2-المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

أ-المصادر:

-(Dr). Chaw, Voyage dans la régence d’Alger, Tr : d’Anglais par J. Mac Carthy, Paris, 1830.

-Berbrugger. (A), Géronimo, le Martyr du Fort des Vingt-Quatre Heures à Alger, 1859.

-Blum Nely, la Croisade de Ximenès en Afrique, Imprimerie Typographie la Fouque, Oran, 1860.

-de Haedo. (D), de la Captivité à Alger, Tr : Moline-Violle, Alger, 1911.

-de la Primaudaie. Elié, Documents inédits sur l'Histoire de l'Occupation en Afrique (1506-1574), Alger, 1875.

-de la Primaudaie. Elie, le Commerce et Navigation de l'Algérie, Alain Spenato, Paris, 1856.

-de Moralès. (B), Dialogue sur les Guerres d'Oran, Tr : (R). Fransisque Michel.

- de Paradis Venture, Alger, au XVIII Siècle, Alger, 1898.

-Didier. (L), Histoire d'Oran (Période de 1505-1550), Imprimerie Jeanne, Oran.

-Diego de Haedo. (F), Histoire des Rois d'Alger, Tr : H-D.de Gramont, Alger, 1881.

-Esterhazy Walsin, de la domination Turque dans l'ancienne régence d'Alger, Paris, 1840.

-Helefe. (J), le Cardinal Ximénès et l'Eglise d'Espagne, Lyon, 1856.

-Joseph de Stomayor.(L) y Valenzuela, Brève relation de l'Expulsion de Juifs d'Oran en 1669, Tr : J-Frédéric Schaub, Ed : Bouchène, Paris, 1998.

-Leon Fey-Henri, Histoire d'Oran avant, pendant et après la domination Espagnoles, Oran, 1858.

-Ranget. (A) et Denis. (F), Histoire d'Aroudj et de Kheir-ed Din fondation de la Régence d'Alger, T.1, 1857.

-Suarez Diego, Historia del Maestre Ultimo que fue de Montisa y de su hermano Don Filipe de Borja, T1, Madrid.

ب-المراجع:

-Bargès. (A), Tlemcen ancienne Capital du Royaume de ce Nom, Paris, 1859.

-De Gramont. (H-D), Histoire d'Alger sous la domination Turque (1515-1830), Paris, 1887.

-de la Veronne Chantal, Relation entre Oran et Tlemcen dans la Première partie du XVI Siècle, CNRS, Paris.

-Djeghloul Abdekader, D'El Djazair à El Djazair … en passant parl'Algérie, Dar el Gharb, Oran.

-El Korso. (M) et de Epalza. (M), ORAN ET l'Ouest Algérie d'Après le rapport Aramburu, Bibliothèque National, 1978.

-Eugène Daumas, Mœurs et coutumes de l'Algérie, Ed, ENEP.

-Gorguos. (A), Histoire d'un Bey de Mascara et de l'Oranie, Adolph Jourdan, Alger, 1860.

-le Bon Edouard. (S), victoireet conquete de l'Espagne depuis l'occupation des Maures jusqu'à nos Jour, Paris.

-Lespès René, Oran étude de Géographie et d'Histoire Urbaine, Paris,1930.

-Mercier.(E), Histoire de l'Afrique Septentrionale (Barbarie), T.2, Ernest Leroux, Paris, 1868.

-Mesnage. (J), le Christianisme en Afrique, Adolphe Jordan, Alger, 1945.

-Nordine. (M), Razzia, Butin et esclavage, dans l'Oranie du XVI ème Siècle, Dar-El Garb.

-Oliel. (J), les Juifs au Sahara de Touat au moyen Age, CNRS, Paris, 1994.

-Ricard, Robert et Chantal de la Veronne, les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, Tomme II, Paris, 1956.

-Ruff Paul, de la domination espagnole à Oran sous le gouvernement du Comte d'alcaudète (1534-1558), Ed, Bouchène, 1998.

- Vilar Pierre, Or et Monnaie dans l'Histoire 1420-1920, Paris, 1974.

-Wateau.(D), Histoire de Hamayans et de la Région qu'il Occupent actuellement, Algérie, 1914.

ج-الأبحاث والدراسات:

-Alonso Acero. (B), **l'Inquisition Espagnole à la Frontière Berbèrie, Oran- Marzaquivir XVIème et XVIII Siècle,** R.L.C.R, N°5, 2004, pp.65-82.

-Ayoun. (R), **les Juifs d'Oran avant la Conquête Française,** R.H, Paris, 1928, pp.375-390.

-Berbrugger. (A), **la mort d'un fondateur de la Régence d'Alger,** R.A, N°4 ,1860, p.p25-33

-Berbrugger. (A), **Reprise d'Oran par les Espagnols en 1732,** R.A, N°8, 1864, p.p12-28

-Bernard.(A), et de la Croix. (N), **les diverses catégories Nomades,** B.S.G.A.O, T.26, 1906, pp. 17-59.

-Bodin. (M), **Note et Question sur Sidi Ahmed ben Youcef,** R.A, N°66, 1925, pp125-189

-Bodin. (M), **Notice Historique sur les Arabes Soumis aux Espagnols leur Occupation d'Oran,** R.A, N°65, 1924, p.p192.260.

-Bodin. (M), **sur l'Origine du nom de Mogatazes donnée par les Espagnols de leur auxiliaire indigène pendant leur Occupation d'Oran,** B.S.G.A.O, T.42, 1923, pp.243-247.

-Boyer Pierre, **Historique des Béni Amer d'Oranie ,** des Origines au Santus Consulte, R.O.M.M, N°24, 1977, pp.39-85.

-Braudel Fernand, **les Espagnols et l'Afrique du Nord,** R.A, N°69, 1928, p.p184-233

-Brunschvig, **Léon l'Africain et embouchure du Chélif,** R.A, N°79, 1936, p.p599-604.

-Camille. (L), **la conquête d'Oran par le Cardinal cisneros,** mémoire de l'Académie de Nîmes, T. LIX, 1977, pp

-Camille. (L), la **prise d'Oran par le Cardinal Cesniros,** mémoirede l'Académie de Nîmes, N°7, Nîmes, 1974-1975, pp. 240-261

-Cazenave. (J), **Cerventes à Oran 1581,** B.S.G.A.O, T.42, 1923, pp. 215-242.

-Cazenave. (J), **Contribution à l'Histoire de Vieil d'Oran,** R.A, N° 66, 1925, p.p323-368.

-Cazenave. (J), **les Gouverneurs d'Oran pendant l'Occupation de cette Ville (1509-1792),** R.A, N° 71, 1930, p.p257-299

-Cazenave. (J), **les Préside Espagnoles d'Afrique (leur Organisation au XVIII Siècle),** R.A, N°63, 1922, p.p225-269

-Cazenave. (J), **un Drame Africaine de Voltaire,** A.N.I, N°146, Octobre 1922, p.2

-Cazenave. (J), **un Grand Saint Musulman, Sidi Mohamed El-Houari d'Oran,** A.N.I, N°253, 6 Mars 1926, p.8

-Cazenave. (J), **visite de Don Juan d'Autriche,** A.N.I, N°146, Février 1924, p.3.

-Chérif. (D), **les Colonies Portuaires espagnoles au Maghreb du XVI au XX Siècle,** Insaniyat, 2 ème Partie, N°49, pp.73-98

-de Bourilhon. (Dr), **Notice sur le tremblement de Terre d'Oran en 1790,** B.S.A.S.A.PH, N°06, 1865, pp. 1-7

-de la Cueva. (F), **la Guerre de Tlemcen, Tr par (m). Brunel,** B.S.G.A.O, T.24, 1894, pp. 353-398.

-de la Primaudaie . (E), **Documents Inédits sur l'Histoire de l'Occupation Espagnole (1506-1574),** R.A, N°19, 1875, p.p.62-77

-de lavergne Léonce , **le Cardinal Ximenès,** Revue de deux monde, T.26, 1841, pp.3-81.

-de la Veronne Chantal, **Vida Muley Ismail, Rey de Fez (1708-1728) par Joseph de Léon,** S.H.PH.A, (1968-1967), pp. 603-608.

-de la Veronne Chantal, **Relation entre le Maroc et la Turquie dans la moitie du XVI et le début de XVII,** R.O.M.M, N°15-16, pp.391-401

-de Sandoval. (C.X), **les Inscriptions d'Oran et Mers el Kébir,** R.A, N°16, 1872, p.p.53-69.

-Domingue-Fuente. (S), **les frèsque de la compagne d'Oran Peintre par Juan de borgoña dans la Chapelle Mozarabe de la Cathédrale de Tolède,** Cahier de la méditerranée, N°83, 2001, pp.33-42.

Emerit. (M), **les Tribus Privilégie en Algérie dans la Première moitie du XIX Siècle**, A.E.S.C, N°21, 1966, pp.44-58.

-Fernando Fé Canto. **(L), la Grande Famine de 1750 dans l'Oranie : d'autre Voies la Captivité et l'esclavage,** C.M, N°87, 2013, pp.275-280.

Godard. (L), **Souvenir de l'Expédition de Ximenès,** R.A, N°5, 1861, p.p 54-58

-Gorguos. (A), **Note sur le Bey d'Oran Mohamed El Kébir,** R.A, N°1, 1856, p.p.403-454.

-Guin. (L), **Note sur les entreprises des espagnoles ,Pendant la Première Occupation d'Oran,** R.A, N° 30, 1886, p.p312-322

-Hassine Terki, **Oran au XVIII Siècle désarroi à la clairvoyance Politique d'Espagne,** Insaniyat, N°23-24, 2004, pp.197-222

-Jacqueton.(G), **l'Expédition d'A. Martin de Angulo contre Tlemcen (juin- juillet 1535),** R.A, N°36, 1892, p.p149-165.

-Kehl. (C), **Oran et L'Oranie avant l'Occupation Française,** B.S.G.A.O, T.63, 1942, pp. 27.50.

-Lawless. (R), **Tlemcen capital du Maghreb central, analysé des fonctions d'un Ville Islamique médiévale,** R.O.M.M, N°20, 1975, pp.49-66.

-le Marquis de Tabolosos, **Histoire d'Oran,** Tr : (J). Cazenave, B.S.G.A.O, T.51, 1930, pp.117-154.

-Lespès René, **Oran Ville et Port avant l'Occupation Française (1831),** R.A, N° 75, 1934, p.p277-335.

-Lespinasse, **Note sur le Hachem de Mascara,** R.A, N°21, 1877, p.p141-151.

-Masserer Gasser**, les Eaux Thermo-Minéral de Bains de la Reine,** Archive général d'Hydrologie, 1895.

-Mortel-Fatio. (A), **Soldats Espagnols du XVII Siècle, Alonso de Contreras ; Meguel de Castre et Diego Suarez,** B.H, N°02, 1902, pp. 135-158

-Noel. (A), **Document Historique surles Tribus de l'Annexe d'El-Aricha,** B.S.G.A.O, T.37 38, 1917, pp.225.290.

-Pestemaldjoglou. (A), **ce qui Subiste d'Oran Espagnol,** R.A, N°79, 1936, p.p665-686

-Pestemaldjoglou. (A), **le Consulat Français à Oran du 1732- 1754,** R.A, N°86, 1942, p.p220-254

-Ricard. (R), **les Etablissements Européens en Afrique du Nord du XV au XVIII Siècle et la Politique Restreinte,** R.A, N°79, 1936, p.p687-688.

-Sandoval. (C.X), **Inscription d'Oran et de Mers el Kébir,** R.A, N° 15, 1871, p.p173-183

-Tinthoin. (M), **le TapisVégétal du tell Oranie se modification par l’Homme,** R.A, N°79, 1936, p.p233-251

-Vincent. (B), **Philipe II et l’Afrique du Nord,** M.A.N, pp. 965-975.

فهرس القبائل
والأعلام

فهرس القبائل والجماعات:

فهرس الأعلام

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث: طبيعة التحالف والتعاون وآفاق العلاقة بين القبائل الوهرانية والأسبان

الفصل الرابع: الاحتلال الاسباني: الانحسار والضعف (1708-1792م)

الملخص:

يعالج موضوع الأطروحة الموسوم ب "قبائل وهران والاحتلال الإسباني: قراءة في مواقف التحالف والولاء". طبيعة العلاقة بين القبائل الوهرانية والمحتلّين الإسبان والنتائج المترتبة عن هذا الحلف على الوضع السياسي والإقتصادي والإجتماعي للمنطقة (بايلك الغرب). ويبرز موضوع البحث موقف الأتراك العثمانيين من هذه التحالفات، في ظل توسع المغاربة على حساب الأراضي الجزائرية. يبيّن طبيعة الاحتلال الاسباني في وهران والمرسى الكبير (1505-1792م) والمقاومة الشديدة والعنيفة من القبائل المعادية لهم والمتحالفة مع الأتراك العثمانيين، نتج عن طرده نهائيا عام 1792م.

اعتمدنا على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي الذي يتلائم وطبيعة الموضوع، معتمدين على اشكالية لرئيسية محاولين الاجابة عنها وهي: إلى أيّ مدى عزّز تحالف القبائل الوهرانية وتعاونهم مع الاحتلال الاسباني في تعزيز وجوده في وهران والمنطقة؟

تعرّضت المرسى الكبير ووهران للاحتلال الاسباني 1505و 1509م، وقد جعلهما الإسبان قاعدتين محصّنتين ينطلقون منهما للتوسّع داخل الأراضي الجزائرية(بايلك الغرب)، محاولين السيطرة على مزيد من الاراضي مستغلين تحالف قبائل وهرانية معهم.

الكلمات المفتاحية:

الإسبان، قبائل وهران، وهران، التحالف والولاء، الأتراك العثمانيين.

Abstract :

It deals with the topic of the thesis entitled: The Tribes of Oran and the Spanish Occupation: A Reading in alliance and loyalty.

The nature of the relationship between the Oran tribes and the Spanish occupiers and the consequence of this alliance and the political, economic and social situation of the region (Bailek Al-Ggarb). The topic of the discussion highlights the position of the Ottomans Turks towards these alliance. in light of the expansion of Moroccans at the expense of Algerian lands. It also shows the nature of the Spanish occupation in Oran and Mars al-kebir (1505-1792) and the tierce and violent allied with the Ottomans, watch culminated in their final expulsion in 1792 AD.

We relied historical descriptive, and analytical method that is compatible with nature of the subject, relying on a major problem relying to answer it: to what extend did the Oran cooperate with the Spanish occupation in strengthening its presence in Oran and the region?.

Oran was subjected to the Spanish occupation since 1509 AD and the Spanish made it a base from which to expand in to Algerian lands, trying to control more lands taking advantage of the alliance of Oran tribes witch them .

Key words: Spaniards, the tribes of Oran, Oran, alliance and loyalty, the ottoman Turks.